أخت فرويد

أدب مقدوني معاصر

جوسيه سميلفسكي

ترجمة: كريم كيلاني

رواية

مكتبة ١٠٤٣

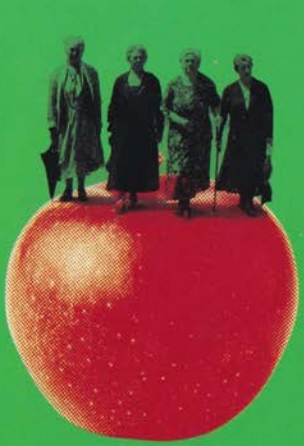

جائزة الاتحاد الأوروبي للأدب

المحروسة

مكتبة | سُر مَن قرأ
t.me/t_pdf

أخت فرويـــــد

عنوان الكتاب: أخت فرويد Сестрата на Сигмунд Фројд
المؤلف: چوسيه سميلڤسكي Гоце Смилевски
ترجمة: كريم كيلاني
مراجعة لغوية: محمود شرف

مركز المحروسة
للنشر والخدمات الصحفية والمعلومات

قطعة رقم 7399 ش 28 من ش 9 - المقطم - القاهرة
ت، ف:- 002 02 28432157

mahrousaeg
almahrosacenter
almahrosacenter
www.mahrousaeg.com
info@mahrousaeg.com
mahrosacenter@gmail.com

رئيس مجلس الإدارة: فريد زهران
مدير النشر: عبدالله صقر

رقم الإيداع: ١٩٥٦٦ / ٢٠٢٠
الترقيم الدولي: 978-977-313-821-9

جميع حقوق الطبع والنشر باللغة العربية
محفوظة لمركز المحروسة
2020

منحة الترجمة
Translation Grant
صندوق منحة الشارقة للترجمة
Sharjah Translation Grant Fund

"تمت ترجمة هذا الكتاب بمساعدة صندوق منحة معرض الشارقة الدولي للكتاب للترجمة والحقوق"

© Goce Smilevski, 2011
Published by arrangement with Agence litteraire Astier-Peacher

رواية

مكتبة | سُر مَن قرأ
t.me/t_pdf

أخت فرويـــــد

چوسيه سميلڤسكي

ترجمة
كريم كيلاني

مركز المحروسة
للنشر و الخدمات الصحفية و المعلومات

الطبعة الأولى 2020

مكتبة
t.me/t_pdf
21 11 2022

بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

سميلڤسكي، چـوسيه

أخت فرويد: رواية/ چـوسيه سميلڤسكي؛ ترجمة: كريم كيلاني.-ط1

القاهرة: مركز المحروسة للنشر والخدمات الصحفية والمعلومات، 2020

274ص؛ 14.5×21.5سم.

تدمك 978-977-313-821-9

1 - القصص المقدونية

أ- كيلاني، كريم (مترجم)

ب- العنوان

891.819

رقم الإيداع ٢٠٢٠/١٩٥٦٦

مكتبة
t.me/t_pdf

1

في غُرفةٍ مُعتِمة تستلقي امرأةٌ مُسِنَّة وتُغمِضُ عينيها، لتسرح في أبعد ذكرياتها. ثلاثَةُ مَشاهِدَ تتسلَّل لِعَقلِها: وقتَ كانت أمورٌ عديدة في العالم لم تَزَل بلا اسم، وأعطاها صبيٌّ شيئًا حادًّا، وقال لها "سكِّين"، وحين كانت بَعْدُ تُصَدِّق الحكاياتِ الخرافية.. وهمس صوتٌ في أذنها بحكاية العصفور الذي ثَقَب صدرَه بمنقاره ومَزَّق قلبه، وحين كانت اللَّمسَة تُخبِرها بأكثر ممَّا تقوله الكلمة، واقتربت يَدٌ ما من وجهها، وداعَبَت خَدَّها بتفَّاحة.

كان ذلك الفتى في ذاكرتها، الذي داعَبَها بالتفاحة وروى لها الحكاية، وأعطاها السِّكِّين هو أخوها سيجموند، أمَّا المرأة التي تَجرفُ ذكرياتها... فهي أنا: أدولفينا فرويد.

قال صوتٌ في الغرفة المظلمة: "أدولفينا هل أنتِ نائمة؟".

قُلتُ: "أنا مستيقظة"، كانت أختي بولين تستلقي بجواري على الفراش.

"كم الساعة؟"- سألتني.

"منتصف الليل تقريبًا".

اعتادت أختي الاستيقاظَ مُنتصَفَ كُلِّ ليلةٍ لتبدأ نفس القِصَّة بالكلمات ذاتها:

- "إنها نهاية أوروبا"...
- "شَهِدَت أوروبا نهاياتٍ عديدة".
- "سوف يقتلوننا كالكلاب".

قلتُ: "أعرف".

- "ألستِ خائفةً؟".

لم أَنْبَس بكلمة.

- "هكذا كان الوضع في برلين سنة 1933"- استَطرَدَت بولين.

لم أَعُد أحاول مَنعَها من ترديد ما رَوَته لي مرَّات ومرَّات: "فور سيطرة الاشتراكيين القوميين وأدولف هتلر على الحُكم تَظاهَر الشباب في الشوارع على نغمات المارشات العسكرية، كما يفعلون هنا بالضبط، ورَفْرَفَت راياتُ الصليب المعقوف من المباني كما تُرَفرِف في الريح هنا، كان بوسعك سماع صوت الفوهرر عبر أجهزة المذياع ومُكَبِّرات الصوت في الميادين العامَّة والحدائق كما نسمعها هنا الآن أيضًا، كان يَعِدُ بـ "ألمانيا جديدة... ألمانيا أفضل... ألمانيا نقيَّة".

كان العام 1938. قبل ثلاث سنوات هربت شقيقتاي بولين وماري من برلين، وعادتا إلى الشقة التي تَرَكَتاها بعد زواجِهما. كانت بولين شِبْهَ كفيفةٍ، وتحتاج إلى رعاية أغلب الوقت، وقد اعتادت النومَ في

فِراش والِدَيْنا، بينما تَناوَبنا أنا وماري على النوم بجوارها؛ ذلك لأن بولين تستيقظ مُنتَصفَ كلِّ ليلة وتُبقي أيًّا من كان بجوارها -أنا أو ماري- مستيقِظًا طوال الليل.

"ستتكرَّر الأوضاع ذاتها هنا" واصَلَت أختي، "أتعرفين كيف كانت الأمور هناك؟".

أجَبتُها شِبْهَ نائِمَةٍ: "أعرف. أخبَرتِني من قبل".

"نعم... داهَمَ رجالٌ بزيٍّ مُوَحَّدٍ بيوتَ اليهود ليلًا، حَطَّموا كُلَّ شيء، وضربونا، وأمرونا أن نرحل، كلُّ مَن رفض تأييد الفوهرر أو تجرَّأ على الجَهْر بمعارضته اختفى فجأةً، وبلا أثر. قال الناس إنَّ كُلَّ مَن يُعارض المبادئ التي ستُبنَى عليها ألمانيا الحديثة سيُؤخَذُ للمُخيَّمات، حيث الأعمال الشَّاقَّة. لقد عُذِّبوا وقُتِلوا، وهذا ما سيحدث هنا... صَدِّقيني".

صدَّقتها، لكنَّني لم أنطق؛ فأي كلمة ستدفعها لقول المزيد.

قبل عِدَّة أسابيع اجتاح الجيشُ الألمانيُّ النمسا، وعَيَّن حكومةً جديدة. وحين استشعر أخونا ألكسندر الخَطَرَ هَربَ مع عائلته إلى سويسرا. في اليوم التالي أُغلِقَت الحدود، وتَعيَّن على مَن يرغب في السفر أن يُعْلِمَ مكتب الهجرة الذي أنشؤوه حديثًا.

تقدَّم الآلاف للحصول على تأشيرة خروج، لكن لم يُسمَح بالرحيل من البلاد سوى للقليل.

قالت بولين: "طالما يمنعوننا من مغادرة البلاد بحُرِّيَّة فهذا يعني أنهم يُدَبِّرون لنا أمرًا"، لم أنبس بكلمة، فواصَلَت: "سيسلبوننا كُلَّ شيء، ثم يملؤون الحُفَر بجُثَثِنا".

قبل بضعة أيام دخل رجالٌ بزيٍّ مُوَحَّدٍ شقَّةَ شقيقتنا روزا، وأبرزوا لها أوراقًا رسميَّةً تُلزِمُ بمُصادَرَة شَقَّتها وكُلِّ ممتلكاتها. "الآن هناك

ضُبَّاطٌ ينامون على أَسِرَّة أطفالي"- هكذا قالت روزا ظهيرةَ يومَ انتقَلَت إلى المبنى الذي أعيش فيه مع بولين وماري، وليس معها سوى بعض الصور والملابس... والآن نعيش -نحنُ: الشقيقات الأربعة- معًا في بيتٍ واحد كما كُنَّا منذ زمنٍ بعيد.

قالت بولين بنبرةٍ أكثرَ حِدَّة: "هل تسمعينني؟ سيملؤون الحُفَر بجُثَثِنا".

"تقولين لي الأمر ذاته كلَّ ليلة!".

"ولا زِلتِ لا تفعلين شيئًا".

"وماذا عساي أن أفعل؟".

"يُمكِنُكِ أن تذهبي إلى سيجموند وتُقنعيه بِطَلَبِ تأشيراتِ خُروجٍ لنا نحن الأربعة".

"وإلى أين سَنَذهَب بعد ذلك؟".

"إلى نيويورك"- أجابت بولين (التي تعيش ابنتها هناك). "تعرفين إن بييتريس ستعتني بنا".

استيقظنا في اليوم التالي في الظهيرة، تأبَّطتُ ذراع بولين وذهبنا للتَّمشِيَة.

أثناء مشينا على الرصيف، رأينا عِدَّةَ شاحِناتٍ تَمُرُّ بجوارنا، ثم تَوَقَّفَت، ووَثَبَ منها جنودٌ أَقحَمونا في إحداها. كانت الشاحنة مُكتظَّةً بالمرعوبين.

قالت أختي: "سيقودوننا إلى حَتفِنا".

أجابها أحدُ الجنودِ المكَلَّفين بحراستنا في الشاحنة ضاحكًا: "كلَّا، سنصحبكم إلى الحديقة لنلعب سويًا".

دارت العرباتُ في أحياء اليهود، مُتَوقِّفَةً بين حينٍ وآخر لِتَجمَعَ المزيد من الناس، ثم اصطحبونا بالفعل إلى الحديقة، إلى ملاهي برايتر. دفعوا بنا خارج الشاحنة وأجبرونا على الرَّكض والقَرْفَصَة والوقوف والقفز. كان أغلَبُنا من المُسِنِّين الواهنين، وحين كُنَّا نَسقُطُ من الإرهاق، كان الجنود يركلوننا بين أفخاذنا. أَمسَكتُ بِيَدِ بولين طيلةَ الوقت.

"اعفوا عن أختي بِرَبِّكُم... إنها كفيفة!"- قلت للجنود.

"كفيفة!"- ضحكوا ساخرين. "هذا رائع! مزيد من المرح!".

أَجبَروها على السَّيرِ بِمُفرَدِها، وأوثقوا يديها خلف ظهرها حتى لا تستطيعَ تَحَسُّسَ طريقها. سارت بولين حتى اصطَدَمَت بشجرةٍ وانهارت على الأرض، لَحِقتُ بها، وانحنيتُ أَمسَحُ عن وجهها الغُبارَ والدِّماء التي سالت على جبهتها.

ضحك الجنود بصوتٍ جَمَعَ حلاوةَ اللامبالاة، ومرارةَ التَّلذُّذ بعذاب الآخرين. بعدها، قادونا إلى آخر الحديقة، وأوقفونا صفًّا، ثم صوَّبوا إلينا بنادقهم.

"استديروا"- أَمَرونا.

أدرنا ظهورنا للبنادق.

"والآن اركضوا إن أَرَدتُم النجاةَ بحياتكم"- صاح أحدهم؛ فأطلق العَجائِزُ سيقانَهم للرِّيح، جرينا ووقعنا ونهضنا وعاوَدنا الركض، ومن خلفنا، تعالَت ضحكات الجنود، بصوتٍ جَمَعَ حلاوة اللامبالاة، ومرارة التَّلَذُّذِ بعذاب الآخرين.

أمضينا أنا وروزي وبولين وماري ذلك المساء في صمتٍ. ارتجَفَت بولين، ليس خوفًا على حياتها قدرَ ما كان الفَزَعَ من عدم رؤية أقرب البشر إليها، مَن خَرَجَت من رحمها. لقد مات أبناء روزا وماري، أمَّا

الأثر الوحيد المتبقّي من العائلة التي لم أُكوِّنها أبدًا، فلم يكن سوى بُقعَة دماءٍ باهتة على الحائط بجوار فراشي.

يُقال إن مفارقة الحياة أصعب على مَن يتركون خلفهم ذُرِّيَّة؛ فالموت يُفَرِّق بين مانِح الحياة ومُتَلقِّيها... انزَوَت بولين إلى الحائط، واختَلَجَت؛ إذ أصابها الشُّعورُ بهذا الانفصال.

في اليوم التالي ذهَبتُ للقاء سيجموند، كانت ظهيرة الجمعة، وهو الوقت الذي خَصَّصه لطَقسِ تَنظيف التُّحَف في مكتبه. أَردتُ أن أُخبِرَه بما حدث معي وبولين في اليوم السابق، لكنه أراني قُصاصةً من جريدة:

"انظري ماذا كتب توماس مان؟".

قلتُ له: "ماري وبولين خائِفتان أكثرَ من ذي قبل".

سأل -بينما يضع القصاصة على الطاولة-: "خائفتان؟ من ماذا؟".

"تقولان إن ما شاهداه في برلين سيتكرَّر هنا".

قال: "ما شاهداه في برلين..."- ثم التقط إحدى التُّحَف من على الطاولة؛ قرد حجري، وراح ينظِّفه بفرشاةٍ صغيرة، واستطرد: "لن يَحدُثَ أيٌّ من ذلك هنا".

"إنه يحدث بالفعل، عصابات هَمَجيَّة تقتحم الشُّقَق في حَيِّنا، يُوسِعُون الجميعَ ضربًا، في الأسبوع الماضي انتحر المئات من الناس، لم يتحمَّلوا الضغط. اقتحم مجانينُ مَلجَأ الأيتام اليهودي، وحَطَّموا النوافِذَ، وأجبروا الأطفال على الركض على بقايا الزُّجاج المكسور".

"وأجبروا الأطفال على الركض على بقايا الزجاج المكسور..."- قال سيجموند مُمَرِّرًا الفرشاةَ على جسد القرد الحجريِّ: "لن تَستَمرَّ هذه الأوضاع طويلًا هنا".

"إذا كان الأمر كذلك فلماذا يتقدَّم كُلُّ قادرٍ للحصول على تأشيرة خروج ويهربون من البلاد؟ ألم تشاهدهم في الشوارع؟ إنهم يتركون

بيوتهم... إلى الأبد، لقد جمعوا كُلَّ متعلقاتهم في صُرَّة أو اثنتين ليهربوا بحياتهم. هناك شائعات بأنهم سيبنون معسكرات الموت هنا أيضًا، أنتَ لديكَ معارفُ وأصحابُ نفوذٍ -هنا، وحول العالم- يمكنهم أن يُدبِّروا لك ما شِئتَ من تأشيرات الخروج، اطلُبْ ما يكفي لخروج العائلة كلِّها، نصف سكان ڤيينا يسعون للحصول على هذه التأشيرات دون جدوى، فَلْتَستَغِلَّ صداقاتك لإخراجنا".

أعاد سيجموند القردَ على الطاولة، وأمسك بتمثالٍ آخر؛ إلهة الخصوبة الأم، وراح يمسح الجسَدَ العاري بالفرشاة.

سألتُه بصوتٍ جافٍّ ومُتعَب: "هل تسمعني؟".

نظر أخي إليَّ وسألني: "إلى أين ستذهبين بعد ذلك؟".

"إلى ابنة بولين في نيويورك".

"وماذا ستفعل ابنة بولين بأربع سيِّداتٍ مُسِنَّاتٍ في نيويورك؟".

"إذن حاوِلْ على الأقل أن تحصل على تأشيرة لبولين". كان ينظر إلى تمثال الإلهة الأم العاري، ولم أعرف إذا سَمِعَني أم لا.

"هل تسمعني؟ لا أحدَ يرغب في رؤيتي أنا أو ماري أو روزي، لكن بولين بحاجةٍ لابنتها، وابنتها بحاجةٍ لأُمِّها، تريد أن تَطمَئِنَّ عليها، إنها تَتَّصِلُ يوميًّا. تتوسَّل إلينا أن نَستَعطِفَكَ من أجل طلب تأشيرة خروجٍ لأُمِّها، هل تسمعني يا سيجموند؟".

يضع الإلهة الأم على الطاولة.

"هل تُحبِّين أن أقرأ لك القليلَ من مقالة مان؟ عنوانها: الأخ هتلر".

التقط قصاصةَ الصَّحيفة وراح يقرأ: "لَكَمْ يكره هِتلر المحلِّلين النَّفسيِّين، أشعر في قرارَةِ نفسي بأنَّ قُوى الشر التي تتقدَّم نحو ڤيينا هي في الواقع مُوجَّهة إلى المحلِّل النفسي العجوز الذي يعيش هناك؛ لأنَّه العَدوُّ الأخطر والأهم. إنه فيلسوفٌ يُفَجِّر الاضطرابَ العَصبيَّ،

مُحطِمُ الأوهام العظيم، شخصٌ يعرف جيِّدًا ما يجري ويملك عبقريَّةً حقيقيَّة". ثم وضع القُصاصة على الطاولة وقال: "كتب مان هذا المقالَ بسُخريَةٍ ماكِرة!".

"العبارة الوحيدة الصحيحة فيما قرأته للتَّوِّ هي "المحلِّل النفسيُّ العجوز"... ها أنا أقول لك بدون سُخريَةٍ ماكرة، علاوةً على ذلك، فسواء كان التأكيد على أنَّكَ أَلَدُّ أعداء أدولف هتلر ساخِرًا أم جادًّا، فما هذا إلَّا مَحْضَ هُراء، أنتَ تعلم أن الدافع وراء احتلال النمسا هو تنفيذ خُطَّة هتلر الكبرى لغزو العالم، بعدها سيمسح أيَّ شخصٍ لا ينتمي إلى العِرْق الآريِّ من وجه الأرض، الكُلُّ يعرف ذلك: أنت، ومان، وحتى أنا -المرأة المسكينة العجوز- أعرف ذلك!".

"لا تَفزَعي، طموحات هتلر ستنتهي، وفي غضون أيَّامٍ سَتُجبِره بريطانيا وفرنسا على الانسحاب من النِّمسا، وسيُهزَم في ألمانيا كذلك، سيهزمه الألمانُ أَنفُسُهم، تأييدهم له الآن مجرَّد خسوفٍ مُؤقَّتٍ لصوابهم".

"استَمَرَّ هذا الخسوفُ لسنواتٍ".

"هذا صحيح، استمرَّ لسنوات، ولكنه سينتهي. الألمان مدفوعون بقوى الظلام الآن، لكن في مكانٍ ما بداخلهم، ما زالت تلك الرُّوحُ التي نشأت عليها أنا أيضًا مُتوهِّجة. لا يمكن لجنون هذه الأُمَّة أن يستمرَّ إلى الأبد".

"سيستمرُّ لما يكفي من الوقت"- قلتُ.

أخي مفتونٌ بالروح الألمانية منذ طفولته، زَرَعَ هذا الحُبَّ فينا أيضًا، أخواته. أقنعنا أن اللغة الألمانية هي الوحيدة القادرة على حِفظِ أعظم إنجازات العقل البَشريِّ، ونَقَلَ إلينا حُبَّ الفنون الألمانية، وأخبَرَنا أن نَفخَرَ كونَنا نعيش على أرض نمساوية، فرغم يهوديتنا إلَّا أننا انتمينا للثقافة الألمانية. حتى الآن وهو يرى انحدار الروح الألمانية لسنوات،

وكيف يدوس الألمانُ أنفُسَهم على مَكاسِبِهم، أعاد القولَ مرارًا، كأنَّما ليُقنِعَ نفسه، بأنَّ كُلَّ هذا مُؤقَّتٌ، وأن الرُّوح الألمانية ستستعيد بريقها.

***

مُنذُ ذلك اليوم في المكتب، كُلَّما اتَّصلنا بسيجموند أخبَرَنا أحدُهُم أنه ليس في البيت، أو مشغول مع مرضاه، أو يشعر بالإعياء ولا يستطيع الرَّدَّ على الهاتف. كَرَّرنا سؤالَنا عَمَّا إذا كان ينتوي التَّقدُّمَ بطلبٍ للحصول على تأشيرات خروج من النمسا، لكنَّ ابنته آنا وزوجته مارتا وشقيقتها مينا قالوا لنا إنهم لا يعلمون شيئًا عن الأمر.

مَرَّ شهرٌ كامل دون أن نرى أخانا، وفي السادس من مايو، عيد ميلاده الثاني والثمانين، عقَدتُ العَزمَ على الذهاب إلى بيته بصُحبَةِ بولين. أخَذْنا معنا هدية صغيرة، كتاب حسبنا أن يَحظَى بإعجابه، وانطلقنا صوب بيرج جيس 19.

في بيت أخي فتحت لنا آنا الباب.

قالت: "جئتما ونحن نعمل" وأفسَحَت مساحَةً كافيةً بينها وبين الباب لكي نَمرَّ.

سألتُها: "تعملون؟".

"إننا نحزم أمتعتنا... لقد أرسَلنا عشرَ رُزَمٍ كبيرة مثلها بالأمس، ما زال علينا أن نُقرِّر أي الجوائز الكثيرة التي حصل عليها والدي سنأخذ معنا".

"سترحلون؟".

"ليس حالًا، لكننا أردنا أن نحزم كلَّ شيء بأسرع ما يمكن".

في المكتب، كانت الهدايا التَّذكاريَّة والكتب والصناديق الكبيرة والصغيرة والتُّحَف- مُبَعثرَةً في كل مكان، كل ما أعطاه له الناس يومًا

وقَـرَّر الاحتفـاظ بـه. جلـس سـيجموند عـلى كُرسـيِّه الأحمـر الوثـير في وسـط الغرفـة مُتفَحِّصًـا الأشـياء المبعـثرة عـلى الأرض.

التفـت إلينـا وبالـكاد أومـأ لنـا، ثـم سرعـان مـا عـاد انتباهُـه للفـوضى. أخبَرتُـه أننـا جئنـا لنهنِّئَـه بمناسـبة ذكـرى ميـلاده؛ فشَـكَرَنا، ووضـع الهديـة عـلى الطاولـة بجـواره.

قال: "كما ترون... سنرحل إلى لندن".

قلتُ له: "يمكنني مساعدتك في حزم الأمتعة".

قالـت آنـا إنهـا سـتُناوِلُني الأشـياء التـي سـيتخلَّصون منهـا فأقـوم بوضعهـا في صناديـق الأغـراض غـير المهمَّـة، بينـما تُرَتِّـب هـي المقتنيـات التـي اختاروهـا في صناديـقَ سيُرسِـلونها لاحقًـا إلى لنـدن، والتزَمَـت بولـين بالوقـوف بجـوار الحائـط.

"عُلبَـة السـجائر؟"- سـأَلَت آنـا مُلتَفِتَـةً إلى والدهـا، مُبدِيَـةً لـه عُلبَـةً فضِّيَّـةً مُرَصَّعَـة بعـدَّة أحجـار خـضراء.

قال: "إنها هدية من أُمِّكِ، سنأخذها".

وضَعَت آنا العلبة الفضية في الصندوق.

"والدومينو العاج؟"- سأَلَته آنا.

أمعـن سـيجموند التفكـير للحظـة أو اثنتـان ثـم قـال: "لا أذكـر مَـن أهـداني إيَّاهـا... ألقيهـا".

ناوَلَتنـي آنـا الدومينـو فوضعتهـا في الصنـدوق الـذي حـوى كومـةً كبـيرة مـن الكتـب والتـذكارات والتُّحَـف التـي تَـمَّ التَّخلُّـص منهـا.

"وهـذا؟"- سـأَلَت آنـا، بينـما تلتقـط كتابًـا وتُدنِيـه إلى عينَـيْ سـيجموند: "هـذا الإنجيـل كان هديَّـةً مـن جَـدِّكِ چـيكوب في عيـد ميـلادي الخامـس والثلاثـين.. سـنأخذه".

قالت آنا إنها مُتعَبَة لأنها كانت تعمل منذ الصباح، وأرادت الحصول على قِسطٍ من الراحة، فمضت إلى غرفة الطعام لتُمَدِّدَ ساقَيْها وتشرب الماء.

قلتُ لشقيقي: "إذن تقدَّمتَ للحصول على تأشيرات خروج من النمسا على أيَّة حال؟".

"نعم".

"أَكَّدتَ لي أن الهرب لا لزومَ له".

"هذا ليس هروبًا، إنها مُغادَرة مُؤقَّتة".

"متى سترحلون؟".

"مارتا وآنا وأنا سنرحل في أول يونيو".

"وماذا عنَّا... مَن تتركهم وراءَكَ؟"- لم يُجِب.

"متى ستغادر بولين وماري وروزا وأنا؟".

"لن تغادروا".

"حقًّا؟".

"لستُنَّ في حاجةٍ لذلك"- قال. "سأرحل رغمًا عَنِّي، بعض الأصدقاء من الدبلوماسيِّين الفرنسيين والبريطانيين أصرُّوا أن تستخرج لي الجهات المحلِّيَّة تأشيراتِ خروجٍ".

"و...؟".

كان بمقدور أخي أن يخدعنا قائلًا إن أحد الدبلوماسيين الأجانب الْتَمَسَ لدى السلطات السماحَ بمغادرته هو وزوجته وأطفاله، وأنه هو نفسه لا حولَ له ولا قُوَّة كي ينقذ الآخرين، كان بمقدوره تمثيل هذه المسرحية... لكن هذا لم يكن من شيمَتِه.

"سمحوا لي بكتابة قائمة بمَن أَوَدُّ اصطحابهم معي من الأقربين".

"ولم يخطر لكَ ولو للحظة أن تكتب أسماءنا؟".

"ولا لحظة... هذا وَضعٌ مُؤقَّت... سنعود".

"حتى لو عُدتَ، فلن نكون هنا حينئذٍ". لم يَنطِق بكلمة، فقلتُ: "ليس من حَقِّي أن أسألَكَ لكنَّني سأفعل على أيَّة حال، مَن وَضَعتَ على قائمة المقرَّبين الذين تَوَدُّ إنقاذهم؟".

"صحيحٌ... مَن على القائِمَة؟"- سأَلَت بولين.

كان بمقدور أخي أن يُمثِّل مسرحيَّةً، كأن يقول إنه كتب فقط أسماءَ أبنائه وزجته واسمه، أي مَن تتوقَّع السلطات أن تُدَوَّن أسماؤهم في قائمة الأقارب من الدرجة الأولى فحسب، كان بمقدروه تمثيل هذه المسرحية، لكن لم يكن هذا من شيمَتِه، التقط ورقةً وقال: "ها هي القائمة".

نظَرتُ إلى الأسماء المدَوَّنَة في القائمة وقالت بولين: "اقرئيها لي أيضًا".

قرأتُ بصوتٍ عالٍ: أخي، وزوجته، وأبناؤهما وأُسَرُهم، وكذلك كانت أُختُ زَوجَتِه، ومُدَبِّرتا المنزل، وطبيبُ أخي الخاص وأُسرَتُه، وفي ذيل القائمة: جو في.

"جو في؟"- سأَلَت بولين ضاحِكَةً، واتَّجهَت نحو صوت سيجموند، "نعم... صحيح... لا يُمكِنُكَ العَيش بدون كَلبِكَ الصغير".

عادت آنا إلى الغرفة وقالت: "لم أسألكما ماذا تشربان... أو رُبَّما تشعران بالجوع؟".

قلتُ: "لسنا جوعى ولا نشعر بالعطش".

مكتبة
t.me/t_pdf

واصلت بولين حديثَها: "إنه أمرٌ لطيف أن تتذكَّر كُلَّ هؤلاء، حتى إنك لم تَنْسَ كَلبَكَ الصغير ومُدبِّرات منزِلِكَ وطبيبك وأسرته وشقيقة زوجتك، لكن كان بمقدورك أن تُفكِّر في شقيقاتك يا سيجموند".

"لو كان رَحيلُكُنَّ ضروريًا لفَعَلتُ، لكنْ كُلُّ هذا مُؤقَّت، ولأن أصدقائي أَصرُّوا على رحيلي".

سألتُ: "ولماذا أصرَّ أصدقاؤكَ على الرحيل إذا كان البقاءُ لا يُشكِّل خطورةً؟".

"لأنَّهم مِثلكما؛ لا يستوعبون أن هذا الوضع لن يَستمرَّ طويلًا".

"وإذا كان الأمر كذلك؛ فلماذا لا تسافر بمفرَدِكَ لبعض الوقت لتُهادِنَ أصدقاءَكَ؟ لماذا تَصطَحِبُ معكَ أُسرَتَكَ، بل وطبيبَكَ وأُسرَتَه، ومُدبِّرَتي مَنزِلِكَ، وحتى كلبك الصغير، وأخت زوجتك؟".

لم ينطق سيجموند بكلمة.

"سيجموند"- قالت بولين "بعكس أدولفينا، أنا أُصدِّقكَ، وأُصدِّقُ بأن كل هذا الرعب لن يستمرَّ طويلًا، لكنَّ حياتي ستنتهي قبل أن ينتهي هذا الرعب، ولديَّ ابنة، أنتَ يا سيجموند... كان بإمكانك أن تُفكِّر في أختك، كان يمكنك أن تفكر فيَّ وفي أن لديَّ ابنة، حتمًا تَذكَّرتَ الأمر... لقد تحدَّثتُ عنها مرارًا منذ عُدتُ أنا من برلين، وغادَرَت بياتريس حبيبتي إلى نيويورك، لم أَرَها منذ ثلاث سنوات. بمجرَّد كتابَتِكَ لاسمي كنتُ سأرى ابنتي مَرَّةً أخرى".

وحين قالت كلمة "أرى"، وجَّهَت عينيها التي ترى بالكاد نحوه وحده. "كان بمقدورك وضع اسمي بين اسم أخت زوجَتِكَ وكَلبِكَ، أو حتى تحت اسم كلبِكَ، وكان هذا سيكفيني لكي أرحل من ڤيينا وألحق ببياتريس. أعلم الآن أنها لن تراني مجدَّدًا".

حاوَلَت آنا أن تعيدنا إلى فصل الأمتعة التي ستُحزَم عن تلك التي سيتركونها خلفهم.

"وهذه؟"- سألَت، بينما تحمل في راحتها زورقًا في حجم الإصبع، فقال سيجموند: "لا أعرف مَن أهداني إيَّاه... تَخلَّصي منه".

ناوَلَتني آنا الزَّورَقَ الذي كان هديَّتي لأخي في عيد ميلاده السادس والعشرين. لم أره مُذ ذاكَ، والآن ها هو الزَّورقُ يطفو عبر الزمن. وَضَعتُه في الصندوق على مَهلٍ بين الأشياء التي سيتخلَّصون منها.

نَهَضَ أخي وسار إلى الحائط المقابل، نحو اللوحة التي رُسِمنا عليها -نحن: أبناء وبنات فرويد- قبل سبعة عقود. كان ألكسندر يبلغ من العمر عامًا ونِصفًا حين رُسِمَت اللوحة، ويذكر أنه حين كان أكبر، أشار سيجموند إلى الصورة وقال له: "مع أخواتنا نبدو كَكُتَّاب، أنت الأصغر سِنًّا وأنا الأكبر، ينبغي أن نكون الغُلافَيْن المتينَيْن اللَّذَيْن سيحميان ويحويان شقيقاتِنا اللاتي وُلِدنَ بعدي وقَبلَك". والآن بعد سنوات عديدة، مَدَّ أخي يده مشيرًا إلى اللوحة وقال: "سنحزم هذه اللوحة بمفردها".

قلتُ: "ليس لديكَ حَقٌّ في تلك اللوحة".

التفَتَ أخي إليَّ ممسكًا باللوحة.

"حان وقت رحيلنا"- قالت بولين.

أقبَلَت نحونا أختُ زوجة سيجموند، قالت إنها كان تشتري اللوازم الأساسية لأنها ستغادر النمسا في اليوم التالي.

"رحلة سعيدة!"- قالت لها بولين.

أمسكتُ يَدَ شقيقتي واصطحبتها إلى المنزل. أدرَكتُ ما تشعر به من قَبضَتِها المُحكَمَة، من حينٍ لآخر كنت أنظر إليها فأرى على

وجهها تلك الابتسامة التي يرسمها أغلب المكفوفين على وجوههم، حتى حين يُداهِمُهم الشعور بالغضب أو الخوف أو الرعب.

في يومٍ رَطبٍ في أوائل يونيو اتَّجهنا أنا وبولين وروزا وماري إلى محطَّة القطار، لنودِّع أخي وبصحبته مارتا وآنا وهم آخِر مَن دوَّنهم سيجموند في قائمة مغادرة ثيينا. وقف ثلاثتهم ينظرون من نافذة مقصورتهم، بينما وقفنا نحن الأربعة على الرصيف، وحمل أخي كلبه الصغير بين ذراعيه.

انطلَقَت صافرةُ مُغادَرَةِ القطار فانتفض الكلب فَزِعًا ودفعه الخوف لعَضِّ سبَّابة سيجموند، أخرَجَت آنا منديلًا ولفَّته حول الإصبع الدامي. انطلقت الصافرة مُجدَّدًا وتحرَّك القطار. رفع أخي يده في الهواء مُوَدِّعًا، بإصبعٍ مُضمَّد، بينما ضمَّ أصابعه الأربعة الباقية بقوَّة. امتدَّت سبَّابَتُه وحولها المنديل الدامي لِتُلوِّح لنا في الهواء.

كُلَّما تَذكَّرتُ وداعنا وإصبع أخي الدامي تذكَّرت كتابه "موسى والتوحيد"، والذي ترك لنا منه نُسخَةً قبل رحيله؛ ربما خوفًا من ضياع نُسخَتِه. "ليس هيِّنًا أن تُحرَم أُمَّةٌ ما من الرجل الذي تُبَجِّله بوصفه أعظم أبنائها، خصوصًا إذا كنتَ تَنتمي لتلك الأمة. هكذا يفتتح "موسى والتوحيد"، وبهذه العبارة عبَّر أخي عن هدفه من الكتاب كله: أن ينتزع موسى من قومه ويُثبِتَ أن موسى لم يكن يهوديًّا.

لم يكتَفِ بإعلان موسى "مصريًّا مرموقًا، ربَّما كاهن أو أمير أو مسؤول كبير" وحسب، بل وصف اليهود في تلك الحقبة بنقيض موسى: صعاليك مُهاجرين. لماذا -تَساءَل- قد يغادر شخصٌ وجيهٌ مثله بلادَه بصُحبَةِ أولئك المهاجرين الأراذل؟ وقد عثر على الإجابة التي يبحث عنها: كان موسى يعتنق أولى الديانات التوحيديَّة التي أسَّسها الفرعون إخناتون، وقد حظر تَعَدُّد الآلهة في القرن الرابع عشر

قبل حِقبَتِنا هذه، وهَدَّد بقتل كُلِّ مَن يُصَلُّون للآلهة التي عبدوها لآلاف السنوات، وأعلن أتون الإلهَ الحقَّ الذي لا شريكَ له.

بعد سبعة عشر عامًا من تأسيس الدين الجديد مات فرعون، وتأجَّجت عاطفة الانتقام المتعصِّب لدى الكهنة السابقين الذين اضطُهِدوا إبَّانَ حُكمِ إخناتون، فأمروا الشعب -الذي لم يَنسَ آلهته القديمة- بتحطيم المعابد الجديدة، وحظروا التوحيد؛ لكي يعيدوا الديانات الوثنية.

لم يَقْوَ موسى -المقرَّب من الفرعون إخناتون بحسب أخي- على إنكار إيمانه بالإله أتون؛ ولذلك راح يرسم خُطَّةً: "تأسيس امبراطورية جديدة، البحث عن شعب جديد يعهد إليه بالدِّين الذي انتبذه المصريُّون"، وهكذا، وبحسب "موسى والتوحيد" لم يَصطَفِ اللهُ اليهودَ، بل اختارهم موسى المصريُّ: "اختارهم لكي يكونوا أُمَّتَه الجديدة".

في الحقيقة، ووفقًا لأخي، لم يكن اليهود حتى ذلك الوقت شعبًا، إنما كانوا "قبائل سامية" تعيش في "مقاطعة مجاورة"، وبتوحيدهم قد يتمكَّن موسى من تأسيس أُمَّةٍ تنشر الإيمان بالإله الواحد الحق: أتون؛ لذا رحل معهم باحثًا عن الأرض المقدَّسة.

لكن هؤلاء الناس لم يستطيعوا التخلِّي عن مُعتَقَداتهم القديمة، وأديانهم التَّعدُّديَّة السَّامية، فأمر موسى مُؤيِّديه بمعاقبة كلِّ مَن يرفض الإيمان بإلهه الجديد؛ لذلك يقول أخي إن موسى لم يَمُت طاعِنًا في السِّنِّ كما جاء في الكتاب المقدَّس، بل إن اليهود قتلوا موسى المصري، وارتدُّوا عن ديانته.

لاحِقًا، بعدما قتلوا مَن اصطفاهم ليكونوا أُمَّتَه ووعدهم بأن يكونوا شعبَ الله المختار، اتَّحدوا مع قبائل بالكاد تربطهم بها صِلات قَرابة، في البلاد المتاخِمة لحدود فلسطين وشبه جزيرة سيناء

والجزيرة العربية، هناك في تلك البقعة الخصبة المسمَّاة بقادش قَبِلوا بعبادة إلهِ النَّار الڤولكان يهوه بتأثيرٍ من أهل مديَن.

بحسب أخي فقد انتشرت عبادة يَهوَه بين المصريين على يد راعٍ من مديَن يُدعَى أيضًا موسى على اسم القائد المصري، لكنَّ الإله الذي دعا له موسى الثاني، والذي غزا اليهودُ تحت إمْرَته أرض كنعان، كان النقيضَ التامَّ لأتون: بجَّلَت قبائل مديَن العربية يهوَه بوصفه شيطانًا خارقًا متعطِّشًا للدماء، يسير ليلًا ويتجنَّب ضوء النهار، "إله فَظٌّ، ضَيِّقُ الأُفُق، سُوقيٌّ، عنيفٌ، ومُتعطِّشٌ للدِّماء، وَعَدَ أتباعَه بأرضٍ تَفيض لبنًا وعسلًا، وحَثَّهم على التَّخلُّص من سُكَّانها بحَدِّ السَّيف"، وهو ما يخالف تمامًا أوامِرَ موسى المصري الذي أعطى اليهود مفهومًا أكثر روحانيَّةً عن الله، كينونة تحتضن العالم بأَسْرِه، مُحِبٌّ للكُلِّ، وقادِرٍ على كُلِّ شيء، يُبغِضُ السِّحرَ وطقوسه، ويعيد الإنسانية لغايتها الأسمى، وهي حياة الحق والعدل.

رغم أن "موسى المصري لم يذهب يومًا إلى قادش ولم يسمع عن يهوه، وكذلك لم يذهب موسى المديَنِيُّ إلى مصر ولم يسمع عن أتون" إلَّا أن الاثنين بَقِيَا في الذاكرة كشخص واحد؛ لأننا "لا نعلم من العقيدة اليهودية إلَّا صورتها الأخيرة التي صنعها رجال الدين بعد ثمانمائة عام من الخروج، وفي هذا الوقت كان الموسوان قد امتزجا في شخص واحد، وكذلك يهوه وأتون صارا إلهًا واحدًا، مختلفان في الجوهر اختلافَ الليل والنهار لأنهما في الحقيقة كانا إلهَيْن في صورة واحدة".

"ليس هَيِّنًا أن تُحرَم أُمَّةٌ ما من الرجل الذي تُبَجِّله بوصفه أعظمَ أبنائها، خصوصًا إذا كنتَ تنتمي لتلك الأمة، ولكن ما مِن اعتبارٍ سيدفعني لتنحية الحقِّ جانبًا، لصالح ادِّعاءات الواجب الوطني"، بهذه الكلمات بدأ أخي كتابه الأخير. لكن كتاب "موسى والتوحيد" لم يكن بحثًا عن الحقيقة وحسب، بل كان إنكارًا لِكَوْنِ موسى يهوديًّا،

وإدانةً لليهود بقتلهم لموسى. وبذلك عَبَّر عن اشمئزازه من أهل دينه ورغبته في الانتقام منهم. لكن لماذا؟

يعتقد أخي أن يهوديَّتَه أمرٌ جبريٌّ التصق به منذ ولادته، لم يختَرْه، دماؤه كانت يهوديَّةً. وحين أتيح له الاختيار اختار الثقافة الألمانية، أراد الانتماء إليها قَدْرَ شعوره بأن فضائل تلك الثقافة تخصُّه. قبل موته قال: "لغتي هي الألمانية، ثقافتي وإنجازاتي ألمانية، أعتبر نفسي ألمانيَّ العقلية، حتى بدأتُ أُلاحِظُ التَّحيُّزَ ضد السَّامِيَّة في ألمانيا وفي النمسا الألمانية، ومنذ ذاك أميل لأن أعتبر نفسي يهوديًّا"؛ هكذا قالها: "أميل لأن أعتبر نفسي يهوديًّا"، ولم يَقُل: "أشعر بأنني يهوديٌّ".

حين سُئِل: "ماذا تبقَّى من يهوديَّتِكَ وقد هَجَرتَ كُلَّ ما يَربطُكَ بأهلكَ ودينهم وحِسِّهم الوطني وعاداتهم وتقاليدهم؟" قال: "أَهمُّ شيء على الإطلاق" ولم يُوَضِّح ما هو، لكنه كان مفهومًا: دَمُه الذي لم يكن بوسعه تغييره، شعر بشيء من العار من هذه الدِّماء، لدرجة أنه أعلن أن موسى -مُحرِّر الشعب اليهودي، وواهب القانون، ومُؤسِّس الإيمان- ليس يهوديًّا. وفي كل جملة تَخصُّ موسى غير اليهودي واليهود بإمكان المرء أن يستقرئ مشاعره تجاه غير اليهود وتجاه شعبه: "كيف لشخصٍ واحد يملك هذا التأثير المذهل، لدرجة أنه خَلَقَ من الأفراد المختلفين وعائلاتهم شعبًا واحدًا، كيف صبغ هذا الشَّعبَ بلونٍ واحد وحَدَّد مصيره لآلاف السَّنوات اللاحقة؟".

في نهاية "موسى والتوحيد" حمَّل أخي اليهودَ وزر ما عانوه لسنواتٍ طويلة. إنَّ قَتْلَ الابن لأبيه راسِخٌ في الدين منذ بداياته؛ فالأديان في أصلها هي محاولات للتكفير عن ذنب الأبناء الذي قتلوا آباءهم في صراع السيطرة، ثم مجَّدوهم كأسلافٍ مُقدَّسين، بينما المسيحية -كما يؤكِّد أخي- هي الإقرار بهذه الجريمة، رغم أنه بمقتل المسيح اعترفت البشرية بمقتل أبيها.

ابتدع اليهودُ الدِّيانَةَ المسيحية ونشروها، لكنَّ "عددًا قليلًا فقط منهم اعتنق الإيمان الجديد، ومَن رفضوا ذلك لا زال يُطلَق عليهم يهودًا، وبهذا القرار عُزِلوا بقوَّة عن العالم أكثر من ذي قبل، وعانوا من أجل الاختلاط في عالم الأديان الجديد الذي ضَمَّ إلى جانب اليهود: مصريين ويونانيين وسوريين ورومانيين". وأخيرًا، ولِكَوْنِهم قَتَلَة الله؛ "هم لن يعترفوا أنهم قتلوا الرَّبَّ، لكنَّنا فَعَلْنا وتَطَهَّرنا من هذه الخطيئة"، وهكذا نفهم حقيقة هذا الخزي الذي سيستمرُّ.

إن سبب تأخُّر اليهود عن مُواكَبَة الأديان اللاحقة هو "أن الاعتراف بقتل الرب، رغم كل ما يحيط بهذا من غموض، قد يستدعي التحقيق، وهو ما خلق لديهم عُقدَةَ الشُّعور بالذنب، وعانوا جرَّاءَ ذلك بشدَّة لوقتٍ طويل"، وكذا يتحمَّل اليهودُ ذَنبَ مُعاناتهم، عثر أخي على تبريرٍ لكلِّ ما يتعرَّضون له، فعل ذلك وهم في أكثر الأوقات حاجة لدعمه؛ إذ ينبض في عروقهم نفس الرعب الذي واجَهَه أسلافُهم.

قبل سنواتٍ عديدة من "موسى والتوحيد" جرع أخي من ثَديِ أُمِّه مرارَةَ التهجير بين البلاد، لعنة التمييز بسبب اختلاف الدين والعِرق، من حُرقوا لأنهم صُنِّفوا مؤمنين بحقٍّ، اتَّهموهم لقرونٍ عديدة كذبًا بأنهم سمَّموا الينابيع، ونشروا الوباء، وتعاهدوا مع الشيطان.

شربنا كُلَّ هذا مع حليب والدتنا، تجرَّعنا منه مرارة أسلافنا، ثم أغفلناه سعيًا للاندماج في أوروبا الحديثة، ونسينا أنها يومًا ما قد تفتح علينا فَكَّها الدَّامي. وعندما آمَنَّا بأوروبا الحديثة أغفلنا مصيرَ أسلافنا القريبين والبعيدين، نسينا كيف عُذِّبوا لكونهم من عِرقٍ مختلف، نسينا المصائر المتعدِّدة للمُهانين والمظلومين، مَن تَعرَّضوا للاضطهاد وعُذِّبوا وحُكِمَ عليهم بالموت وتجاهُلهم الشيطان كما تجاهَلَهم الرَّبُ.

نسيناهم، ونسينا قَرابَتَهم، وهُم مَن تجري دماؤهم في عروقنا، لم يتذكَّرهم أخي إلَّا عَرَضًا حين لامهم على مُعاناتهم: "أثقلوا على أنفسهم بذنبٍ يعانون كثيرًا بسببه".

سعى طيلةَ حياته لإثباتِ أن الشعور بالذنب هو ما يحفِّز الجنس البشري؛ لأنَّ الناس جميعهم كانوا أطفالًا ذات يوم، وفي صراع الطفل لِنَيْلِ حُبِّ أُمِّه يتمنَّى موتَ مُنافِسِه، أبيه، هكذا يقول أخي سيجموند، لقد ألقى باللوم على أكثرهم براءةً وأكثرهم عجزًا؛ لتحميله هذا الوِزْرَ الأصليَّ.

اتَّهم مَن وصلوا لِتوِّهم إلى الحياة بالرغبة في قتل مَن وَهَبَهم إيَّاها، هذا بالإضافة إلى الشعور بالذَّنب الذي يسيطر على كُلِّ إنسان. وألقى على عاتقه أمرًا آخَرَ: إنه يذكر حين كان في عمر العام ونصف العام أنه تمنَّى موت چوليوس، أخيه، المولود حديثًا، والذي مات بعد سِتَّة أشهر.

كان أخي هو قايين أيضًا، وقد اختصَّه الله بكلماته: "ماذا فعلتَ؟ صوتُ دَمِ أخيك صارِخٌ إليَّ من الأرض". وكان أيضًا نُوحًا، ذاك الذي جمع عائِلَتَه في الفُلك قبل الطوفان "هم وكل الوحوش كأجناسها، وكلُّ البهائم كأجناسها، وكُلُّ الدَّبَّابات التي تَدبُّ عَلى الأرض كأجناسها، وكل الطيور كأجناسها: كل عصفور، كل ذي جناح".

أربعتنا وحسب مَن لم يكن لهم مكانٌ على قائمة أخي، كان أوديب وكان قايين، وكان نوحًا، لكنه أبى الاعترافَ بذلك، بل أراد أن يصير نَبيًّا، ولهذا انتزع موسى من اليهود، أراد أن يكون مُتفرِّدًا، مُستَقِلًّا وأصيلًا، وهكذا تخيَّل أخي صورته كموعودٍ لشعبه، تمامًا كما قاد موسى قومه إلى الحرية في الأرض الموعودة، لقد أراد أن يقود الجنس البشري للتَّحرُّر من الـ أنا، ومن قيود الاضطهاد، ومن أعماق العقل الباطن السحيقة.

لذلك بدا أن أخي يصيح في كتابه عن موسى قائلًا: "لست يهوديًّا، ولا هو أيضًا... أنا مثله تمامًا: قائِدٌ، ونبيٌّ صَنَعَ نفسَه بنفسه".

***

عشيَّة رَحيلِ أخي من ڤيينا دون رجعة تحدَّثَت أختي بهدوء عن أهميَّة وجوده في لندن، إذ قد يساعدنا أصدقاؤه على الرحيل في أسرع وقت. استَمَعت إلى رعب شقيقتيَّ، لكن في خِضَمِّ الأحداث المهولة التي يتحدَّثون عنها أغمَضتُ عيني ولم أَرَ سوى إبهام أخي المضمَّدة تُلَوِّح في الهواء.

بعد شهورٍ من رحيلهم اتَّصَلَت بنا مارتا وآنا من لندن في المناسبات، قالوا إن سيجموند خضع لعملية جراحية جديدة في فمه، وأن حالته تتحسَّن، لكن لم يَعُد بإمكانه التحدُّث، دَمَّر السرطان أُذُنَيْه أيضًا؛ فأصبح يتواصل معهم بالكتابة، فتذكرَّت كيف عَلَّمَني أخي الكتابة حين كُنَّا أطفالًا.

قالت لنا مارتا وآنا إنهم يعيشون في منزلٍ جميل بضاحية هادئة في لندن، وأكَّدَتا لنا أن أصدقاء سيجموند يبذلون ما في وسعهم لكي نحصل على تأشيرات خروج من النمسا، وحينها سيَجمَعُنا بيتُهُم.

تَمَرَّس أَربَعتُنا العيشَ مع مخاوفنا، لم نكن نخشى الموتَ بل التعذيب، فُرِضَ علينا وضع نجمة داوود على أكمامنا كي تُنفَّذ القيود المفروضة على اليهود، فلم يَعُد بمقدورنا الذهاب إلى المسرح أو الأوبرا أو الحفلات، ولم نستَطِع الذهاب إلى المطاعم والمتنزهات، مُنِعنا من استقلال سيارات الأجرة أو ركوب الترام إلَّا في العربة الأخيرة.

مُنِعنا من مُغادَرَة بيوتنا إلَّا في أوقات مُحدَّدة لا تَهاوُنَ فيها، وقُطِعَت خطوط هواتفنا، ولم يُسمح لنا أن نستخدم إلَّا مَكتَبَيْ بريدٍ فحسب في المدينة بأَسْرِها.

ذات يوم من شهر سبتمبر جاء أحدُ أبناء شقيق صديقتي كلارا لبيتنا، وأخبرنا أنها ماتت في "العشِّ"، مصحَّة نفسية كانت تعيش فيها منذ سنوات. سألني إن كنتُ سأذهب معه إلى الجنازة، شقيقاتي كُنَّ عند بعض الجيران فكَتَبتُ لهم وجهتي على قصاصةٍ ورقيَّة.

قبل سبعة أشهر، وفي سياق العديد من التَّغييرات في ڤيينا- قرَّر المسؤولون المحَلِّيُّون الجُدُد ألَّا يُدفَن موتى المصحَّات في المقابر العامَّة، بل في حدود المصحَّة، وكذا دُفِنَ هؤلاء في حُفَر غير عميقة بلا كفن، بل تمَّت تَغطِيَتُهم بملاءات.

دخَلتُ الغرفة حيث سُجِّي جَسَد كلارا، قيل لي إنها ماتت أثناء نومها، كان وجهها مُفعَمًا بالسَّكينة؛ فلم تَبْدُ عليها آثار النَّوم أو الحياة أو الموت. تكوَّرَت على نفسها كعادتها حين تنام: ساقاها مثنيَّتان، ورأسها على صدرها، بينما تُمسِكُ بطنها بيديها. كان جَسدُها مُتَيبِّسًا بالفعل حين كفَّنَّاها بمُلاءَة.

"تمامًا كالجنين" قلتُ بينما يحملونها من الغرفة التي كانت تطلق عليها اسم "الرَّحِم".

قال أحد الأَطبَّاء: "إنها أكبر من الجنين، وأصغر من شخصٍ عاديٍّ".

في الحقيقة لا يمكن لأحد أن يتوقَّع وجود شخص ملفوف في هذه الملاءة. كانت تُمطِرُ بشدَّة، بالكاد وقف عشرون شخصًا مِنَّا في الخارج بينما وقف البقية خلف نوافذ المستشفى، وضعنا الجثَّةَ الملفوفة بالملاءة في الحفرة التي تنتظرها، وأهال الناسُ عليها التراب.

لاحقًا، في ظهيرة ذلك اليوم، عُدتُ إلى البيت، جلَسَت شقيقاتي حول الطاولة في غرفة الطعام، نَظَرَت روزا لي بعينٍ تميل للاحمرار وقالت: "آنا اتصلَت، مات سيجموند الأسبوع الماضي".

قلتُ لها: "كلارا ماتت بالأمس".

قالت: "حرقوا جُثَّته".

"دَفَنَّاها اليوم في أرض المستشفى، حَفَرنا حُفرةً غير عميقة، لم يكن لدينا كفَنٌ فلففناها بملاءة، وكانت تمطر".

كانت تُمطِرُ بشدَّة في الخارج، انهمرت قطرات المطر بقوَّة على النافذة فغطَّى صوتها على حديثنا.

مضيتُ إلى غرفتي واستلقيتُ على الفِراش أفكِّر في أخي، لم أَسعَ لِتخيُّل أيَّامَه الأخيرة، أو أن أتخيَّلَه عاجِزًا عن الحركة، لم أرغب في سماع آخر قَطَرات العزم التي دَفَعَته للشهيق والزَّفير، ولم أرغب في معرفة ما دار في رأسه، سواء أَنَّبَه ضميره على زيارات شقيقاته المتعاقِبَة إذ يتوسَّلون إليه ليخرجهم من فيينا، أم شعر بالذَّنب لإمكانيَّة ذهابهم إلى معسكرات الموت، لم أَسْعَ لِتَخيُّل لحظاته الأخيرة.

كفاني أن عَلِمتُ بمَوتِه، وبأنه حصل على السَّلام أخيرًا دون أن يؤلمه جَسَدُه أو يُؤَنِّبَه ضميره، فحتمًا تتحرَّر النَّفسُ في العالم الآخر من المعاناة والخِزي، هنا وحسب تَشُكُّ النَّفسُ في كل الأمور، وتعتقد أنها ليست في نصابها الصحيح، وأنها لم تَقُم بما يجب لإتمام خُطَّةٍ أعلى لا تدركها.

استيقظتُ وأنا أَتصبَّب عَرَقًا، توقَّف المطر بالخارج، وبدأ الليل يهبط من بين السُّحُب الأرجوانية، وتذكَّرتُ حلمي، وفيه مات أخي سيجموند.

قال: "أنا وحيدٌ للغاية، رغم أن الوحدة ليست أَدَقَّ كلمةٍ؛ فبإمكان المرء أن يكون وحيدًا في حضور الآخرين، انظري، لا يوجد أحدٌ حولنا، لا أَحدَ هنا".

قلت له: "الكل هنا".

أطرق رأسه قائلًا: "لا أحد هنا".

"الكُلُّ هنا، عليكَ فقط أن تبحث عنهم".

"أنا أبحث، لكن لا أحدَ هنا، كُلُّ شيء هنا فارغ، أَلقِي نظرةً، لا شيء هنا سوى ضوء، وحين لا يوجد شيءٌ سواه يبدو كُلُّ شيء فارغًا، عاريًا، إنه أبشع السجون على الإطلاق بغير مَهْرَب، فليس هناك وجهة هروب، الضوء المميتُ يحاصرنا، ولا أحدَ غيرنا فيه".

"الجميع هنا... غير أنَّك تُمعِن النظر في نفسِكَ وحسب؛ فلم يَعُد بوسعِكَ رؤية الآخرين".

"لا! لا أحد هنا، لكن ربَّما هذا هو الموت، أن تظلَّ موجودًا إلى الأبد، أن تكون واعيًا، وأن تكون وحيدًا إلى الأبد، كان أسهل عليَّ أن أختفي تمامًا بعد الموت، حَبَّذا لو لم أكن موجودًا، تصوَّرتُ مَرَّةً أن هكذا الأمر بعد الموت، فحتى أكثر أشكال الجحيم رَهبَةً لأقل إفزاعًا من هذا الانفصال الجهنمي، تلك اليقظة الأبدية التي تتبع الفراغ المميت".

"لا"- قُلتُ، "كُلُّنا هنا، فقط انقلْ نظراتِكَ بعيدًا عن نفسك، كُلُّنا هنا، الأحياء والأموات".

قال لي: "ابْقَيْ هنا على الأقل".

"سأبقى، كُلُّنا سنبقى، عليك فقط أن ترانا".

"إنه عقابٌ"- قال، وضَمَّ قَبضَتَيْه ورفعهما ببُطءٍ تجاه رأسه، "أنا أُعاقَب بهذا الفراغ المميت"، وضرب جبهته "وأعرف سبب عقابي.

قلتُ: "لا أحد يُعاقِبُكَ".

نظر إلى قبضتيه وقال: "أعرف ذنبي... سامحيني".

"ليس هناك ما أُسامِحُكَ عليه؛ أنتَ لم ترتكب شَرًّا، أنتَ فقط تجاهَلتَ القيامَ بالخير، وكُلُّنا نفعل ذلك طوال حياتنا، ونحن لا نعرف أيَّ عَثرةٍ ستسمح بسيطرة الشَّرِّ على أحدهم".

قال: "سامحيني".

تَبـدَّل مَظهَـرُه بالتدريـج ليعـود كـما كان منـذ سـنوات طويلـة، ظـلَّ يعـود بعُمـره حتـى صـارت هَيئتُـه غريبـةً عـليَّ، حـين لم أكـن وُلِـدتُ بعـد، ظَـلَّ يَصغُـرُ ويَصغُـرُ حتـى عـاد رضيعًـا عاريًـا باكيًـا، حَمَلتُـه بـين ذراعـيَّ، وكَشَـفتُ عـن ثَديـي الذَّابـل المتـدلِّي، وقَرَّبتُـه مـن شَـفَتَيْه، وحـين رضـع أخـي الحليـبَ مـن نَهـدي الضَّعيـف شـعرتُ بِلَـذَّةٍ فائِقَـة إثـرَ مُلامَسَـةِ شَـفتيه لحَلَمَتـي، ومـع اسـتيقاظي أدركـتُ أنـه حلـم، وأصابنـي الحـزنُ لمعرفتـي بـأن تلـك النعمـة لـن تـدوم.

***

بعـد مـوت أخينـا اعتـدتُ أنـا وروزا وبولـين وماري زيـارةَ المبنـى الـذي عـاش فيـه قبـل مغادرتـه ڤيينـا والنظـر مـن خـلال نوافـذ شَـقَّتِه. يعيـش هنـاك الآن رَجُـلٌ بِـزِيٍّ عَسـكريٍّ.

اعتدنـا أن يَمـرَّ علينـا مـن حـينٍ لآخـر جـارٌ أو صديـقٌ فينجـرف الحديثُ إلى الحـرب الوشـيكة، "حـرب هائلـة أخـرى"، هكـذا يقـول الجميـع، لقـد قامَـت الحـرب بالفعـل، أُعلِنَـت حالـة الاسـتنفار وأرسِـل الشـباب إلى الجبهـة، وكُتِبَـت أسـماء سُـكَّان المربَّـع الـذي نعيـش فيـه في قوائـم، ثـم شُـحِنوا في القطـارات خـارج ڤيينـا إلى الأبـد، قيـل لنـا إنهـم ذاهبـون إلى الأعـمال الشَّـاقَّة، لكنَّنـا كُنَّـا نعلـم أنهـم في طريقهـم إلى معسـكرات المـوت.

عَلِمنـا، وانتظرنـا دَوْرَنـا، وذات يـوم وَزَّع الجنـودُ عـلى مبـاني شـارعنا قوائِـمَ بمـا سُـمِح لنـا أن نأخـذه، ثـم أُمِرونـا بالتَّواجُـدِ في محطـة القطـار في نهايـة مُربَّعنـا السـكنيِّ في السَّـادِسَـة صباحًـا في التَّاسِـع والعشريـن مـن يونيـو مـن ذلـك العـام 1942.

قبـل يـومٍ مـن مُغادَرَتِنـا عَبَّأنـا كُلَّ شيء في حقائِـبَ صغـيرة. أمضيـتُ ظَهـيرةَ ذلـك اليـوم مشـيًا بـين غـرف الشَّـقَّة، ودَّعـتُ البيـت بالمـشي بـين

غُرَفِه، بينما فتَحَت شقيقاتي ألبومات الصور القديمة، وضَحكن من الملابس التي ارتديناها منذ نصف قرن، ومن جدِّيَّة ملامحنا، وثباتنا لحظة التقاط الصورة، ومن وقت لآخر كنت أسمع تنهيدةً، ربما من أحد الموتى الموجودين في الصورة، على الأرجح أحد أبناء روزا أو ماري، وقبل أن يحلَّ الظلام أصابني الملل فتوقَّفتُ عن السير في الغُرَف، لكنَّ أخواتي ظَلَلنَ يُشاهِدنَ الصُّوَر.

وصَفَت كُلٌّ من ماري وروزا مَضمونَ الصُّوَر لبولين، التي ظلَّت تسأل وتُمرِّر يديها على أسطح الصور السوداء والبيضاء. نامت قريرةَ العين في تلك الليلة، وعندما استيقَظتُ فجرًا التفتُّ لأرى بُقعَةَ الدَّم على الحائط؛ تلك البقعة الباهتة الأكثر شحوبًا من الزمن البائد ستبقى حتَّى بعد موتي، ثم تختفي هي والحائط والمنزل حين أَزمُّ شفتيَّ لألتقط قُبلَةً، فألتقط نَفَسي الأخير بدلًا منها.

قَبَّلت بُقعَةَ الدَّم الجافَّة ثم أَيقَظتُ شقيقاتي، تَناوَلنا الإفطارَ وحَمَلنا حقائبنا ثم انطلقنا، وفور أن تَخطَّينا عَتَبَةَ الشَّقَّة قالت بولين: "لا يجب أن ننسى الصُّوَر".

اعترضت كُلٌّ من روزا وماري، لكنَّني فتحتُ الحقيبة الصغيرة وحَشَرتُ فيها ألبومين.

قالت ماري: "حقيبتك محشورة... ستنقطع"- وكانت على حَقٍّ.

كنَّا نسير في شارعنا عندما انقطعت الحقيبة وانفرط ما فيها أرضًا، بما فيها مُتعلَّقاتي وألبومات الصور، أخذت منها صورَةً واحِدَةً قديمة تضمُّ كُلَّ الأخوة والأخوات والوالدين، ودَسَستُها عند نهدي الأيمن، والتقطتُ من الحقيبة المُمزَّقة الشَّيءَ الوحيد الذي لا يَخُصُّني، ودَسَستُه عند نهدي الأيسر.

سألت ماري مُؤنِّبَة: "ما أمر غطاء رأس الرُضَّع هذا؟".

"غطاء رأس الرُضَّع؟"- تَساءَلَت بولين.

"نعم!"- شرَحَت لها ماري، "لقد التقطَت غطاء رأس مُتهدِّل من مُتعلَّقاتها ووَضَعَته بجوار قَلبها".

مكتبة
t.me/t_pdf

تَساءَلَت بولين: "قلبها؟".

"بين نهدها الأيسر والسُّوتيان"- أوضَحَت لها ماري.

"أعطينا مُتعلَّقاتك؛ سَنقسمها بين حقائبنا"- اقترَحَت روزا، وكانت حقائِبهم محشورةً بالأمتعة بالفِعل.

قلتُ: "يجب أن نَصِلَ إلى محطَّة القطار بسرعة، ويكفي أن نأخذ الصور وغطاء الرأس".

قالت ماري: "لا أعرف سبب حملِكِ لغطاء الرأس هذا وقد تَرَكتِ الكثيرَ من الأشياء أنتِ بحاجةٍ إليها".

قلتُ: "سبق وقلت إنني سآخذ ما أحتاجه فقط".

واصَلنا السَّيرَ باتجاه محطَّة القطار، وبَدَت كُلُّ الأشياء في الشارع كالأطياف، دَبَّت الحياة في كل الصُّوَر: مَظلَّة مائلة على المقعد، الورود في الشرفات، كُرَة مُتعدِّدة الألوان على الرَّصيف، لكن خَلَت كُلُّ الأشياء من البَشَر، وكأنَّ أحدًا لم يسكن هذا المكان من قبل.

على الرغم من ذلك كانت تأتينا أصواتٌ من جُزءٍ واحِدٍ من الحَيِّ، فمضينا باتجاهها، حتى بلغنا صَفًّا طويلًا من البشر يسيرون بأقصى سرعة قَدرَ ما يسمح لهم ثِقَلُ حقائبهم، وراح بعض الأطفال يركضون أمامهم.

راقَبتُ الناسَ إذ يقبضون على حقائبهم، بعضهم كان يحملها بين ذراعَيه ويَضمُّها إلى صدره بقوَّة، احتضنوها بقوَّةٍ وكأنَّهم يحملون حياتهم بأَسْرِها، والآن يتشبَّثون بحقائبهم أملًا في النَّجاة وحسب. علمنا أنهم ذاهبون إلى محطَّة القطار فمشينا نحوهم، وواصَلنا السَّيرَ معهم.

في المحطَّة فحص الجنودُ أوراقَنا وأَمَرونا أن نَصعَدَ إلى قطار البضائع الذي ينتظرنا، لا أعرف كم طال سَفَرُنا، عندما نزلنا من القطار كان الجنود بانتظارنا، اصطحبونا إلى قرية صغيرة مُحصَّنة، وأعطونا خبزًا ومياهًا، أوقفونا في طابور ليفحصوا أوراقنا ويُسجِّلوا أسماءَنا وتواريخَ ميلادِنا ومحالَّ سَكَنِنا، ولِيُحدِّدوا وجهتنا.

ضَمُّونا أنا وروزا وماري وبولين إلى مجموعةٍ تَألَّفت من عشرين امرأة في عمرنا، كبَّلوا أيدينا بالخيزران، وأحنوا رؤوسنا، ثم اقتادونا، فترنَّحنا إذ نحاول أن نرى ما هو أبعد من بضعة أقدام أمامنا، حيث الثكنات القريبة التي اصطحبونا داخل إحداها، وبداخلها صُفَّت الأَسِرَّة بطول الحائط، واستلقت على أغلبها نساء مُسِنَّاتٌ.

التفتت لنا بعض النساء أثناء دخولنا، والبعض الآخر لم ينتبه إلينا، فإمَّا واصلوا التَّحديقَ في السَّقف أو الأرض أو لم يفتحوا عيونهم. أخبَرَنا الجنودُ أن نختار فراشًا خاليًا، ثم غادروا الغرفة.

بحَثتُ أنا وأختي عن أربعة أسرَّةٍ خالية مُتجاورة، ولم نَعثُر إلَّا على ثلاثة؛ فأخذت الفِراشَ الأقرب. وَضَعَت كُلُّ الوافدات الجديدات أَمتِعَتَهُنَّ أسفلَ الأَسِرَّة التي اخترناها، ولم يكن بحوزتي ما أضعه أسفل فراشي. بعد ذلك استلقينا على الأَسِرَّة التي غَطَّتها بطانيَّات قديمة فلَدَغَتني البراغيثُ، ومن حين لآخر كان يركض فَأرٌ على الأرض.

خيَّم الظلام بالتدريج على الغرفة، سمَحَت لي أضواءُ الثكنات خارج النافذة أن أرى لبعضة أمتار حولي، وما عدا ذلك فقد اكتنفه الظلام. حاوَلتُ عَبَثًا أن أخلد للنوم، فرَكَتُ المناطق الخَشِنَة في جسدي من أثر لدغات البراغيث، وسَمِعتُ آهات بعض النساء، كان الفراش عن شمالي خاليًا، وفي بعض الأحيان يَصرُّ الباب فأسمع وقع خطوات.

استلقت امرأةٌ على فِراشٍ خالٍ، أوحى لي عمرُها أنها لا تنتمي لهذا المكان ولا أولئك المسِنَّات، كانت في حوالي الخمسين من عمرها،

تحرَّكَت ببطءٍ إلى حافَّة الفِراش، وعبَرَت المسافةَ الفاصِلَةَ بين فِراشي وفِراشها في لحظة.

سألَتني: "أين نحن؟".

قلتُ لها: "في تيريزين".

لم تسأل عن أمر آخر.

في الصَّباح التالي كان فِراشها خاليًا. اصطَحَبَنا الجنودُ إلى غرفة الطعام الواقعة في جزء آخر من المعسكر، جلسنا على المقاعد الضَّيِّقَة الطويلة أمام الطاولات التي امتدَّت من أول الغرفة إلى آخرها، تناولنا إفطارًا من الخبز والشاي، ثم سِرنا أمام المعسكر، لم تَبعَث شمسُ الصيف أيَّ دفء في عظامنا، ارتجفنا وفَرَكنا كفوف أيدينا ببعضها ورفعنا أرجلنا عاليًا.

ظهَرَت المرأة التي نامت بالقرب منِّي مرَّةً أخرى عندما عدنا إلى غرفة الطعام وجلست بجواري.

ابتسمَت قائِلَةً: "قائمة الطعام لا تتغيَّر أبدًا، خُبزٌ وشاي للإفطار، حساء العدس والخبز للغداء والعشاء".

أومأتُ برأسي واستمعتُ إلى حديث النساء من حولنا عن أنفسهنَّ، عن أزواجهن وأبنائهن وأحفادهن، تكلَّمَت امرأةٌ مُسِنَّة في نهاية الطاولة أمامنا عن ابنها هيرمان، عَلِمتُ فيما بعد أن اسمها چوانا بروك، بينما راحت تتحدَّث السيدة المسِنَّة التي جلست بجوارها -والتي سافَرَت معنا من ڤيينا- عن أحفادها، لاحَظَت المرأة الجالسة بجواري إنصاتي لأحاديث الآخرين، فَسَعَت لتشتيتي عنهنَّ.

سألَتني: "هكذا يحمين أنفُسَهنَّ من الوضع الراهن، يتحدَّثون عمَّا مضى، هل عائِلَتُكِ كُلُّها هنا؟".

مكتبة 1043

قلت: "أنا هنا مع شقيقاتي"- وأشرتُ ناحية بولين وماري وروزا، ثم سألتها: "وأنتِ؟".

قالت إنها من براج، مُطلَّقة، ولديها بنتان. حالَفها الحَظُّ لأنَّ ابنتَيْها في مأمَنٍ ببراج، والفضل يعود لأبيهم غير اليهودي. أخبَرتُها عن شقيقتي آنا التي انتقلت للعيش في أمريكا بعد زواجها مباشرة، وتحدَّثتُ عن أخَوَيَّ: سيجموند وألكسندر.

قالت: "نحن ثلاث أخوات: إيلي وڤالي وأنا... كُلُّنا هنا... وكان لدينا أخٌ يُدعَى فرانز".

خَيَّمَ الصَّمتُ مُجدَّدًا. رشَفتُ من حساء العدس على مهلٍ في حين وَضَعَت هي ملعقتها في صَحنِها الخالي وقالت: "اعتدتُ أن آكُل بسرعة، ساعَدتُ في المعسكرات التي سكَّنوا فيها أطفالَ الملاجئ في براج وڤيينا، أنا ذاهبة إلى هناك"، نهَضَت ووَضَعَت يدها على كتفي قائِلَةً: "اسمي أوتلا، أوتلا كافكا".

"وأنا أدولفين".

ضغطَت بأصابعها على كتفي وابتسمَت ثم سحبت يدها بعيدًا والتفَّت لتُغادِرَ الغرفة. في ذلك المساء رأيت أوتلا مُجَدَّدًا، تناوَلتُ العدس على مهلٍ فسألتني: "هل اعتدتِ المكان؟".

عَجزتُ عن الإجابة، قلتُ على المرء أن يعرف أولًا ما هذا "المكان" لكي يحدِّد ما إذا اعتاد عليه أم لا. قالت أوتلا: "هذا معسكر، حتمًا تعلمين ذلك. حتى الشتاء الماضي كان مجرَّدَ قريةٍ صغيرة طردوا منها كل قاطنيها لكي يتمكَّنوا من إحضارنا، ومَن لم يبلغ الستين يعمل لمدة اثنتي عشرة ساعة يوميًّا، يُشيِّدون المعسكرات من أجل المجموعات الجديدة الوافدة إلى هنا، أو يعملون في الحقول لكي يوفِّروا لنا الطعام، وبعد انقضاء الساعات الاثنتي عشرة ينخرط الذين لم يَقتُلهم التَّعبُ في أي شيء قبل أن يُنقَلوا هنا. يوجد موسيقيُّون ورسَّامون وممثِّلون

وراقصو باليه، كُتَّابٌ ونحَّاتون- يخلطون المونة ويحملون الرَّمل ويدقُّون المسامير أو يحفرون في الحقول، لكن في الليل يُقيمون عروضًا موسيقيَّةً أو رقصات باليه، يُلَحِّنون أو يكتبون أو يرسمون، عليك الذهاب إلى إحدى هذه الحفلات أو العروض".

قلتُ: "لم أذهب إلى عَرضٍ أو حفلة منذ وقت طويل"- وكسَرتُ قطعة خبز، ثم وضعتها في فمي ومضغتها.

"من الأفضل لك أن تقومي بشيء هنا، لقد وضعوني هنا في هذا المعسكر لمساعدة أيٍّ من النساء الأكبر سنًّا إن شعرن بالإعياء ليلًا، وفي النهار أساعد في المعسكرات التي تأوي الأطفال. أقوم مع عديد من النساء الأخريات بتعليم الأطفال القراءة والكتابة، ونُعَلِّم الأكبر سنًّا مبادئَ الرياضيَّات والجغرافيا والتاريخ، يساعدنا الأطفالُ في تنظيف المعسكر، ونقوم بإعداد الطعام سويًّا... يُفَضَّل دائمًا أن يفعل المرء أي نشاط هنا".

في اليوم التالي اصطحبتني أوتلا إلى أحد المعسكرات التي تأوي الأطفال، دخلنا إلى غرفة حيث قسَّموا عشرات الأطفال إلى عدَّة مجموعات، حيث تتولَّى امرأةٌ شؤون كلِّ مجموعة وتشرح لهم أمورًا، لاحَظَت أوتلا شرودي رغم محاولاتي التركيز مع ما تقوله كل امرأة إلى الأطفال.

قالت لي: "فلنخرج".

جلسنا على أحد المقاعد القريبة من المعسكرات المجاورة.

"يأوون هنا النساء اللاتي في أواخر أسابيع الحمل، يَبقين لبضعة أيَّام بعد الولادة، ثم يعيدونهنَّ مرَّةً أخرى إلى المعسكرات التي جُلِبوا إليها لدى وصولهنَّ تيريزين، ويبدأن العمل على الفور، وهناك معسكر مخصوصٌ تعتني فيه النساءُ بحديثي الولادة".

وضَعَت يدَها في جيبها فحسبت أنها ستُخرِجُ رسمةً لامرأة تَجثُم عند حافَّة هاوية، لكنها أمسَكَت بصورَتَيْن: "هؤلاء بناتي وأخواتي وأخي وأنا"، مَرَّرَت أصابعها على سطح الصورة وقالت: "هذا كل ما أملك من حياتي السابقة"، أعادَت الصور إلى جيبها وقالت: "مات أخي منذ وقت طويل جدًّا حتى بات يصعب عليَّ تَذَكُّر وجهه مع مرور الأيام"، ثم مَرَّرَت يدها على جيب ثوبها وقالت: "أتذكَّر فقط واحدة من قَصَصِه عنوانها بلاء الأَعْزَب، قد لا أتذكَّرها تمامًا الآن، لكنني أُرَدِّدها لنفسي أحيانًا".

بدأت تحكي القصَّة بينما تنظر إلى جيبها: "من الصعب أن تظلَّ عازِبًا حين تكبر في السِّنِّ وتسعى في نفس الوقت للحفاظ على كرامَتِكَ؛ إذ تتسوَّل الدعوى كُلَّما أَرَدتَ أن تمضي الأمسية بصُحبَةِ أحدهم، أن تكون مريضًا وتَظلَّ لأسابيع تنظر من فِراشِكَ في الرُّكن إلى غرفةٍ خالية، لا أحدَ يبقى معكَ في نهاية اليوم، ولا تبقى مع أحدٍ كذلك، ولا تندفع عبر درجات السُّلَّم نحو زوجتك، لا يكون لغرفتك سوى أبوابٍ جانبية مفتوحة على الآخرين، أن تحمل غَداءَكَ في كيسٍ أثناء عودتك إلى المنزل، أن تضحك وتُلاعِبَ أطفال الآخرين وتعجز أن تقول: ليس لديَّ أبناء مثلهم، وأن تُوَطِّدَ علاقاتِكَ بواحدٍ أو اثنين من العُزَّاب الذين عرفتَهم منذ زمنٍ بعيد، هكذا سيكون الأمر، لكن في الواقع سيبقى لك جَسَدُكَ، وإخلاصُ رُوحِكَ، وكذلك أَسًى لا يتوقَّف".

التفَتَت إليَّ وقالت: "وكأنَّ هذه الكلمات هي كل ما تَبقَّى منه، لكن ماذا عن باقي اللحظات والأيام والسنوات وكل ما حدث فيها؟ وكأنه لم يكن موجودًا من الأصل".

كثير من النساء خرجن من المعسكر وجلسن إلى جوارنا، وأثناء جلوسهن وَضَعن أيديهن على بطونِهنَّ وكأنَّهُنَّ يحمين أبناءهنَّ الذين

لم يُولَدوا بعد. تعرَّفنا عَليهنَّ. أسماؤهن: لينا وإيڤا، خُضنا في الحديث، لكن أوتلا قالت إنه وقت الاستحمام فمضينا إلى معسكرنا.

بعد نصف الساعة جاءت مجموعة من النساء يَحمِلنَ صهاريج وأحواض مياه إلى غُرَفِ نَومِنا، وضعوا الأحواض في وسط الغرفة بين صَفَّيْ الأَسِرَّة، ووضعوا صهاريج المياه بجوارها، ثم رَحَلنَ.

قالت أوتلا: "الآن أَسرِعي بما أن لدينا مياهًا".

رأيتُ النساء المسِنَّات يَخلَعن ملابِسَهنَّ بسرعة. خلعت ملابسي بأصابع واهِنَة، وَقَفنا عُراةً، بأجسادنا المترهِّلة، ونهودنا وبطوننا المتدلِّية، تُغطِّي الدوالي أَرجُلَنا وأيدينا الملتوية، وتمتزج أنفاسنا الكريهة برائحة أجسادنا النَّفَّاذة. قالت إحدى السيدات المسِنَّات أمرًا، لكن كلماتها ضاعت وسط محاولات كُلٍّ واحدة مِنَّا الوصولَ إلى الحوض أوَّلًا لنغرف المياه من الصهريج بواسطة طاسَةٍ ونَصُبَّ الماء على أجسادنا ثم ندعكها جيِّدًا حتى نُنَظِّفها من القذارة قدر الإمكان.

لم يستغرق الأمرُ أكثرَ من دقائق، كان هناك ما يكفي من الماء لِشَطْفِ أوساخنا، قالت أوتلا: "من حُسنِ حَظِّكِ أنَّكِ جِئتِ في الصَّيف؛ حتى تعتادي هذا النوع من الاستحمام بالتدريج، بعد أول استحمامٍ لي كان كل شيء بالخارج شديدَ البرودة".

عادت الشَّابَّات اللاتي أحضرن الصِّهريجَ والأحواض وحملوها بعيدًا، وحينها فقط لاحَظتُ أن بولين كانت تجلس على حافَّة فِراشها طيلةَ هذا الوقت. عندما جلستُ بجوارها تعرَّقَت على تَنفُّسي وقالت لي: "لم أتمكَّن من الاغتسال".

غادَرَت أوتلا المعسكر ولم ترجع إلَّا بعد نوم أغلب النساء، وحين استَلقَت على فِراشها سألتُها في هدوء: "إلى متى سنبقى هنا؟".

"كلَّما طالت المدة كلما كان أفضل، ليس هذا معسكرًا فعليًّا، بل محطَّة انتقالية، هناك قطارات تنقل الآلاف من هنا إلى المعسكرات الأخرى، والأوضاع هناك مختلفة؛ فالأعمال شاقَّةٌ للغايَة، شاقَّة حتى الموت، هذا ما يقوله مَن يعلمون أكثرَ عن هذه المعسكرات، يقولون إن بعض الناس يتمُّ اصطحابهم إلى غُرَفٍ يحسبونها مُخصَّصَة للاستحمام، وتكون مُجهَّزة للاستحمام بالفعل، لكنها في الحقيقة ستار؛ إذ ينبعث بعد قليلٍ غازٌ سامٌّ، ويختنقون. هناك أهوالٌ أخرى، لكن يُفضَّل ألَّا أُخبِرَكِ بالمزيد، ومن الأفضل لنا أن نبقى هنا لأطول فترة ممكِنَةٍ حتى يَنحَسِرَ الشَّرُّ، ثم نعود جميعًا إلى بيوتنا".

أغلَقَت أوتلا عينيها وأردَفَت: "لا تخبري الآخرين بما قلته لك، يكفي معاناتنا هنا... لا تُفكِّري في معاناة المعسكرات الأخرى، ما كان ينبغي لي أن أُخبِرَكِ"، ثم غمغمت قائِلَةً: "تصبحين على خير"، وتقلَّبَت إلى الجهة الأخرى من الفراش.

حاوَلتُ النَّوم لكنَّني ظللت أتقلَّب في فراشي لوقتٍ طويل أُفكِّر فيما قالته أوتلا.

في الصباح بعد الإفطار ذهبت إلى مدخل معسكر النساء الحُبْلَيَات، حيث كانت تجلس السيِّدتان اللَّتان تعرَّفنا إليهما أنا وأوتلا في اليوم السابق: لينا وإيڤا، وامرأتان أخريان، جلست على مبعدة منهنَّ على أحد المقاعد، وبعد وقت قليل دخَلَت لينا والمرأتان الأُخريان إلى المعسكر، اقتربت إيڤا مني وطلبتُ الجلوس بجوارها، بدأنا نتحدَّث، سألنا عن بعضنا من أين أتَت كلُّ واحدة، قالت إنها وُلِدَت في براج، كان أبوها تاجرًا وأُمُّها كانت تعمل في مكتب حقوق العُمَّال، أُغرِمَت بزميل دراستها بعد أن أنهت الثانوية، وتَزوَّجا بعد عِدَّة سنوات، كانت حُبلَى حين عَلِمَت هي وزوجها بقرار نقلهما.

قالت وهي تنظر إلى بطنها: "أحيانًا تحدث أفضل الأمور في أسوأ الأوقات، أحضرونا هنا بصحبة المجموعة الأولى في الشتاء، وأوكلوا لي أعمالًا خفيفة في المطبخ. لم أواجه صعوبةً مع الأعمال الشاقة كالبقية، ولم أشعر بالجوع أبدًا، على الأقلِّ كُنتُ أشعر بالدفء بجوار مواقد الطبخ، فلم تكن هناك تدفئة في مكان آخر، في المساء كنت أخشى إن تجمَّدتُ فسيتجمَّد معي جنيني...

لم أشعر بالدفء حتى حين أعطاني زوجي بطَّانِيَّته. اعتدتُ أن أضع يدي على بطني لكي أدفئ طفلي، ثمَّ حَلَّ الربيع، لم يكن قياسي للوقت بالأيام، بل بأسابيع الحمل. مَرَّ تسعٌ وثلاثون أسبوعًا، لم يَعُدْ أمامي سوى بضعة أيام"- ووَضَعَت يديها على بطنها، ثم أردفت: "لكن قبل عِدَّة أيَّامٍ نُقِلَ زوجي مع المئات إلى معسكر آخر"- رفَعت يدها، ولمست خدَّها الأوَّلَ ثم الآخر لتُجَفِّفَهما، وقالت: "قبل رحيلهم قيل لهم إن الوضع هناك أفضل".

قلت: "بالطَّبع هناك أفضل".

عندما عُدتُ إلى معسكرنا اتَّجهتُ مُباشَرَةً إلى غرفة الطعام من أجل الإفطار، ولم تكن أوتلا هناك، أنهيتُ حساء العدس بسرعة وذهبتُ إلى غرف نومنا، لم يكن هناك سوى أوتلا تقف بجوار فراشها وتوضِّب حقيبتها، وَضَعَت بعض ملابسها على فراشي وقالت: "لن أحتاج هذه بعد الآن، وأعلم أنكِ جئتِ بلا أغراض". شَكَرتُها وسألتها: "هل أنتِ راحلة؟".

"نعم، سيرسلون مائة طفل على عربة سِكَّة حديد إلى معسكر آخر، أراد الجنود أن يرافقهم شخصٌ بالغ فتطوَّعتُ". أمسكت بيدي وقالت: "قلتُ للأطفال إننا ذاهبون في رحلة".

عانَقَتني، ثم حَمَلَت حقيبتها الصغيرة وغادرت الغرفة. تذكَّرتُ كلماتها حين وصَفَت لي الإعدامات في المعسكرات الأخرى، تخيَّلتُها

أثناء سفرها مع الأطفال في قطار الشحن تخبرهم أثناء تكَوُّرِهم حول بعضهم في عربة السكة الحديد عن الرحلة التي تنتظرهم، وتَعِدُهم بالبحر والسباحة واللعب في الرمال، "لكنَّني لا أستطيع السباحة"- يقول أحد الأطفال، فتُشجِّعه أوتلا قائِلَةً: "ستتعلَّم".

فكَّرتُ كيف سيتم إنزالهم إلى المعسكر، سيأخذونهم إلى غرفة يُجبَرون فيها على خلع ملابسهم. سمعت أوتلا تقول إن عليهم الاستحمام أوَّلًا، وتنصحهم ألَّا يغفلوا مكان ملابسهم فسيتعيَّن عليهم بعد الاستحمام أن يُسرِعوا بارتداء ملابسهم حتى يذهبوا إلى الشاطئ.

تخيَّلتُ خَجَلَها إذ تقف عارِيَةً أمام الأطفال، رغم أن المرء لا يشعر بالكثير من الخجل حين يكون على أعتاب الموت، ثم يخطون عِدَّة خطوات إلى غرفة الاستحمام، ويضحكون؛ إذ سيتحمَّمون أخيرًا بما يكفي من الماء الدافئ، بعضهم يرفع ذراعيه للأعلى في انتظار رشَّاشات الماء، لكن بدلًا من الماء ينبعث الغاز السَّام من مكان ما، تنظر أوتلا إلى وجوه الأطفال وتلمح انقباضَها، تشاهد تَحوُّلَها لِلَّون الأخضر، وتشاهدهم إذ يفتحون أفواههم بحثًا عن الهواء النقي، تراهم يسقطون أرضًا فوق بعضهم فتشعر بضعفها أيضًا وبلُهاثها، تُعزِّي نفسها قائِلَةً إن جَسَدَها قويٌّ، وستكون آخِرَ مَن يموت، وستشاهد موتهم، وفي النهاية تسقط فوق جُثَث الأطفال، وترى عيونهم تترنَّح إلى الخلف، والدماء تسيل من أفواههم، ثم تشعر بلكزةٍ في صدرها، تترنَّح نظراتها وتزفر النَّفَس الأخير.

لم أبرح المعسكر طيلةَ الظهيرة، ومكثتُ في فراشي أُحدِّق في فِراش أوتلا الخالي وأنا أُطوِّح بين يَدَيَّ ما ترَكَته لي من أغراض: زوجا ملابس داخلية، ثوب وتنورة وبلوزتان وجوارب.

بعد عدَّة أيام وَضَعَت إيڤا مولودها، فمضيتُ إلى معسكرها وجلستُ على أحد المقاعد المواجِه له، سمحوا لي بالدخول بعدما

حَمَّموا الرضيع ثم أعطوني إيَّاه، حملتُ جَسَدَ الفتاة الصغيرة، ابنة إيڤا، وغمَرَتني السعادة وأنا أنظر إلى الطفلة وإيڤا التي استلقت على الفراش بادٍ عليها الإرهاق الشديد.

أجهَشَت إيڤا بالبكاء قائِلَةً: "الآن لست أدري بِمَ أُسمِّيها، لم نَتَّفِق أنا وزوجي على أي اسمٍ، لم نهتم إلَّا بحياتها وصِحَّتها الجيدة، فقط لو أستطيع أن أُخبِرَه الآن...". وحين هدَأَت طلَبَت مني أن أختار لها اسمًا، فقلت: "إميلي"، وردَّدَت إيڤا الاسمَ ورائي.

صِرتُ أتردَّد يوميًّا على معسكر الأُمَّهات والحبُلَيات، جلست على الفراش بجوار إيڤا ونظرت إلى هذه الحياة الجديدة، تلك الحياة الجديدة تَنَفَّسَت، نظَرَت، غَمَزَت، بَكَت، نامَت واعتُنِيَ بها. أُنصتُ لإيڤا إذ تحكي عن أمنيتها بلقاء زوجها مرة أخرى.

ذات صباح أخبرتُ إيڤا أنهم ينقلون كلَّ النساء المسِنَّات في معسكرنا إلى معسكر آخر.

"عِديني بأن تبحثي عن زوجي هناك، اسمه بافل بوبر، تذكَّري اسمه".

ردَّدتُ اسمه "بافل بوبر"...

"عِديني أن تبحثي عنه في ذلك المعسكر، ولو عَثَرتِ عليه أخبريه أنه صار أبًا، قولي له إن ابنته اسمها إميلي، أخبريه أننا بخير، وأننا سنلتقي مُجدَّدًا يومًا ما، عِديني".

"أَعِدُكِ"- قلتُ.

ثم وجب عليَّ الرحيل، نَهَضتُ، وقَبَّلتُ جبهتها، ثم قَبَّلتُ رأس إميلي الصغير، وقبل أن أذهب مَدَدتُ يدي إلى قلبي ما بين حمَّالة الصَّدر ونهدي الأيسر: "لم أُعطِكِ أَيَّ هدية بمناسبة مولد ابنتك، لم أحسب أني أملك شيئًا لأهديه، لكنَّني أتذكَّر الآن"، التقطتُ غطاء

رأس الرُّضَّعِ الكِتَّاني، "اشتريتُ غطاء الرأس هذا منذ سنوات عديدة، إنه أكبر سنًّا مِنكِ"، ضحكتُ، وضَحِكَت إيڤا أيضًا، "انظري إليه، إنه ينفرط، لم أعرف لأيِّ سببٍ أحضرتُه، لكنني الآن أعرف، ربما تحتاجه إيميلي في الشتاء".

جذَبَت إيڤا يدي التي تحمل غطاء الرأس وقَبَّلتها.

حدَّقتُ في راحة يدي التي تحمل آثار شفاه إيڤا واتَّجهت ببطءٍ نحو الباب المؤدِّي إلى خارج المعسكر، وعندما فتحتُ الباب التفتُّ لأرى إيڤا إذ تعتني بإميلي واضطربَ شعوري بين الخوف والأمل. نظرت إلى إيڤا وإيميلي وكأني أَردتُ من خلالهما أن أرى الماضي، إلى السلسلة الطويلة من أسلاف البشر، كل الأمهات والبنات من بداية الجنس البشري حتى تلك اللحظة، من دَمٍ إلى دَمٍ.

بعد ذلك التفتُّ راحِلَةً.

أَمضيتُ الظهيرة بأكملها في فِراشي، من حينٍ لآخر كنت أرفع البطانية قليلًا فوق رأسي وأتطلَّع إلى السماء ناصعة البياض. في اليوم التالي حشرونا في قطار بضائع لتبدأ رحلتنا في عربة الشحن التي كانت تنقل الماشية في وقت سابق؛ إذ كانت رائِحَةُ الحيوانات قويَّةً. جلسنا على الأرض مُلتَصقين ببعضنا، كانت كُلٌّ من بولين وروزا وماري الأقرب لي في ذلك السَّفر الطويل.

هَبَط الليل عندما أنزلونا من عربة الشَّحن، ثم وضعونا في شاحنات أخرى، وبعد عدَّة دقائق أنزلونا أمام مبنى يُخيِّم عليه الظلام، قالت لنا امرأة في زيٍّ عسكريٍّ إنَّ علينا الاستحمام أوَّلًا قبل أن يَتِمَّ تَسكينُنا، وقبل أن نصل إلى الغرفة التالية أخبرتنا أن نخلع ملابسنا وأن يتذكَّر كُلٌّ مِنَّا أين تركَ ملابسه؛ فخلعناها ببطء، عندما نزَعتُ حمَّالةَ صدري سقَطَت الصورة الصفراء التي تجمعنا، آل فرويد: شقيقات سيجموند وأشقاؤنا ووالدانا.

أمرونا أن نمضي صوب الغرفة المظلِمَة، وحين دخلناها أغلقوا بابها علينا، وسرعان ما سمعت هَسهَسَةً ما، وتسرَّبَت إلى أنفي رائِحَةٌ نفَّاذة، ضغَطَت أصابِعُ ما على أصابعي فعَلِمتُ أنَّها بولين، وأدركتُ أنَّ وجهها يومض بالابتسامة ذاتها التي يشترك فيها أغلب المكفوفين، حتى حين يجفلون أمام الرُّعب والخوف المميت، صَرَخَت بعضُ النساء حولنا، والبعض الآخر صلَّى: يدنو الموت مني، يوشِكُ أن يأخُذَني، وها أنا أُغلِق عيني أمام الموت.

2

بـدأ الألَـمُ في حيـاتي مُبَكِّـرًا، كقطـرات الـدم التـي تسـيل من جُـرحٍ خَفيٍّ قطـرةً قَطـرةً. وعـلى الرغـم مـن أننـي كنتُ كثـيرةَ المـرض في طفولتـي إلَّا أن ذلـك لم يكـن سـببَ ألمـي، بـل كانـت أمـي، ربمـا كنـتُ سـببَ شَـقائها، أو ربمـا كنـتُ النقطـةَ التـي اجتمعـت فيهـا آلامهـا وانتـشرت.

كانـت أمـي -إميـلي ناثانسـون- لا تـزال في سِـنِّ الطفولـة البريئـة حـين زوَّجهـا أَهلُهـا -دون إرادتهـا- لتاجـر الصـوف چـيكوب فرويـد، الـذي كان أرمـلًا حينَئـذٍ، وأصبـح جـدًّا لِتـوِّه. اضطـرَّت لمغـادرة ڤيينـا مـع زوجهـا الـذي يُكـبُر أباهـا سِـنًّا، وسـافَرَت معـه إلى قريـة صغـيرة حيـث فقـدت قدرتهـا عـلى البـكاء والأحـلام.

في 1856 أنجَبَـت سـيجموند في شـقَّةٍ مُسـتَأجَرَةٍ أعـلى ورشـة حـدادة حيـث عاشـت مـع زوجهـا، في العـام التـالي أنجبـت چوليـوس الـذي مـات بعـد ثمانيـة أشـهر، ثـم أنجبـت آنـا. اقتـصر طعامهـم لشـهور عـلى الخبـز والملـح، وكانـوا يتدبَّـرون بعـض الدقيـق.

قـرَّروا الانتقـال إلى ڤيينـا، حيـث سـاعد چيكـوب فرويـد والـد إميـلي في تجـارة المنسـوجات، تنقَّلـوا بـين عِـدَّة شُـقَقٍ في حـي ليبولـد شـتاد اليهـودي، وأنجبـوا طفـلًا في كل شـارع انتقلـوا إليـه. وُلِـدَت روزا في ويزجربرسـتجاس، ومـاري في بيلاردوفجـاس وبولـين في جلوكنجـاس، وألكسـندر في بازمانيتنجـاس.

كنـتُ كثـيرةَ المـرض، وكانـت أمـي تنـام بجـواري عـلى الفـراش دائمًـا، اعتـدتُ رؤيـة وجههـا كلَّ صبـاح قبـل أن تغيـب لسـاعات مـن أجـل مَسـحِ أرضيـات منـازل الأثريـاء، وعندمـا تعـود كانـت تجلـس بجـواري ولا تَـبرَحُ الفِـراش إلَّا قليـلًا لترتيـب البيـت أو إعـداد الطعـام.

سـمعتها تقـول في بعـض الأحيـان عندمـا كنـتُ أُوشِـكُ عـلى الإغـماء: "ليتنـي لم أَلِـدْكِ مـن الأسـاس".

بـدأت حيـاتي بـالألم، بجـرح سَـبَّبَته فكـرةُ أن وجـودي يعنـي شـقاءَ أُمِّـي، ولم يكـن أمـام أمـي سـوى جرحـي بهـذا الجـرح؛ فقـد كنـتُ النُّقطـةَ التـي التقـت فيهـا جراحهـا وانتـشرت، الاسـتنتاج المبكِّـر لأحلامهـا وزواجهـا مـن شـخصٍ أصبـح جَـدًّا لِتَـوِّه، مـوت ابنهـا الثـاني وتربيـة أولادهـا في الفقر، تغيـير السـكن المتواصـل إلى شُـقَقٍ أصغـر فأصغـر، مسـح أرضيـات بيـوت الأثريـاء.

التحـم كُلُّ هـذا بداخـلي، وفي مرضهـا وفي خوفهـا الزائـد عـليَّ؛ ولهـذا كرهتنـي بشـدَّة، وتحدَّثَـت بنـبرة مَـن يطلـق أحكامًـا قائلـة: "ليتنـي لم أَلِـدْكِ"، وأحبَّتنـي بشـدَّة، حتـى نَسِـيَت سـعادتها، أحيانًـا عندمـا كنـت أتنفَّـس بقـوَّةٍ كانـت تُهَمهِـمُ لي بقصَّـةِ الأم التـي تحـرس طِفلَتَهـا كـما يحـرس القمـرُ الأَرضَ. أحيانًـا كانـت تحملنـي بـين ذراعيهـا وتمـضي بنـا خـارج المبنـى عـبر الطرقـات المصفوفـة بالأشـجار، تحملنـي بيـدٍ واحـدة فتدفعنـي إلى صدرهـا، وتقطـف الأزهـار بِيَدِهـا الأخـرى مـن أقـصر غصـون أشـجار الزيزفـون والكسـتناء والسَّـنط، فتحمـل الـورود بـين وجهينـا.

أحيانًا كانت تحملني على حِجرِها، أو تحكي لي الحكايات التي ينتصر فيها الخيرُ على الشَّرِّ، إذ نجلس أمام النافذة لنشاهد تساقُطَ الثلج.

شعرت بالحب في بداية حياتي، كالنسمة الدافئة في أَشَدِّ الأيام برودة. تمنَّيتُ هذه النسمة كأنها بلسم، كان الحُبُّ في حياتي منذ بدايتها، في نظرة أمي، ولمسة يَدِها على جبهة رأسي، في خوفها على صحتي، في تلك الساعات التي كدتُ أفقد فيها وعيي، عندما لم تَكُن الحُمَّى تسمح لي بالحفاظ على وعيي إلا نادرًا.

في نصف وعيي رأيتُ ماما، تنظر لي بعين الخشية على حياتي، يداها اللتان تضعان الأقمشة الباردة على جبهة رأسي، اليدان المتعرِّقتان اللتان نَزَعَتا عني ملابسي وألبستني ثيابًا جديدة. في بعض الأحيان عندما كنتُ أُحاصِرُها بنظراتي كنتُ أرى القلق في عينيها يتحوَّل إلى كراهية، فتنطق شفتاها بالكلمات التي تخيفني حتى الموت: "ليتني لم أَلِدْكِ".

أرعبتني تلك الجملة حتى الموت، لدرجة أني تمنَّيتُ الموت، وأردتُ أن تَتحسَّر أمي على جُثَّتي، أن تُعاقَب بفراقي لأن حياتي بدأت بالألم، ولم أكُن أعلم أن هذا الألم سيلاحقني طوال حياتي كجرح مخفيٍّ تسيل منه الدماء قطرة قطرة.

لم يستغرق هذا التحوُّلُ في نظرتها ونُطقها لتلك الجملة إلا لحظة، لكن لازَمَني تأثيرها حتى بعد عودة نظرات الحب إلى عينيها والنبرة الحانية في صوتها. تسرَّبَت هذه الكراهية وتلك الكلمات إلى أحلامي، فكنتُ أستيقظ في الليل مفزوعةً من أحلامٍ تصطحبني فيها أُمِّي إلى نهرٍ نقف في مياهه الضَّحلَة، ثم تجذب رأسي وتدفعها تحت الماء حتى أكاد أفقد أنفاسي، فأرى أسماكًا تأكل وجهي بينما تتحوَّل أمي إلى وحش يمزقني إربًا.

أو كنتُ أراني طَيرًا لا تعرف أمي أني ابنتها فتصطادني وتقطع رأسي، ثم تسلخ جسدي وتنتف ريشي. كنت أستيقظ في غرفتي التي تشاركني فيها شقيقاتي الأربعة، وأترك بحَذَرٍ فراشي الذي أقتَسِمُه مع بولين مُتَّجِهَةً على أطراف أصابعي صوب النافذة لأمسح عن زجاجها بخار الماء الذي خلَّفته أنفاسُنا، لكنني لم أمسح دموعي.

نظرتُ عبر النافذة إلى الشارع وإلى انعكاس وجهي في الزجاج، ورُحتُ أُردِّد مقولةَ أمي: "ليتني لم أَلِدْكِ". لاحقًا فهمتُ مغزاها بعد فوات الأوان، كانت في الحقيقة تتحدَّث بتلك الكلمات لنفسها، "ليتني لم أولد قَطُّ"، لقد عاشت في كراهيةٍ لحياتها أكثر رعبًا من عدم وجودها من الأساس، وقد انقسمت هذه الكراهية إلى جزأَيْن.

في بداية حياتي اقترن الألمُ والحب معًا حتى النهاية، كالجرح والبلسم، لكن في بعض الأحيان كان البلسم يتحوَّل إلى سُمٍّ يُلهِبُ الجُرحَ. تلازَم الاثنان معًا جنبًا إلى جنب طوال حياتي، لقد آلمني كُرهُ أُمِّي لي، لكنَّ أحدًا لم يُحِبَّني قدر ما أَحبَّتني، ولا حتى أخي سيجموند، كان يكبرني بستِّ سنوات، أذكر كيف كان يقترب من فراشي مُمسِكًا بملعقة عَسلٍ أو تفاحة يداعب بها خَدِّي أوَّلًا قبل أن يُقرِّبَها إلى فمي، وبينما آكلُ التُّفَّاحة على مهلٍ يحكي لي عن ببَّغاوَيْن.

لم تكن تلك قِصَّة مكتوبةً، بل حَلَمَ بها أخي لي، أو ربما هكذا صوَّرها لي خيالي حين كنت أسعى لتذكُّر طفولتي.

أخبرني بينما أبتلع التفاحة أن أحد الببَّغاوين طار ذات صباح ولم يَعُد، فقام الآخر من شِدَّة حُزنه شَقَّ صدره ومَزَّق قلبه بمنقاره.

عندما أنتهي من أكل التفاحة كان أخي يقترب مني ويُقبِّل جبيني ليفحص درجة حرارتي، ربما كان مرضي المتكرِّر هو ما جعل أخي حنونًا معي أكثر ممَّا كان على شقيقاتي، فاعتاد أن يُقبِّل جبيني دومًا قبل النوم، وسرًّا؛ لأن ماما كان تُسَخِّف من أي لفتةٍ حميميَّةٍ تجاهي،

فلم يكن يُظهِرُ رِقَّته معي إلَّا عندما تغيب عن البيت، عندما كانت تذهب لمسح بيوت الأثرياء، أو لمساعدة أبي وجدِّي في متجر المنسوجات.

انتهت طفولتي المبكِّرة، وكذلك انتهت معها أمراضي، أصبح بإمكاني الذهاب إلى الحديقة الخلفية بصُحبَةِ شقيقاتي اللاتي يلعبن مع أطفال الحيِّ، لكنَّ شعورًا غامضًا بالخوف دفعني للبقاءُ بجوار النافذة.

اعتَدتُ أن أستيقظ مُبكِّرًا، وكلَّما فعلت أذهب إلى المطبخ، كنت أعلم دومًا أن ماما هناك، كانت تشعل نار الموقد أو تحيك لباسًا أو تُعِدُّ طعامًا، في حين يكون أبي في المتجر على الدوام. أجلس بجوارها فتعطيني بطاطس مسلوقة، أو شريحة خبز وقطعة زبد، فأمضغ الطعام، وأنتظر دخول سيجموند إلى المطبخ، كنتُ أعلم باستيقاظه بالفعل، وأنَّه يستذكر دروسه التي تلقَّاها في اليوم السابق.

بعد رحيل أخي إلى المدرسة تمضي شقيقاتي لِلَّعِب في الحديقة الواقعة خلف المبنى، لكنني كنت أبقى بجوار أمي أشاهد صَنيعَها، أنظر إلى يديها ووجهها بينما تغسل الملابس، وتمسح الأرضيات، وتُرَقِّع الملابس وتُطرِّز وتطبخ.

بعدما شُفيت من أمراضي كَفَّت أمي عن ترديد مقولتها بأنه كان من الأفضل لو لم تَلِدني من الأساس، ومُذ ذاك أصبحَت تُقارِنُني بباقي الفتيات، وتقول لي إنَّني لن أصبح مثلهنَّ أبدًا، وأن حياتي ستكون خواءً مُعذِّبًا دائمًا. اعتدتُ الذهاب إلى غرفة سيجموند عندما تغيب أمي عن البيت، في كل بيوتنا كانت له غُرفة خاصَّة، وكلها كانت في الأصل -قبل انتقالنا- عبارة عن غُرَفٍ صغيرة جدًّا، أو مخازِنَ أُعيد تصميمها.

كنتُ أدخل غرفته ذات النافذة الصغيرة الأشبه بشِقٍّ في الحائط، أقف بجوار الفراش في مكان ثابت، وأجول بأنظاري على الأرض والجدران والرفوف التي اصطفَّت عليها بالتوازي الكُتُبُ والملابس،

وكنت أحرص على ألَّا أُطيل البقاء في تلك الغرفة الصغيرة حتى لا تعود أمي قبل أن أغادرها.

اعتادت أمي القولَ بأن أخي سيغدو رجلًا عظيمًا حتى قبل ولادته، عندما كانت حُبلَى به التقَت بعرَّافَةٍ تنبَّأت لها بذلك، فدأبت أمي على تكرار قولها "رجل عظيم"، إلَّا أنها اعتادت أيضًا أن تشير له بوصفه "صغيري سيجي الذَّهبي"، دائمًا "صغير" ودائمًا يخصُّها، لم تنُمَّ "صغيري سيجي الذهبي" عن شعور قويٍّ بالاستحواذ التام وحسب، بل تهديدًا لأيِّ شخص يفكِّر في انتزاع ابنها منها.

أردتُ أن أدخل غرفة أخي على الأخصِّ أثناء وجوده، كنت أجلس في ركنٍ بالغرفة الصغيرة وأشاهده إذ تَعبُرُ عيناه بين صفحات كتبه، وتتحرَّك شفتاه فيُتَمتِم في صمت بالكلمات التي يقرؤها. عندما كان وقته يسمح كنت أطلب منه أن يقرأ بصوتٍ عالٍ بإحدى اللغات التي يعرفها، أو أن يخبرني بما كان يدرسه لحظتها، والذي لم يكن مفهومًا بالنسبة لي تمامًا كاللغة الأجنبية.

اعتاد أبي العودة من المتجر عندما يُخيِّم الظلام، يتبادل حديثًا مُقتَضَبًا مع أمي، يسألها عن أحوالنا وأحوال البيت، ثم يلتقط التَّلمود ويجلس بعيدًا عنَّا، ويشرع بهدوءٍ في القراة باللغة العبرية، وهي لُغَةٌ يُقدِّسها، لكنَّ أحدًا من أبنائه لم يتعلَّمها.

عندما وصل والداي ڤيينا، قرَّرا -كأغلب يهود المدينة- أن يُمرِّرا يهوديَّتَهما إلى أبنائِهما بالدَّمِ فقط، وليس بالتلقين الدِّينيِّ، تَمنَّوا أن يتساووا بالمواطنين العاديين إذا اندمجوا بهدوء وحافظوا على العلامات غير البارزة التي يحملونها من أسلافهم -الدم-، بينما يكتمون إيمانهم كما كان يفعل أبي أثناء قراءته للتَّلمود.

لم يَسْعَ أبي لتقريبنا إليه إلَّا عندما كان يرغب في تعريفنا بحيوات نوح ويعقوب وموسى، فيعيد قراءتها على طريقة قصص الأطفال الخيالية،

لكنه في غير هذه الأوقات انعزل عنَّا، وظَلَّ واعيًا على الدوام، ذلك الوعي الذي يميِّز مَن أدركوا تأخُّرَهم في اتِّخاذ قرارٍ ما، الذين أدركوا فروق التوقيت، نظر إلينا، نحن الأصغر سنًّا من أبناء زواجه الأول، وربما كان إدراكه لهذا الأمر هو ما باعَدَ بيننا وبينه، بُعْدٌ دفعنا لأن نناديه بـ "أبي" وليس "بابا"، "أبي" كانت أقرب لـ "سيدي"، لم يكن سبب ذلك سِنُّه أو الإيمان الذي لم يُورِّثه لنا بل إدراكه بأنه تأخَّر كثيرًا قبل أن يخلق هذا التأخيرُ بُعدًا هائلًا جعل أغلب إيماءاته غاضِبَةً، وبَدَت معه كلماته كالتَّحذيرات التي جمَّدَت كُلَّ دفئه قبل أن يصل إلينا.

ذات يومٍ كنتُ ذاهِبَةً إلى المدرسة للمرة الأولى، توسَّلتُ لوالديَّ خوفًا أن يسمحا لي بالمكوث في البيت، مَكثتُ في البيت في اليوم التالي أيضًا، والأيام التالية كذلك.

عندما عاد أخي من المدرسة مضيتُ إلى غرفته حيث التقطَ أحد كُتُبِه الدراسية وأخذ يتصفَّح أوراقها ليخبرني بما يظنُّ أنني بحاجة لمعرفته.

في يوم الأحد اعتاد والداي الذهاب إلى مُتنزَّه كرايتر بصحبة آنا وروزا وماري وبولين وألكسندر، في حين اعتاد سيجموند أن يبقى معي في البيت مُتعَلِّلًا بحاجته للدراسة، لكن فور أن نُترَكَ وحدنا في البيت كان يُنحِّي كتابه جانبًا ونستلقي سويًّا على الفراش الذي أقتسِمه مع بولين ليلًا، فنغطِّي أنفسنا بالملاءة بالكامل رافعين إيَّاها على أطراف أصابعنا بمسافة قَدَمٍ عن رؤوسنا، فنُنقل إلى حالة من النعيم نشعر فيها أننا أَوعِيَة التقت ببعضها، في تلك اللحظة التي تمنَّيتُ أن تبقى إلى ما بعد الأبد بلحظةٍ؛ إذ نشهق ونزفر تباعًا أسفل سماء الملاءة البيضاء.

روى لي سيجموند عن غرائب الطبيعة، عن قِدَم النجوم ومَوْتِها، وعن تَقلُّب حالات البراكين، عن الأمواج التي نَحَتَت الأرضَ، عن

الرياح اللطيفة حينًا، والقاتلة أحيانًا. شعرت بخَدَرٍ كلماته، وأنفاسه، وتلامُسَ جسدينا إذ نستلقي بجوار بعضنا في الفِراش.

كُنَّا نَظلُّ في تلك الغشية حتى يُصيبَنا التَّعب، فيغلبني النوم، رغم أنني اعتدتُ الاستيقاظ على الجلبة التي يصنعها أبي وماما وأخوتي وأخي الصغير بعد عودتهم، أمَّا سيجموند فيكون قد استيقظ قبلي بوقتٍ طويل، أو ربما لم يكن ينام من الأساس؛ فلم أكن أراه بجواري على الفراش عندما تُوقِظني الجلبة.

في أحد أظهار يوم الأحد، بعدما استَمَعتُ إلى كلمات أخي سيجموند مخلوطةً بخفقان قلبي، شعرت بتباطؤ أنفاسي، وأغمضتُ عينيَّ لأرقد هناك بين يَقَظةٍ ونوم، في نصف حلم، وبالكاد سمعت صوتَ أخي الهادئ يسألني ما إذا نِمتُ، لكنَّني لم أتحرك في هذه الحالة الهادئة التي لم أتنفَّس فيها إلَّا قليلًا، ليس لأنني أردتُ خداع أخي، بل لأنني لم أرغب في قطع المتعة التي كنت أشعر بها، انسلَّ ببطءٍ من تحت البطانية وغادر الغرفة.

ظللتُ مُستَلقِيَةً لبعض الوقت، ثم أَزَلتُ البطانية ببطء وتَرَكتُ الفِراش، اتَّجهت إلى الرَّدهة ومضيتُ إلى غرفة أخي الصغيرة وفتحت بابها فجأة، وكان بداخلها سيجموند مُستَلقيًا على الفراش، وقد حَلَّ سرواله وأزلقه فوق ركبته قليلًا، ثم أنزل يده على هذا الشيء الذي أراه للمرَّة الأولى، خفق قلبي في حلقي، بينما كان سيجموند يتنفَّس أسرع فأسرع، ثم راقَبتُه إذ يُغمِضُ عينيه ويتصلَّب جسده كلُّه في انقباضَةٍ فَغَر معها فاهُ وتأوَّه آهَةً مَكتومة، فسمعت صرختي، ذُعر أخي والتفت تجاهي.

عُدتُ عبر الرَّدهة إلى غرفتي واستلقيتُ على فراشي أخفيت وجهي بين يدي وبكيت. شعرت باختفاء العالَم الذي ملأ طفولتي، الساعات التي علَّمني فيها أخي في غرفتي الصغيرة حيث اعتدت أن أجلس في

الرُكن وأشاهده إذ يُحرِّك شفتيه أثناء القراءة الصامتة، الساعات التي نقل إليَّ فيها معرفته، وعندما كُنَّا نستلقي سويًا في الفراش فنؤمن أننا لن نفترق أبدًا، كل هذا انتهى إلى الأبد.

آلَمني شعور افتراقنا أنا وأخي، كانت هذه هي المرة الأولى التي أعي فيها أن طُرُقَنا ستنفصل، وقد آلَمتني هذه الفكرة، حاوَلتُ أن ألتقط أنفاسي وسَمعتُ صوته: "أرجوكِ لا تَبكِي"، داعَبَ أصابعي التي تخفي وجهي بأصابِعه اللَّزِقَة ذات الرائحة الغريبة، خفق قلبي في حلقي مجدَّدًا، ظلَّ يُردِّد بجواري: "أرجوكِ لا تبكي"، شعرت أنه بعيدٌ رغم قُربِه، نزع يدي عن وجهي، وعندما نظرت إليه شعرت أنه سيجموند آخر، وكأنِّي أنظر إلى شخص مختلف، أغمضت عيني فاغرورقت بالدموع.

احتضَنتُ وسادتي، في حين ظَلَّ هو على فِراشي يضع يده على رأسي، فهدأ تَنفُّسي قليلًا، وعاد إلى نَسَقِه الطبيعي، وَضعتُ رأسي على الوسادة وبقي أخي بجانبي.

سمعنا الباب يُفتح.

قال أخي: "سأخبرهم أنكِ نائِمة"، ثم غادر الغرفة وأغلق الباب خلفه، وفي تلك اللحظة غَلَبَني البكاء مُجدَّدًا، فدفنت وجهي في الوسادة أضغط عليها كي لا يسمعني أحد، ظَلَلتُ هناك لفترة حتى خَلدتُ إلى النوم.

في اليوم التالي تجنَّبتُ أخي، لم أبرح غرفتي سوى للذهاب إلى المدرسة، وحين أعود كنت أمضي مباشرةً إلى فراشي. كففتُ عن الذهاب لغرفته كما اعتدت أن أفعل حين يكون موجودًا في البيت، ولا هو جاء باحثًا عني عندما لا أطرق بابه.

أثار كُلُّ شيء تَقزُّزي في ذلك اليوم: الماء، والطعام، وجسدي، والكلام. حتى أنني استنشقتُ الهواء بنفورٍ شديد، وسرعان ما زَفَرتُه، وانتظرت

أطولَ ما يُمكِنني قبل أن أُكرِّر الشهيق. أصابتني حُمَّى غريبة عدَّة مرَّات منعتني من الاستيقاظ، لكنها أرجفتني بشدَّة؛ فلم يكن بوسعي النوم أيضًا.

أمضيتُ اليومَ التالي في الفراش، في هذياني، عَثَرَت روحي وجسدي على سبيلٍ لصَرفِ أفكاري عن التغييرات التي جَلَبَتها ليلةٌ واحدة وحيدة، حتى أنني لم أُميِّز ما إذا كان أخي هو مَن أخبرني بحكاية العصفور الذي فقد حبيبه أم قُمتُ أنا بتأليفها، ذاك الذي ثقب صدره بمنقاره ومَزَّق قلبه من الأسى، وأثناء استلقائي على الفراش بنصف وَعيٍ شعرتُ بشيء ما ينقر على صدري ويسعى لقلبي.

أمضيتُ تلك الأمسيات، منذ اللحظة التي أستلقي فيها على الفراش حتى أسقط في النوم، بمواجهة الحائط مُغمَضَة العينين، يضجُّ صدري بالألم والخوف، كنت أخشى الحياةَ، أو ما قد تُعرِّضني له؛ فأوجعني الخوف.

كان إدراكي لاختلاف جسَدَيْنا أنا وأخي هو ما نَبَّهني للتغييرات الحتميَّة القادمة التي كنت أَجهَلُها، خشيتُ هذا الاختلاف قدرَ تألُّمي من الفكرة. خفتُ، وتألَّمتُ من غموض العلاقة بين الأجساد الأخرى، والتي صَدَمَتني كوثيقةٍ تتناقلها الأجيال حتى قبل أن يعرف عنها أحد شيئًا، قبل أن تُرى وتُعايَش، وثيقة مكتوبة تُورَّث في الدماء، متأصِّلة بقوة منذ الطفولة لكنها غامضة ويصعُب شرحها.

استوقَفَتني تلك الوثيقة المكتوبة بالدم، هذه العلامة التي بدأت بوعيي فجعلتني أدرك الفرق بين جسدَيْنا أنا وأخي.

بعد سنوات عديدة قرأتُ دراسةً لسيجموند في أواسط عمره يشرح فيها كيف تتحوَّل الطفلة إلى امرأة، فبالنسبة له يحدث ذلك "في المرة الأولى التي ترى فيها الطِّفلَةُ الأعضاءَ التناسُليَّة للجنس الآخر، تلاحظ الفَرْقَ على الفور، وهو فرقٌ جوهريٌّ بلا شَكٍّ"، تشعر كلُّ

فتاة بتلك الملاحظة أن "بها عيبًا قاتِلًا"، ومن ثَمَّ تقع فريسةَ "حَسَدِ القضيب"، أو شهوة العضو الذكري، كل هذا سيترك أثرًا لا يُمحَى على نُموِّها وتكَوُّن شخصيَّتها.

إن كانت هذه الحقيقةُ الخادعةُ صَحيحةً، أن الأنوثة وليدةُ عوامِلَ خارجية وليست نتاجًا لعامِلٍ غريزيٍّ بداخلها، كملاحظتها وهي بَعْدُ فتاة صغيرة أنها لا تملك عضوًا ذكريًّا، وأن مُلاحَظتها تلك تؤدِّي إلى اعتقادها بأنها كَمَن تعرَّض للإخصاء- فلماذا (وفقًا لملاحظة أخيها) تتطوَّر الطفلة إلى امرأة؟.

لماذا تظهر شخصية المرأة داخل الطفلة بدافع الحَسَد وليس بسبب الحزن أو الخوف أو الاختلاف؟، الحزن على اختلاف الجنسين، الخوف من هذا الاختلاف، الخوف من الجنس الآخر، النفور من الاختلاف؟.

لم يسمَح لهذا الاختلاف الملحوظ أن يُفسِحَ المجال لمشاعر أخرى داخل الفتيات اللاتي يصبحن نساء غير الحسد، لقد وضع هذا الشعورُ حَجَرَ زاويَةِ الـ أنا التي تُخلق بداخل كل امرأة. وفقًا لأخي فظهور شخصية المرأة لا يخضع لعوامل بيولوجية حتميَّة فحسب، فهو ليس حقيقة جسدية، ولم يكن كذلك أمرًا غيبيًّا يقع في ثنايا الروح، لكنها عملية يدفعها الحسد، وعندما تنتهي هذه العملية يبقى الحسد في حياة كل امرأةٍ كندبَةٍ من أوَّل جُرحٍ ناتِجٍ عن شعورها بالاستئصال لافتقارها العضو الذكري.

عندما بلَّغ أخي العالم فِهمَه كحقيقةٍ مُطلَقَةٍ لم يذكر الألم الذي شعرت به في تلك الظهيرة عندما كان في الثالثة عشرة من عمره وكنت أنا في السابعة. الألم والخوف اللذان حَفَّزَتهما ملاحظتي لاختلاف جَسَدَيْنا، فكرة التقدُّم في العمر ومفارقة الطفولة، هاجس انفصال حياتَيْنا عن بعضهما حتى الموت. لقد أغفل تلك الظهيرة، والحزنَ والخوف اللذَيْن انسكبا منها وهبطا عليَّ كظلالٍ تستحيل أوجاعًا

متعدِّدَةً ومخاوِفَ أخرى، لقد أغفل -ولم يُقرن بنُضجِ الفتاة- تلك العملية التي أطلق عليها "التحوُّل إلى امرأة"، إلَّا سمة واحدة: الحسد.

في طفولتي، وأثناء خوفي وألمي، وحدها أمي هي مَن لاحظت الشرخ الذي أصاب علاقتي بأخي. ليس فقط لأنني كنت أذهب إلى المطبخ عندما يمضي أخي إلى المدرسة ثم أنزوي في الغرفة التي أشارك فيها شقيقاتي قبل عودته إلى البيت، لكن أيضًا لتبَدُّل ملامح وجهي حين كانت تجمعنا غرفة واحدة، فنتحاشى التقاء أنظارنا ويُصيبنا التوتر. توقَّف أخي عن مُرافقتي أثناء المشي، وكَفَّ حتى عن اللعب مع مَن هُم في سِنِّه بالخارج فقد تَخطَّى سِنَّ اللعب. أحيانًا كان يأتي أصدقاؤه لزيارته في غرفته، وعندما كان يمضي خارجًا تقول لي أمي إنه يومٌ جميل، وتزيح الستائر لتسمح بدخول نور الشمس على مهل قبل أن نذهب إلى السوق.

بدأتُ أخرج بصحبة ماما بالتدريج، كُنَّا نذهب إلى السوق أو إلى المتجر حيث يقف أبي، أحيانًا كنتُ أنزل الدَّرَج وحدي وأمضي إلى الباب الخارجي لبنايتنا، وأحيانًا كنتُ أتَّجه إلى نهاية الشارع ثم أعود دونما كلمة.

كثيرًا ما أعطاني سيجموند كتابًا اسْتَلَفَه من مكتبة المدرسة، وفي المقابل كنتُ أُعيده له في صمتٍ بعدما أنتهي من قراءته وأنتظر أن يعطيني كتابًا آخر. لم أكن حتى أذهب إلى غرفته في غيابه، وتفادَيتُ البقاءَ معه في غرفة واحدة، لكن على الرغم من ذلك كنت أنتظر عودته من المدرسة كما اعتدت، أو من زيارته لصديق، وعندما أسمع صوت خطواته في الردهة، أستلقي على فِراشي وأجذب الغطاء فوق رأسي كما كُنَّا نفعل سويًّا إذ نرفعه بأطراف أصابعنا أعلى رؤوسنا، لكن أشعر بألم في صدري يسعى نحو قلبي، في نفس المكان الذي أشاع فيَّ سابقًا ذلك الخَدَرَ اللذيذ.

***

مكتبة
t.me/t_pdf

3

ظِلال...

ربما كُنَّا ظلالًا لحقيقةٍ ما ستظلُّ محجوبةً عَنَّا حتى نرجع إليها، أو أننا جزءٌ من عجائب الحياة اليومية التي غالبًا ما تَمرُّ دون ملاحظة. أحيانًا يُحدِّق شخصٌ ما في ظلال السُّحُب والشجر أو في ظِلِّه هو وفي هذه اللحظة يتجلَّى كشْفٌ ما.

كان ثَمَّةَ أَمرٌ ما بشأن هذه الظلال المجتمعة، تلامس الانعكاسات، تشابُك الجوهر في تلك اللحظات التي جمعتني برايـنر. كان في التاسعة من عمره عندما التقيته، وكنتُ أنا أبلغ من العمر عامَين، كانت عيناه تختلف عن باقي الأطفال، كانتا تبكيان للداخل، فتترقرق دموعه من مكانٍ ما في أعماقه، فلم تكن تُسبِّب له الارتياح الذي عادةً ما يصاحب النَّحيب.

حتى ذلك الوقت كنت أخشى الاقتراب من باقي الأطفال، (بالنسبة لي لم يكن أخي سيجموند طفلًا على الإطلاق). غَشِيَني كَدَرٌ ما، حتَّى مع وجود شقيقاتي، لكن فور رؤيتي لراينر أردتُ أن أكون بصُحبَتِه، اقتربتُ منه بالتدريج، وذات مرة نادَيتُه لكي نُلاعِبَ ظِلالَنا، كُنَّا في الخريف حين قلت له: "يمكن لظلالنا أن تتلامس دون أن نفعل شيئًا"، فلَعِبَت ظِلالُنا ببعضها.

انخرط أخي في مدرسة الطِّبِّ ذلك العام. كان هذا وقت تَغيُّرات عديدة، مات جَدِّي وانتقَلَت إدارةُ المتجر لوالِدَيْنا، كَفَّت ماما عن مسح بيوت الأثرياء وراحت تُساعِدُ أبي في إدارة المتجر، ثم انتقلنا إلى شقَّةٍ أوسع في شارع كايزر چوزيف.

في ذلك العام أردتُ تَعلُّمَ الرسم، فسَخِرَت أُمِّي من رغبتي، قالت إنني لم أرغب في الذهاب إلى المدرسة لأنني عاجِزَةٌ عن تَعلُّم الأساسيات، وأني لا أجيد التَّحدُّث، ولا أستطيع اللعب مع باقي الفتيات، وأنَّ الرسم لا يلائم البنات.

لم يَنْسَ أخي رغبتي هذه، وفي الأسبوع التالي أخبرني أن هناك رَسَّامٌ اسمه فريدريك ريختر من ضواحي ميونخ، يعطي دروسًا مجَّانِيَّةً في منزل أحد أساتذته. عاش هو زوجته في ڤيينا عندما وُلِد ابنهم، ثم رجعوا إلى عزبتهم قرب ميونخ، لكنهم عادوا إلى ڤيينا عندما سمعوا بأن دكتور أوتو أورباخ -أستاذ أخي- يمكنه مُعالَجَة الأطفال المُعذَّبة أرواحهم.

ولاقتناع دكتور أورباخ بأن اقتراب راينر من الأطفال قد يساعده، فقد سمح لفريدريك ريختر بأن يقيم دروسًا في الرسم في منزله لأبناء الأساتذة في كلية الطب ممَّن هُم في نفس عمر ابنه. طلب أخي أن يسمحوا بحضوري هذه الدروس، فصار يصطحبني ظهيرة كُلَّ أحدٍ إلى منزل أستاذه.

كُنَّا نجلس في الحديقة إذا سمح المناخ، أو في الداخل إذا كان الجوُّ باردًا. علَّمنا فريدريك ريختر كيف تتطوَّر النقطة إلى حركةٍ وخَطٍّ، وكيف يتَّسِعُ الخَطُّ ليصبح سطحًا، وكيف يتحوَّل السطح إلى مساحة. عندما كُنَّا ندرس في الحديقة اعتدنا أن نرى سارة ابنة دكتور أورباخ تشاهدنا من نافذة غرفتها. أخبرني سيجموند أن فريدريك أورباخ يعطيها دروسًا في أيامٍ أخرى لأنها تعاني صعوبَةً في المشي، وكانت دورس الرسم التي نحضرها بمثابة لعبة على نحو ما، تَسلِيَة، لعبة أطفال أكثر منها ممارسة حقيقية للرسم، كان هدف اللعبة هو شفاء رايتر، لكنه ظَلَّ مُنعَزِلًا عن باقي الأطفال، وباقي العالم.

عرفت القليل عن رايتر، نقل أخي ما سمعه من أستاذه الدكتور أورباخ، أنكر الأخيرُ فَرضيَّة زُملائه بأن حزن رايتر ينبع من حقيقة أن والِدَيْه أنجباه في سِنٍّ مُتأخِّرة فكانوا له بمثابة الجَدِّ والجدَّة. لقد نشأ في ميونخ، لكنه بالرغم من ذلك نزل إلى الطبيعة، بقيَ بجوار حامل الألوان بينما كان أبوه يرسم، في الحقول، قُربَ الغُدران، وفي الغابة التي تحاوط منزله، أو آخر اليوم الذي كان يمضيه مع أمه حين تقرأ له الشعر أو تعزف له على البيانو.

لكن لم يُخفِّف هذا الوجودُ الشاعريُّ من أسى رايتر. انغمس الطفل في آلامه وكأنه يغرق في الماء، وكأن عذابًا ما دفع رأسه للأسفل وأجبره على الغوص في هذا الألم ولم يسمح له بالصعود إلى السطح لالتقاط أنفاسه إلا نادرًا.

لم يعلم أحدٌ أصلَ هذه السوداوية الطفولية، ولا مَن حَفَّزَ حسرته، ولم يعلم أحد مَن نَحَّى نظراته عن العالم، فحتَّى عندما كانت تقف أُمُّه أمامه أو تشرح له أمرًا كان يُحدِّق في الفراغ، وكأنَّه يُحَملِقُ في شيء اختفى دون رجعَةٍ. هربت نظراته من كل شيء وتعلَّقَت بالفراغ.

أحيانًا كان يُمرِّر له أحد الأطفال الكرة فلا يمدُّ رايـنر ذراعه ليلتقطها. أو يُكلِّمه طفلٌ آخر فلا يتجاوب معه، أو يجذبه طفلٌ ثالث من أكمامه فلا يتحرَّك أو يحوِّل عنه نظراته، كان باقي الأطفال يمضون لِلَّعِب لكنَّني مَكثتُ بجواره.

تظهر العديد من الأمراض على مدار حياة الإنسان، بعضها يختفي وبعضها يبقى حتَّى الممات. لكن الألم الأول دائمًا ما يكون هو الحقيقي والأوحد، أمَّا باقي الأوجاع فتتفرَّع من هذا الألم، كل ألم لاحق يوجع بشدَّة لو اقترب من هذا الألم الأول، أو حوى على ما يُماثِلُه.

كان لألَمي اسمٌ، الألَمُ الذي حَفِظَته ذاكِرَتي المبكِّرة، والذي تعلَّقت به باقي الآلام، واسمه: أُمِّي. لكنَّ ألَمَه لم يكن له اسمٌ، رغم أنه لازَمَه حتى أنساه وجودَه، وكانت نظراته التي تنحرف بعيدًا عن الواقفين بجواره نحو الفراغ، تسعى لاكتشاف هذا الألَمِ الذي حاول أَهلُه أيضًا أن يكشفوا عنه، آملين أن يعالجوه بمساعدة الأطباء.

لقد كُنَّا أطفالًا، وكُنَّا في مرحلة الألم الأول، تلاقَت آلامنا، وربما لهذا اقتربنا من بعضنا كبلسمٍ على جرح، صِرنا أكثرَ قُربًا من أسعد الأطفال؛ فالألم هو أقوى رابط. وهكذا وَقَفنا بمفردنا بجوار بعضنا بينما تَقافَزَ الأطفالُ حولنا على قَدَمٍ واحدة، ويقذفون الكرة، أو ينطُّون على الحبال، أو يلاحقون بعضهم حول الأشجار، لكن أنا ورايـنر وقفنا هناك، نظرت إليه وأحيانًا كانت نظراته تقع عليَّ لثانية ثم تهرب مجدَّدًا إلى الفراغ.

أحيانًا كنت أقول له كلماتٍ مُتنافِرَةً، وأحجياتٍ وحكاياتٍ خياليَّةً، وذات مرَّة أخبَرتُه عن أمي، عن كلمات التَّحقير والتسخيف التي تُعَلِّق بها على طريقة تناولي للطعام، وطريقة ضحكي وسيري. وكيف اعتادت أن تقول لصديقاتها وأبنائهن أمامي أثناء زيارتهم لنا إنني لا أجيد الحديث أو الضحك أو المشي مثلما يفعلون هم. أخبَرتُه بكلامها

الذي يجرح مَسرَّاتي ومباهجي، مَسرَّتي بموهبة أبيه وبهجتي للقائه في ظهيرة كلِّ أحدٍ حتى لو كان صامتًا.

ثم تَحدَّث راينر للمرَّة الأولى قائلًا: "لكنَّ والديَّ يحبَّانني"، إلا أن ألمًا ما اكتنف صوته، ألم الطفل الذي تَعرَّض للهَجْر من أقرب الناس.

نظرتُ إليه في صمتٍ للحظةٍ أو اثنتين ثم قُلتُ له: "أنا أيضًا يحبُّني والداي، أنا واثِقَة من أن ماما تَمقُتُ حُبَّها لي، وقد اعتدتُ أن أتجاهلها حين تُوجِّه لي هذا الكلام، أسمعها بالطبع، لكنَّني لا أُبالي بما تقول، لم يَعُد يجرحني كَلامُها، بل يَمرُّ سريعًا لأنَّني أُفكِّر بِكَ".

لأول مرة ينظر إليَّ راينر مباشرةً لأكثر من الثانية، أضاء وجَهَه بريقٌ من السعادة أزال الحُزنَ بعيدًا، أردتُ أن أسأَلَه عن سبب سعادته، وهو أيضًا بَدَا راغِبًا في الإفصاح عن أمرٍ ما، لكنَّ والدَيْه اللَّذَيْن كانا يجلسان على المقعد القريب لاحَظَا تَغيُّرَه.

"راينر ابتسم!" صاحَت أُمُّه، وركض الأبُ ناحيتَه، لكِنَّ الحُزنَ كان قد هبط على وجه ابنهم مرَّةً أخرى.

في الأحد التالي عندما اجتمع الكبار في منزل دكتور أورباخ، وبينما كان الأطفال يمرحون ويلهون في الفناء، عَرَضتُ على راينر أن نلعب بظلالنا. لم يَقُلْ شيئًا، لكنني أخبرته أن ظِلالَنا يُمكِنُها أن تتلامس حتى لو افترَقَت أجسادنا. بدأنا نلعب بظلالِ أصابعنا، نُبعِدُ الواحِدَةَ عن الأخرى، لكنَّ ظِلالَها تَداخَلَت على الأرض، اقترَبَت أصابِعُنا ببُطءٍ في الهواء، وحَرَّكناها بينما نُراقِبُ تَشابُكَ الظِّلال وانفصالها.

شاهَدَ راينر الظِّلال، ولأوَّل مرَّةٍ امتنَعَت عيناه عن الهرب إلى الفراغِ لفترةٍ طويلَة، رَفَعتُ يدي ناحيتَه وقلتُ له إنني أحيانًا أحلم بأني أسقط، فأرفع يدي لأمسك بِيَدِ أَحدِهم، وتُمسِكُ يدي فعلًا بالحائط أثناء نومي، وحينها أستيقظ على وقع الخبطَة.

قلتُ له: "أحيانًا عندما أَغتمُّ أرغب في الإمساك بِيَدِ أحدهم، وأن تقبِضَ تلك اليَدُ على يدي".

ثم تداخَلَت ظِلالُ أيدينا، وتشابَكَت أصابِعُنا.

شَعَرَ كُلٌّ من السيد والسيدة ريختر بالامتنان لدكتور أورباخ لأن ابنهم أصبح يُبعِدُ نظره عن الفراغ أكثرَ فأكثر، وأحيانًا كان يُجيب عن أسئلة النَّاس حتى لو كانوا من غير أُسرَتِه، بل إنه أحيانًا أصبح يبتسم.

بعد تَحَسُّن حالة راينر سرعان ما قَرَّر والداه العودة إلى عِزبَتِهما قُربَ ميونخ.

قال لي راينر أثناء وداعنا: "يومًا ما سنجتمع مرَّةً أخرى".

قلتُ له: "لكنَّ الأمور ستكون صعبةً عليَّ حتى عودَتِكَ".

"وعليَّ أيضًا ولهذا ستكون أسهل على كِلَيْنا، دعينا نفكر في ذلك اليوم الذي سنجتمع فيه مُجدَّدًا".

أعطاني ورقةً كان يحملها في يده وقال: "هذه لكِ، ذِكرى".

أخذتُ الورقة وكان عليها راينر، رَسَمَه والِدُه بالرصاص. نظرتُ إلى الرسم، ثم إلى راينر، نظرتُ إلى عينيه اللَّتَيْن تنظران إلى الداخل فتترقرق دموعهما في أعماقه. أَرَدتُ أيضًا أن أهديه شيئًا، شيئًا ما يتذكَّرني به، ويتذكَّر به كيف تلاعَبَت ظِلالُنا، وكيف لمس يدي، وما وعدني به أثناء وداعنا. أَرَدتُ أن أعطيه شيئًا، لكن لم يَكُن معي شيء، ففكَّرتُ في تمزيق جيبِ ثوبي الأحمر الصغير الذي أَعطَتني إيَّاه إحدى شقيقاتي الأكبر مني.

قلتُ له: "كم يصعبُ عليَّ فراقك"، ورُحتُ أُمزِّق جيبَ ثوبي.

قال راينر: "وسيصعب عليَّ فراقِك أيضًا"، ووضع يده على جوف معدَتِه وكأنَّما يمسك بجرحٍ ما ثم قال: "أشعر بألمٍ هنا بسَبَبِكِ".

مزَّقتُ الجيب الأحمر من الرداء، وحدَّقتُ في قطعة القماش التي كانت في حجم قلب طفل.

قلتُ: "هذا لكي تَذكُرني"، وطويتُ الجيبَ الصغير في راحة يده.

***

غادر راينر فيينا وهو في العاشرة، وكنتُ في الثانية عشرةكثيرًا ما كنتُ أرى أولادًا في الشارع يشبهونه، فأركض نحوهم بينما يخفق قلبي فرحًا، ثم سرعان ما تتوقَّف خطواتي عندما لا أرى الوجهَ الذي أتوقَّعه. دائمًا ما كنتُ أذكر وجهه ليلًا في اللحظة التي تسعى يدي للإمساك بِيَدٍ أخرى في أحلامي، لكنها في الواقع تصطدم بالحائط. ثم أحتضن الوسادة حين أتذكَّر كلماته وهو يقول إننا سنلتقي مجدَّدًا يومًا ما، فأتمنَّى أن أبقى نائِمَةً حتى ذلك اليوم الموعود.

صباحًا ذهَبَت شقيقاتي وأخي الأصغر إلى المدرسة، ومضى سيجموند إلى محاضراته في الجامعة. وبعدما ذهبت ماما لمساعدة أبي في المتجر، أخرجتُ رسمةَ وجه راينر من أسفل السجادة حيث أُخَبِّئها، سرحت بنظراتي في القصاصة الورقية، نظرتُ إلى شفتيه الممتلئتين، وشعره المهذَّب بعناية، والخط الجذاب بين حاجبيه، وعينيه اللتين تبكيان إلى الداخل.

لوَهلَةٍ فَكَّرتُ أنه ربما يكون جالسًا في اللحظة ذاتها بغرفته ينظر إلى الجيب الأحمر الذي أعطَيتُه إيَّاه ليتذكَّرني.

في بعض الأحيان كنت أجلس في رُكن الغرفة، أسند على الحائط وأغفو على صورة راينر على رُكبَتي. ذات مرَّة أيقظني صوتُ أُمِّي الحاد من أحلامي، إذ عادت مبكِّرًا من متجر أبي.

"ما هذا الوجه الغبي؟".

رأيتُها تنظر إلى الورقة باحتقار، اشتَعَلَت بداخلي رغبةٌ عارمة في أن أناولها الورقة وأرجوها أن تعيد راينر إليَّ، تَردَّدَت يداي، لكنْ يدا أمي كانتا بالفعل تُمزِّقان الورقة بقسوةِ مُجرمٍ تَعطَّش كثيرًا لقتل أحدهم، وها هو يرتكب الجريمة.

مزَّقَت وجه راينر إلى قِطَعٍ صغيرة، كما لا يكتفي القاتِلُ بالجريمة ويواصِل الطَّعن، ليس للتأكُّد من موت ضَحيَّتِه، بل لأنَّ الموت يبدو حينَها عذابًا صغيرًا، أو لأن جريمة القتل ذاتها لم تُشبِع لديه شهوةَ الانتقام والكراهية؛ لذا يُواصِلُ طَعنَ الجُثَّة.

جمَّعت أُمِّي القِطَعَ الممزَّقَة ثم فتحت النافذة وألقت بما كان قبل عِدَّة دقائق وجهَ راينر، ثم أغلَقَت النافذة وغادرت الغرفة.

أَحنيتُ رأسي على ركبتي واختلج صدري فأغرقت ركبتيَّ بالدُّموع وسَمِعتُ نشيجي. كانت تلك الورقة التي تحمل وجه راينر بالنسبة لي الشيءَ الوحيد الذي يثبت وجوده، علامةً ووعدًا بأن فراقنا ليس مُؤبَّدًا. شعرتُ أن ماما لم تُدمِّر الذِّكرى الوحيدة لي عنه، ولا الأمر الوحيد الذي يُذكِّرني بوجهه وحسب، بل مع الوقت ذابت تفاصيلُه: شعره وعيناه ووجهه، وأصبحَت ذكرى مُشوَّشة، في تلك اللحظة شعرتُ أنها تُدمِّر أيضًا الوعدَ بأن فراقنا لن يدوم.

***

عادت أُمِّي تُردِّد الكلمات المحفورة في ذاكرتي البعيدة والتي كدتُ أنساها: "ليتني لم أَلِدْكِ". في بعض الأوقات كانت تُردِّدها عليَّ في مرضي، وأنا على حافَّة الإغماءة. لكنها الآن تُردِّدُها بنوعٍ من الاستخفاف والازدراء حين أتفوَّه بسخافاتٍ تُلائِم سِنِّي.

اعتادت أيضًا أن تُردِّدها حين أرتكب أخطاءً مُتوقَّعَةً من فتاةٍ في سِنِّي، فتُرَدِّد: "ليتني لم أَلِدْكِ"، بدلًا من "صباح الخير" أو "ليلة سعيدة"

أو "كيف حالك"، أو "هل تحتاجين شيئًا؟". سمعت كلماتها حتى حين لا تنطق بها، انتقلتُ إلى دائرة مُغلَقَة من "ليتني لم ألدكِ"، تمنَّيتُ أن أكسر تلك الدائرة، وأن أمضي إلى المطبخ صباحًا كما اعتدتُ، فتعطيني أمي بطاطا ساخنة، وأجلس في ركن الغرفة أشاهد صنيعها.

تَوالى عديدٌ من الصباحات كهذه حين كنت أتمنَّى دخول المطبخ كما اعتدتُ، فأسألها كيف أكفِّر عن ذنبي، ربما تمنَّيتُ في داخلي أن تُحيِّيني أمي بطريقتها المعهودة فنعود إلى سابق قربنا.

مضيتُ إلى المطبخ لكن صَدَمَتني ملامِحُها الباردة، وجِدَّة كلماتها، وتجاوُزُها لي أثناءَ تَحَرُّكِها في الغرفة، فانحشر سؤالي في حلقي، ظلَّ هناك حتى تمنَّيتُ أن أتقيَّأه، أن أقذفه كما يتخلَّص المرءُ من الطعام الفاسد، لكنه بقي، كالطَّعام الفاسد، لازمني ورفض مُفارَقتي، فحملته معي في كل مكان، كعلامة على شعور عظيم بالذنب تجاه جُرمٍ مجهول.

حين أستلقي ليلًا في الفراش، وأتكوَّم بجوار الحائط، يرتجف جسدي كله خوفًا وحزنًا. كنت أسقط في النوم بينما أصارع من أجل الهواء، من أجل الشهيق والزفير.

أحيانًا كان يُوقِظني صوتُ اصطدام يدي بالحائط، وكنت أحلم بأنني أسقط، وأمدُّ يدي للإمساك بيَدِ أحدهم، وأتشبَّث بها كي لا أسقط. أصبَحَت حياتي هديَّةً لا أستحقُّها حتى في أحلامي، ومَن وَهَبَتني إيَّاها تُعاوِدُ تذكيري بذلك على الدَّوام. اعتدتُ الصَّمتَ تجاه لحظات الذُّلِّ هذه، وكنت أشعر بأمرٍ ما ينقر في صدري، غرس شعور الرفض هذا منقاره في اضطراب صدري، وهذا الطائر ذو المنقار كان يبكي بكاءَ الوليد الذي تُرِكَ وحدَه فشعر باختفاء العالم بأَسْرِه لأن أُمَّه لم تكن معه، وهكذا صرخ شيءٌ ما بداخلي.

لم أَبْكِ، لكنَّ وجهي اعتمره الأسى، وكأنَّ صخرةً ما عُلِّقَت حول رقبتي، وقد حُكم عليَّ أن أحملها عبر طفولتي وما بعدها. قابلتُ

هذه التعابير كلَّما نظرتُ في المرآة، كرهتُ حساسيَّتي المفرطة، أصابني الاضطراب وأردت أن أُهَدِّئَ منه، شعرت بالشفقة تجاه نفسي وكرهت أيضًا هذه الشفقة.

ذات مرَّة، حين سمعت "ليتني لم أَلِدْكِ" مُجدَّدًا، سعَت كراهيتي لنفسي لقتل حساسيتي المفرطة، فاختبأت تحت الفراش وقَبَضتُ على رقبتي وأحكمت حولها أصابعي حتى فقدتُ الوعي.

أحيانًا كنت أقترض ورقةً وقلمًا من أخي، أجلس في ركن الفراش، وأحاول أن أرسم عينين تنظران إلى خواءٍ مُريع، عينان تبكيان إلى الداخل. لكنَّ محاولاتي تبلغ وجهةً واحِدَةً: تتوقَّف حركة يدي حيث بَدَأت؛ فأسرح في تلك النقطة على الورقة، أو أقف وأنظر من خلال النافذة، أو أطعن راحةَ يدي اليسرى بسِنِّ القلم الرصاص.

***

بدأت صداقتي بسارة أورباخ بعد عِدَّة شهور من انتهاء دروس الرسم التي كانت تجري في فناء منزل عائلتها. قبل ذلك لم أكن أعرف عنها سوى ذلك الوجه الذي يتطلَّع عبر النافذة، لاحقًا قال أبوها لأخي إن دكتور إرنست ڤون بروك، الرَّسَّام غير المحترف وصديقه الشخصي، سيأتي إلى بيتهم ليُعطي دروسًا لابنته، وأنه يسعى لمشاركة طفلٍ آخر ليخلق بيئَةَ عَملٍ أكثر فعاليَّةً.

كانت سارة تكبرني بعام، تُثَبِّتُ دعاماتٍ معدنيَّةً على ساقها، ولها أختٌ أكبر بثلاث سنوات تُدعَى بيرتا. قالت لي سارة: "أحتاج الدُّعامات لأن ساقَيَّ لا تقويان على حملي"، كان على أحدٍ أن يرافقها أثناء سيرها، فاعتادت أن تَطلُبَ مني ذلك، وكذا مشينا جنبًا إلى جنب، قطعنا الغرفة الشاسعة ذات الجدران الحريرية، حتى أني تخيَّلتُ أننا نمشي في متنزَّه.

أخبَرَتني سارة أنَّ الدُّعامات تساعدها على السير بمفردها، لكنها قد تكسر عظامها إن تَعثَّرَت؛ لأنها مصابة بالأنيميا، لكنَّني خجلتُ أن أسألها ما هي الأنيميا. ذات مرَّةٍ أخبرتُها بينما نسير جنبًا إلى جنب أن شَعرَها جميلٌ للغاية، فقالت لي: "هذا لأني أُعاني من الأنيميا".

قلت لها إنني لا أعرف ما معنى ذلك، فقالت: "عندما تُعانين من الأنيميا تُباغِتُكِ لحظاتٌ تَفقدين فيها الشُّعور بأي شيء حولَكِ، يُصيبُكِ ضَعفٌ شديد، وتفقدين القدرة على الرؤية السليمة، وتفقدين الوعي، الأمر كله مُدهِشٌ وجميل، لا أعرف السبب، لكن في لحظات الضعف الشديد تلك، لا تعرفين من أنتِ"، ثم رَكَنَت إلى الصمت، وأزاحت خُصلَةَ شَعرٍ تَدلَّت على وجهها، وأضافت: "إن كان هذا هو الموت فأنا لا أخشاه".

وبدلًا من التَّحدُّث عن الموت تَكلَّمنا عن الحياة، حاوَلَت أن تشرح لي الدَّورَةَ الشهريَّة ومشاعِرَها قبل حدوثها، إذ تعاني من ارتفاع درجة الحرارة، وفي نفس الوقت ترتجف من البرد.

مكتبة
t.me/t_pdf

قالت لي: "هذه أول مراحل الأمومة".

"ومتى تُصبحين أمًّا؟".

"يأتي هذا لاحقًا، بعد المرحلة الأولى بسنواتٍ عديدة، هكذا أخبَرَتني أمي، ثم وَضَعَت يديها على بطنها قائِلَةً: "إنه حتمًا شعور رائع أن تكون هنا حياة أخرى".

قلتُ: "يبدو لي الأمر مُخيفًا".

"ربما... مُريعٌ وبسيط، كالدَّورة الشهرية.. أولى خطوات الأمومة"، ووَقَفَت في منتصف المسافة بصعوبة، ثم مَدَّت ساقها بصعوبة كأنها على وشك أن تخطو خطوةً، لكنها بدلًا من ذلك تركتها تَزحَفُ على الأرض ثم عاوَدَت الجلوسَ على المقعد. قالت: خطواتي دائمًا قصيرة"،

ثم نَهَضَت مُجدَّدًا وسَعَت ببضع خطواتٍ نحو عبور الغرفة. اتَّجهتُ نحوها لأمسك بها بينما تمشي لكنها أزاحت يدي بلطفٍ، قالت: "رفَضَت أمي أن تخبرني كيف تُصبِحُ المرأة أمًّا بالتحديد، قالت إن هذه هي الخطوة الأولى، وأن هناك العديد من الخطوات حتى الأمومة الكاملة، لكنني حين سألتها عن هذه الخطوات أَبَت أن تُخبِرَني".

فكَّرتُ في راينر وأخي وسألتُ سارة: "وما أوَّل خطوات الأُبوَّة؟".

أجابت: "لا أعرف".

بعد عِدَّة أشهر، بلَغتُ أولى خطواتي نحو الأمومة. ومنذ ذلك اليوم لازَمَتني ذكرى السائل الأحمر، ذلك الذي أشعرني أنني شُطِرتُ إلى نصفين، وذلك الثِّقَل المريع الذي نقلته لي أُمِّي حين أخبرتها، قالت لي: "من الآن فصاعدًا عليك أن تعرفي التزاماتِكِ، التَّعهُّدات الأساسية لأي امرأة: أن تدفعي دَيْنَ حياتِكِ بإنجاب حيواتٍ جديدة".

***

صباح يوم أحد أخبرنا دكتور أورباخ أنه علَّمنا كُلَّ ما يعرفه عن الرسم، ونَصَحَنا أن نُقدِّم في كلية الفنون التطبيقية، حيث يمكننا أن نُطوِّر مهاراتنا في الرسم ونبدأ بتعلُّم التلوين. كانت سارة حينها في الخامسة عشرة، وكنت أنا في الرابعة عشرة.

لم تُسجِّل حتى في الكلية، ولم أَجْتَزْ أنا اختبارات القبول، لكنَّنا واظَبنا على الرَّسمِ سَويًّا كلَّما التقينا. رَسَمتُ في البيت سِرًّا أيضًا، وأحيانًا كنتُ أبسط الرسومات في المطبخ عندما تذهب أمي إلى المتجر لمساعدة أبي.

ذات يومٍ عادت أمي مُبكِّرًا، وراحت تُحدِّق في الرسومات المنثورة على الطاولة والمقاعد والموقد وبجوار النافذة، نظَرَت لي أوَّلًا، ثم إلى الرسومات، وكأنَّها ضَبَطَتني بفعلٍ فاضح، لقد حَسِبَت أنَّني أَقلعتُ

عـن الرسـم حـين توقَّفـتُ عندمـا انتهـت دروس دكتـور أورباخ، وعندمـا لم أَجْتَـزْ اختبـارات كليـة الفنـون.

سـألتني بينـما أجمـع رسـوماتي عـلى مَهـلٍ واحـدة تلـو الأخـرى وكأني أُلَمِلِـمُ عـاري: "لمـاذا ترسـمين مـن الأسـاس؟ إن رسـوماتِكِ تافِهَـة"، نظـرتُ إلى الرسـومات التـي أُمسِـكُ بهـا بـين أصابعـي فأضافَـت: "أتعرفـين معنـى تافِهـة؟ حـين تفعلـين شـيئًا بـلا هـدف، حـين لا يَدفَعُـكِ مـا تفعلينـه إلى أمـر جديـد، إنـك تتعلَّمـين المـشي لتذهبـي إلى وجهـةٍ مـا، تتعلَّمـين الـكلامَ لتَتواصَـلي مـع أحدهـم، تَلِديـن طفـلًا لتواصـلي الحيـاة، لكـن أَنـتِ؟ لمـاذا ترسـمين؟ إنـه عَبَـثٌ، وإذا كنـتِ تأتـين أفعـالًا عَبثيَّة كالرَّسـم فلعلَّـكِ فَقَدتِ الشـعور بقيمـة الأمـور الضروريـة في حياتـك، فلـن تَصِلـي لأيِّ وجهـةٍ رغـم تَعلُّمِـكِ المـشي، ولـن تتواصـلي مـع أحـد رغـم تَعَلُّمِـكِ الـكلام، لـن تواصـلي الحيـاة رغـم قُدرَتِـكِ عـلى الإنجـاب"، ثـم غَطَّـت أقـرب الرسـومات إليهـا براحَـةِ يدهـا وقالـت: "توقَّفـي عـن الرسـم إنْ كُنـتِ تطمحـين إلى حيـاة ذات جـدوى".

توقَّفـتُ عـن الرسـم، توقَّفـتُ، ليـس بدافـع الخـروج مـن عَبثيَّـة وجـودي، توقَّفـتُ عنـه لأننـي كنـت أتذكَّـر كلام أمـي كُلَّـما أمسـكتُ بالقلـم الرصـاص فتتيبَّـس أصابعـي. وفي ذلـك المسـاء، عندمـا انتَهَـت مـن انتقاداتهـا لي ظلَّـت تَرمُقُنـي باحتقـارٍ، لملَمـتُ الرسـومات ووضعتُهـا في الفـرن ثـم أشـعلتُ النـار.

***

كلَّـما أَردتُ الذهـاب لأخـي في مكتبتـه التـي يمكـث فيهـا لسـاعات، أخبَرَتنـي أمـي أنهـا وأبي بحاجَـةٍ إليَّ في المتجـر، فأذهـب معهـا. لاحقًـا اكتشـفتُ وسـيلةً للهـرب، ففـور انشـغال أمـي مـع أحـد الزبائـن كنـت أهـرع إلى أبي وأرجـوه أن يصرفنـي لأقـرأ، فـكان يتركنـي.

كنتُ أترك المتجر بسرعَةٍ وأمضي إلى غرفة القراءة. كان أخي يقرأ الكتب من أجل دراسته في كلية الطب، في حين كنت أسعى لفهم بعض الكتب الفلسفية.

كُنَّا نتحدَّث أثناء استراحات القراءة، فيشرح لي ما أتعثَّر في فهمه ممَّا قرأه. وحين نعود إلى المنزل سويًّا تستقبلني أمي بالزَّجرِ وتُؤنِّبني على ما بذلته هي وأبي من مجهودٍ زائدٍ بسبب غيابي عن المتجر، أو تعاود حديثها عن مكان الفتيات الملائم: المطبخ. لكنني اكتسبتُ قَدرًا من القوة في غرفة القراءة والساعات التي أمضيتها في المحادثات مع أخي أثناء قراءته، وبالتدريج لم تَعُد تخترقني كلماتُها، بل تَمرُّ مرورَ الكرام، لم تَعُد تثقب صدري، ولم تَعُد نظراتها الباردَةُ تقتحم عيني.

شعرت أمي بذلك، ومع الوقت فقَدَت نَبرَةُ صَوتِها ثَباتَها المعتاد، لم يَعُدْ للسُّمِّ الذي ينتشر بيننا نفسُ المفعول، بل راح يتدفَّق صوبَها فحسب، وكان تأثيره عليها وحدها شديدًا للغاية، حتى أصابها الوَهَن. أَضْعَفَها وميضُ السَّعادة الذي يغطِّي وجهي، ولمحة البهجة التي تَرِنُّ في صوتي كُلَّما عُدتُ بصُحبَةِ أخي إلى المنزل.

حين كُنَّا نستريح من القراءة نمضي إلى ساحة المكتبة. أخبرني أخي الكثيرَ من الأشياء التي تَعذَّر عليَّ فَهمُها، لكنني على الرغم من ذلك أَصغَيتُ له، كنت أعلم مدى أهمِّيَّة وجود شخصٍ يستمع إليه، فأصدقاؤه وَهبوا جُلَّ وقتهم للطِّبِّ وحسب، بينما هو أراد المزيد، أراد أن يكشف من أسرار النفس البشرية ما هو أبعد من التشريح.

اقتنع سيجموند أن هذه الأسرار يمكن كَشفُها إذا استعان بالمنطق والحِسِّ السليم، قال إن العقل والمشاعر هما عناصر أساسيَّة فينا، وباشتراكهما -وحَسْبُ- يمكن للمرء أن يفهم ذاته.

أحيانًا كان يُعيد عليَّ قراءة كتبٍ سبق له قراءتُها، لقد أحبَّ سوفوكليس[1]، وشيكسبير، وجوته، وثيربانتس[2]، طلب مني ألَّا أقرأ لبلزاك وفلوبارت؛ لأن أعمالهما مَليئة بالموت، ونَهاني عن قراءة دستويفسكي الذي اكتشفه لتوِّه؛ لأن أعماله تغلب عليها الأفكار السوداوية. حاوَلَ مساعدتي على فهم هيجل وشوبنهاور، فأخبرته أنني أقرأ لأفلاطون الذي عرف عن أعماله بطريقة غير مباشرة عن طريق چون ستيوارت ميل[3].

أحيانًا كنت أتصفَّح الكتاب المقدَّس في المنزل، وأكثر ما أعجبني الجزء الذي تقول فيه الملكة شيبا للملك سليمان، إذ تقول له: "لَيتَكَ لي كأخٍ رضَعَ ثَدْيَ أُمِّي، فألقاكَ في خارجِ الدَّارِ وأُقَبِّلَكَ فلا أُحتَقَرُ. أقودُكَ وأدخُلُ بكَ إلى بَيتِ أمِّي. هُناكَ تُعَلِّمُني الحبَّ، فأسقيكَ أطيَبَ الخمرِ، مِنْ عصيرِ رُمَّاني".

لم أفتح هذا الكتاب إلَّا في غياب أخي، أقرأ فيه أجزاء صغيرة فحسب. قال لي إنه يَحفَلُ بالتُّرَّهات، وحينئذ انقطع الخيطُ الرفيع الذي يربطنا بأسلافنا المنسيِّين، كُنَّا أوَّلَ جيلٍ مُلحِد منذ أجيال عديدة تمتدُّ من أيام موسى حتى أيَّامنا هذه. كُنَّا أوَّلَ مَن عمل في السَّبت، وأكل لحم الخنزير، وامتنع عن الذهاب إلى المعبد، وعن ترديد صلاة قاديش في ذكرى موت والِدَيْنا، ولم نتعلَّم اللغة العبرية، بل قَدَّسنا اللغة الألمانية؛ اعتقد أخي أن الألمانية هي اللغة الوحيدة القادرة على التعبير عن أَوْجِ التفكير الإنساني.

ابتهجنا بالرُّوح الألمانية وفعلنا ما بوسعنا حتى نصبح جزءًا منها. عِشنا في ڤيينا عاصمة النمسا- المجريَّة، والتي كانت تُدعى

---

(1) روائي مسرحي يوناني 496- 405 ق.م.

(2) ميجيل دي ثيربانتس سابيدرا كاتب مسرحي وشاعر إسباني -1547 1616.

(3) فيلسوف واقتصادي بريطاني، وُلِد في لندن عام 1806.

بالامبراطورية المقدَّسة للأُمَّة الألمانية، وتَبنَّينا أعرافَ وعادات الطَّبقة المتوسِّطة في ڤيينا في تلك الحقبة بحماسٍ غريب أخفينا به خَجَلَنا من تقاليدنا.

اعتَقَدَ أخي أن شارلز دارون اكتشف منزلةَ الإنسان الحقيقية في مملكة الحيوان، واعتاد أن يؤكِّد أن فهمنا الحقيقي للجنس البشري يبدأ بدارون وحده. خلق طبيعي ظهر نتيجة تحوُّلِ كائناتٍ حَيَّةٍ إلى صور أخرى من الحياة، وليس خلقًا إلهيًّا من ترابٍ ونَفخَةٍ من الروح الإلهية.

اقتنع أيضًا أن بمقدور العقل حَلُّ لغز الوجود الإنساني، وأن نظرية دارون عن أصل الإنسان ما هي إلَّا بداية، يجب أن يتبع فَهمَ أصلِ الإنسان فَهمُ ماهيَّة الإنسان نفسه، وجوهره الذي يجعله ما هو عليه.

قال: "أريد أن أفهم النسيج الخَشِنَ الذي يشتبك عنده ما يُسمَّى بالقَدَر والصُّدفة"؛ لكي نرى كل طبقة في هذا النسيج، لكي نفهم مُكَوِّنات كل هذه الطبقات التي تُشكِّل الإنسان، علينا أن نخطو الخطوة الأولى؛ وهي أن نهجر الأوهام، وقد اعتَبَرَ الدين -بدوجمائِيَّته- أكبرَ الأوهام على الإطلاق. اقتنع أن العقل وحسب هو ما يمكنه تحطيم تلك الأوهام، وسعى إلى الذين يُرجِّحون كِفَّة العقل على الدين.

عندما لاحظ أنني لا أفهم ما يقوله كان يصنع إيماءةً اعتدنا القيام بها عندما نلتقي، لكنها كانت أيضًا إشارة لإنهاء الموضوع مَحلِّ المناقشة، كان يلمس جَبهَةَ رأسي بطرف إبهامه، ثم طرف أنفي ثم شفتيَّ، وبعد ذلك نشرع في الحديث عن أحلامنا، وكيف تَمَنَّينا الذهاب إلى البندقية، فقط نحن الاثنان.

بينما نصبو إلى التواجد معًا في تلك المدينة وَمَضَت في خيالنا كما يتلألأ القمر في مياه قنواتها. بَدَت البندقية في خيالنا، بمعمارها الذي يشبه الأشرطة، ذاك الذي رأيناه في الكتب التي وَصَفَت المدينة، أكثر واقعيَّةً وقُوَّةً من رأي العين.

كلَّما تَذكَّرتُ البندقية، ضغطتُ بمعصمي على قلبي طَرَبًا، وطَويتُ أصابعي بخفَّةٍ على شكل جندول يسبح في الهواء. تعرَّفنا على رَسَّاميها من خلال الكتب أيضًا: كارباتشيو وبيليني وچيورچيون ولوتو، وتيتيان وفيرونيس، وتينتوريتو وتيبولو. عَرَفنا أيضًا عن الرَّسَّامين الذين لم تطأ أقدامُهم المدينةَ التي حلمنا أنا وأخي بالعَيْشِ فيها، بحثنا في رسومات بريجول، ودورر الذي رَسَمَ لكتاب مركب المغفَّلين The Ship of Fools، حيث شاهدنا تصنيفاتٍ للإنسان العاقل الأول الذي اختفى قبل قرونٍ عديدة. تعرَّفنا عليه من خلال جُمجُمَتِه الضخمة وأذنيه الطويلتين الأشبه بأذني الحمار، أو قرون مُثلَّثَةٍ مشدودة في بعض الأحيان.

المهرِّجون الذين كانوا يُرَفِّهون عن الفراعنة، ويتفوَّهون بهُراءٍ لا يخلو من الحكمة، المخابيل الذين لم تَخْلُ منهم المحاكم الأوروبية بجوار الملوك والأمراء والنبلاء، هؤلاء المخابيل الذين كَثُرَ تَواجُدُهم في القرنين السادس عشر والسابع عشر في أنحاء أوروبا، حيث كانوا يجوبون المدن والقرى، ويحصلون على بعض العملات في احتفالات العطلات.

المخابيل، ذلك الشطر الواسع من الجنس البشري الذي هجر عقله -ربَّما عن قصدٍ حكيم- وقَررَّوا في عقلهم الباطن -ربَّما- أن يكونوا مُهَرِّجين لباقي الناس، فيسخروا من العالم بأَسْرِه، ويلحقوا بالذين تخلَّفوا عن رِكابِ العالم. ربما كان إدراكهم بأن العالم شُكِّل على نحوٍ خاطئٍ هو سبب نَبْذِهِم للعَقْل.

***

في مساء كُلِّ أربعاء تجتَمِعُ مجموعة من عشرة شباب في غُرفَةِ رَسْمِ بيرتا أورباخ، في الطابق الذي يعلو غرفة سارة، حيث نعرض رسوماتنا لبعضنا، ونحاول أن نقول شيئًا ذكيًا عن الحياة والموسيقى والأدب، كان الأمر أشبهَ بالمسابقة نتنافس فيها على أقوى انطباع.

لم تندمج سارة مع أصدقاء أختها. وحين كنتُ أزورها في أيام الأربعاء كُنَّا نبقى في غرفتها ونتحدَّث كما العادة، بينما تَصِلُ إلينا الضحكات العالية والمناقشات الحيَّة وأصوات البيانو والغناء الذي يصدح من الطابق الأعلى.

في إحدى تلك الأمسيات نزَلَت سارة إلينا ودعتنا إلى منتداها حتى نلتقي الرَّسَّامَ الذي سيرسم لوحات لأفراد العائلة. فور أن رأيتُه بدا لي وجهُه مألوفًا، وعندما بدأ يتحدَّث تَذكَّرتُه، لقد جاء مجلسي بجواره قبل أربعِ سنواتٍ أثناء تقدُّمي لاختبار القبول بكلية الفنون التطبيقية.

اسمه چوستاف كليمت[1]، وكان في الثامنة عشرة من عمره مثلي. تعرَّفتُ عليه من أنفه الأفطس، وابتسامته ذات النظرة الواثقة رغم اللِّحيَة التي كَسَت وجهه، وشعره الذي بدأ يخفُّ.

ذلك المساء كان يتحدَّث عن أمور مُخجِلَة لا تتحدَّث عنها البيوت أو مَن لا ينتمون إلى حُثالة المجتمع، فحتَّى أصدقاء بيرتا حاولوا تغيير مجرى الحديث بخِفَّة، أو يسألونه أين أنهى أولى أعماله التي عُهِدَ إليه بها. حكى لنا كيف رسم إحدى لوحاته على جدران أحد بيوت المتعة، ثم راح يتحدَّث عن باقي الأعمال التي قام بها غير الرسم، سألوه أي رسوماتٍ فرديَّةٍ قام بها في السنوات الأخيرة، فأخرج من لفافته رسوماتٍ لزوجات جزَّارين ومصرفيِّين وأطبَّاء وأساتذة، لم يجزل

(1) رسام نمساوي 1862 - 1918.

في الحديث عن الرسومات قدر ما تحدَّث عمَّا فعله مع مَن رَسَمَهنَّ، كان يتحدَّث فنحمرُّ نحن خجلًا.

في ذلك المساء أبلغت بيرتا أورباخ ذلك الشابَّ أنها ستلغي تكليفَه برسم لوحات لأفراد العائلة. جلست أختُه كلارا بجواره، وكانت من حين لآخر تُوبِّخه وتلكزه بمرفقها، لكنه برَّر لنفسه قائلًا إن سلوكه هو جزءٌ من الحرية التي اكتسبها كلُّ إنسان.

قالت له إن طريقة حديثه لم تُعبِّر عن كونه حرًّا، بل عن احتقاره للنساء وامتهانه وتسخيفه لهم. كان يصمت برهة منتظرًا أن يضيف أحدُهم قولًا، ثم يعاود استعراضَ فواحشه. وعندما بلَغَت بذاءة كليمت درجةً لا تُحتَمَلُ انصرَفَت صديقات بيرتا مُتَعلِّلاتٍ بضرورة الرحيل، وهَمَمنَ بمغادرة غرفة الرسم.

قاطعَت كلارا أخاها قائِلَةً: "أخي مُحِقٌّ، التعبير الجنسي هو طريقٌ للحرية، لكن فهمه لكليهما -الجنس والحرية- خاطِئٌ؛ فالجنس في الحقيقة حرية، حرية يخشاها المجتمع؛ لأن تحرير هذه القوة يمكن أن يُحطِّم التَّدرُّجات الهرمية والأنظمة التي تُدَعِّمها، وحتى المجتمع القائم حاليًا قد يسقط؛ لذلك فهو يحاول أن يُغلِّفَ الجنس بالكذب والنفاق".

قال شابٌّ يجلس أمام البيانو: "كُلُّنا نعلم ذلك، لكن لا أحدَ يعرف سبيلًا لتغييره دون الوقوع في اتجاه أسوأ".

قالت كلارا: "بدايةً، على الأُمَّهات أن يَكفُفْنَ عن نُصح بناتهن بالإذعان لأزواجِهنَّ. إن النصيحة التي تُسديها الأُمَّهاتُ لبناتهن يمكن تلخيصها في جملةٍ واحدة: أَطِعنَ أزواجَكُنَّ؛ فهكذا تطيعون الله؛ لأنه منحه لكم سَيِّدًا، وحتى لو أساء معامَلَتكنَّ وتسبَّب في مُعاناتِكُنَّ؛ فقط حاوِلْنِ إرضاءه، ولا تَشتَكين لأحد".

تـلا ذلـك مناقَشـةٌ حـول حقـوق المـرأة بـين كلارا وأصدقـاء بيرتـا الذيـن ينتمـون لطبقـة المثقَّفـين الفيناويـة، كان جـدالًا أكـثرَ منـه مناقشـة، قـال المثقفـون الصغـار إنـه بالرغـم مـن ذلـك يجـب عـلى جنـس الذكـور أن يُهَيمِـنَ عـلى العـالم، فأكَّـدَت كلارا قبـل مغادرتهـا الصالـونَ قائِلَـةً: "مـن الواضـح أن علينـا نحـن النسـاء الشـابات أن ننتـزع مـن هـذا العـالم وهـذه الحقبـة مـا يرفضـون إعطاءنـا إيـاه".

لم تُعـاوِدْ كلارا كليمـت الحضـورَ إلى صالـون بيرتـا أوربـاخ، لكـن حينهـا بـدأت صداقَتُنـا، صِرنـا نلتقيهـا أنـا وسـارة يوميًّـا، ومـع الوقـت عرفنـا أكـثرَ عـن حياتهـا. كانـت تتحـدَّث عـن أمـور قبيحـة وحلـوة، تحدَّثَـت عـن أبيهـا الـذي كان يرسـم مُنَمنَـماتٍ صغـيرةً عـلى البـلاط الـذي يُزيِّـن فيـما بعـدُ مطابِـخَ الأثريـاء، لم يكـن مدهشًـا في رسـمه فحسـب، بـل أيضًـا كان يحـكي لأبنائـه عـن الرسـومات التـي صنعتهـا يـداه، قصَّـة الديـك والدجاجـة، الطاحونـة والبقـرة، بائعـة الحليـب والنهـر.

أحيانًـا كان يَثمَـلُ ويـضرب أولاده وزوجتـه آنـا، التـي كانـت تكسـب لقمـة العيـش حينهـا مـن تنظيـف بيـوت الأثريـاء، وكانـت تربـط أبناءَهـا وبناتهـا في الكـراسي قبـل ذهابهـا إلى العمـل. كانـت تُعَنِّفُهـم بشـدَّة حـين يتعاركـون ويتشاكسـون، أو عندمـا يخرجـون مـن المنـزل دون إذنهـا.

تمكَّـن أخوتهـا مـن الهَـرَبِ مـن هـذا الرُّعـب، وذهبـوا إلى ورشـة أبيهـم لمسـاعدته في رسـم المنمنـمات. ولاحقًـا حـين يَثمَـلُ يهربـون إلى الشـارع لـكي يكونـوا بعيـدًا عـن متنـاول يـده حـين يبـدأ الـضرب. كان الوضـعُ أصعبَ عـلى شـقيقاتهم، لكنهـنَّ حَصَلـنَ عـلى الخَـلاص في النهايـة، مَضَـت هيرمايـن وچوانـا للعيـش مـع والِـدَيْ أُمِّهـما حتـى مماتِهـما، بينـما ذهبـت كلارا للعيـش مـع عَمَّتِهـا، التـي ترمَّلَـت لِتوِّهـا وعـادت مـن لنـدن حيـث عاشـت مـع زوجهـا.

لم تُنجِب، ووَهَبَت حياتها لابنة أخيها، علَّمَتها التَّحدُّثَ بالإنجليزيَّة والفرنسية، مَنَحَتها رواياتٍ شهيرةً فضلًا عن أعمال أولمب دي جوج[1] وماري وولستونكرافت[2]، وقد كانت عسيرةً بعضَ الشيَّء على حَداثَةِ سِنِّها، غير أنه كان السِّنَّ المناسب لتُحكِمَ رأيها بالصراع من أجل حقوق المرأة.

عاشتا مع بعضهما خمس سنوات، ثم ماتت عَمَّتُها، واضطرَّت كلارا ذات الستَّة عشر ربيعًا حينها أن تعود للعَيْش مع والِدَيْها، فأحرقت أُمُّها كُلَّ الملابس والكتب التي أحضرتها معها. حينها وَهَبَت كلارا نفسها لتغيير وعي النساء لكي يَنَلنَ حُقوقَهُنَّ.

كتَبَت منشوراتٍ ضِدَّ حصر تعليم النساء في تحضيرِهِنَّ لأدوارِهِنَّ كربَّاتِ بيوتٍ، بل أن يُعزِّز التعليمُ من استقلاليَّتهم، ولصَقَتها على حوائط المدرسة، وطالَبَت بحقِّ المرأة في طلب الطلاق، ونظَّمَت مجموعاتٍ تُطالِب بحقِّ المرأة في التصويت في الانتخابات، لكنَّ الأحزابَ السِّياسيَّة سَلَّمَتها للشرطة. أُودِعَت في السجن ليس بتهمة الإساءة للمجتمع وحَسبُ، بل للبشرية.

كنَّا نلتقيها أنا وسارة عندما يُطلَق سراحها، لم يكن حَبسُها يطول؛ لم تستغرق مُدَدُ حَبْسِها الأيام، لكنها دائمًا كانت تخرج بكَدَماتٍ. لم تشأ يومًا أن تحكي لنا عن قسوة المعاملة في السجن، ولا عن قسوة مُعامَلَةِ أُمِّها، عَلِمنا عن علاقتها بأمها لاحقًا، من أخيها چوستاف، لكن كلارا لم تُعلِّق على الأمر، بل حَكَت ضاحِكَةً عن الناس الذين يُلقونها بالحجارة إذ مرَّت أمامهم وهي تركب على درَّاجَةٍ، أو ترتدي بنطالًا؛ إذ عُدَّت هذه الأمور من الفضائح وَقتَها.

---

(1) كاتبة مسرحية فرنسية وناشطة سياسية -1748 1793.

(2) كاتبة وفيلسوفة بريطانية ومدافعة عن حقوق المرأة في القرن الثامن عشر.

وصفت كلارا بانزعاج الأطفال الذين هُجِروا في الشوارع بعد موت أهليهم، وماتوا من البرد أو الجوع. ووصفت كلارا بغضَبٍ الظُّلمَ الذي تُعانيه العديد من النساء في زيجاتِهنَّ، وراحت تُرَدِّد: "علينا نحن الشابَّات أن ننتزع عُنوَةً ما منعه عنَّا هذا العالَمُ وهذه الحقبة".

***

كثيرًا ما فكَّرتُ في الأوقات التي كُنَّا فيها صغارًا، وفكَّرتُ في الأوقات التي لم نَعُد فيها فتياتٍ صغيراتٍ. فكَّرتُ في شابَّات هذا العصر اللاتي تقول كلارا إن عليهنَّ أن يَتحَرَّرنَ في النهاية، أولئك النسوة الشابَّات اللاتي كانت تقول أُمِّي عنهنَّ إن مكانَهُنَّ هو المطبخ.

كُنَّا جيلَ الفتيات الأول الذي وُلِدَ بعد ظهور كلمة "جنسانيَّة" في المجتمع، كُنَّا فتياتٍ في عصرٍ كانت توصَف فيه العلاقة بين الذكر والأنثى باعتبارها فعلًا جسديًّا، وآخرون رأوا أنه فِعلٌ تَناسُليٌّ، ورَغبةٌ مُسبَقَة في الإنجاب. كان يُنظَر إلى هذا الاتحاد بين الجنسَيْن نظرةً مثاليَّة، لكن تَمَّ تحقيره من قِبَل البعض أيضًا، وأحيانًا يعتقد الشخصُ الواحد بالأمرين في نفس الوقت، فيُخيَّل للمرء أنَّ اتحاد جسدَيْن ينتج عنه ارتقاء الأرواح إلى مجالٍ آخر، لكنه يُعَدُّ أيضًا فعلًا حيوانيًّا يُدنِّس الروح.

ومن بعدها وإلى الأبد، حين تخَّطيتُ مرحلة الطفولة رُحتُ أستعيد ذكرياتي عن النساء الشابَّات اللاتي عرفتهنَّ في طفولتي، لم يظهر لي سوى الأقربين. تذكَّرتُ إيماءاتهم المتردِّدة، وأصواتهم المرتعشة، ذلك التضييق الذي أثار انفعالهم المكبوت.

عَلِمنا بتلك الأمور من صديقاتنا اللاتي لديهنَّ شقيقاتٌ أكبرُ أو بناتُ عَمٍّ أكبرُ سِنًّا أو من الكُتُب، وقد أثارت فينا هذه المعرفة الشبيهة بالنظر عبر حجابٍ سميك، مشاعر الخوف والعار إلى جانب

الترقُّب والتَّلهُّف. كان هذا الترقُّب مثاليًّا تمامًا كالعِفَّة، وحتى حين يولَدُ الحُبُّ سِرًّا كما اقتضت تقاليد هذه الحقبَة، كان إدراك هذا الشعور حتميًّا، كان على المرء أن يُصارِعَ في هذا الخوف والترقُّب، سواء تَمَّ هذا الاتحاد بين الرُّوحَيْن والجَسَدَيْن أو لم يَتِمَّ.

وكما في بعض الخُرافات الدينية عُدَّ هذا الترقُّب أحيانًا كفَّارةً يُجزى المرءُ بعدها بالحُبِّ الأبديِّ الذي يبقى حتى بعد الموت؛ لذلك اعتبر الحبيبُ محبوبَه كجسدٍ سماويٍّ، وبالتالي يكبُتُ بداخله المشاعرَ التي يحسبها حيوانية.

كتب أخي لاحقًا أن الطِّفل يَظَلُّ ابنَ زمانه حتى لو احتفظ بصفاته الشخصية، وأن مفهوم الشخص عن الحب ينتمي إلى الحقبة التي وُلِدَ فيها؛ لأن هذا الحب وُلِدَ بين شخصين من هذه الحقبة، وأثناء ذلك كان الحب رعشةً بين روحَيْن وجَسَدَيْن حَدَثَت في وقتٍ وُصِفت فيها العاطفة بأنها زَمجَرَةُ بُركانٍ من الشَّوق وهيجان إعصار. في وقتٍ كَثُرَ فيه ترديدُ كلمات مثل الروح والعاطفة والشوق، وعلى الأغلب بواسطة أناسٍ لم يسبق لأجسادهم وأرواحهم أن ارتعشت من العاطفة والشوق حتى اهترؤوا كالحذاء البالي.

في هذه الحقبة عاش الشباب، أو على الأقلِّ الذين عرفتهم، في تلهُّفٍ لمعرفة هذا الحب، وآمنوا أن بداية حياتهم مع شريكٍ آخر ستكون كالنَّعيم على الأرض، لكنهم لاحقًا استفاقوا على تفاهات الحياة اليومية التي كانت بانتظارهم؛ لأن اللهفة أقوى من الواقع، كما أن الحبَّ الأعظم من أولئك الذين يحصلون عليه يتهاوى ويُحتَقَر.

كانت هكذا هي حقبَتنا، حيث الصَّمت حيال الشهوة، الصَّمت تجاه كل ما يتعَلَّق بمصطلح "الجنسانية" المكتَشَفِ حديثًا. عمَّ هذا الصَّمتُ المدارسَ والكنائسَ والمعابد، في البيوت وغُرَفِ الرَّسم والميادين العامَّة. كانت الصحف صامِتَةً كما الكتب.

كانت الملابس الواسعة التي تخفي كُلَّ شيء من إصبع القدم حتى الذَّقن تسهم في إخفاء هذه الكلمة. ظلَّت النساء والشابَّات في جهل قَسريٍّ بجنسانيَّتِهم منذ ميلادهم وحتى زواجهم، وكُنَّ نادرًا ما يشعرن بهذه الأمور على نحوٍ غامض؛ إذ لم تغادر إحداهُنَّ بيتها إلَّا في صُحبَةِ أُمِّها أو قريبٍ بالغ، فخَفِيَت عنهم الأجزاء الحميميَّةُ في الجسد الذكوري وكُلُّ صور العلاقة الحميمة.

بعض الفتيات عرفن من أمَّهاتهن عن الأمر قبل زفافهن ببضع ساعات؛ فالعِفَّة ضرورةٌ للزوج، أمَّا اللاتي لا يتزوَّجنَ فَكُنَّ يتعرَّضن للازدراء، وتتحوَّل عُذريَّتُهنَّ (الشغل الشاغل للقَرن) إلى مصدر إحراج، وكأنها أمرٌ شاذٌّ؛ إذ لم يكن هناك مَن تُقدَّم له هذه العُذريَّة.

هكذا كانت الحقبة التي عشنا فيها، لكن كلارا وسارة وأنا عرفنا أكثر من أقراننا، كُنَّا أحيانًا نختلس النظر في أحد كُتُبِ والد سارة الطبِّيَّة، وأحيانًا أخرى كان يتناهى إلى سمعنا كلامٌ عابِرٌ في صالون بيرتا، أو تنقل لنا كلارا شيئًا ما عَلِمَته من چوستاڤ، أو من النساء اللاتي ساعَدَتهنَّ في مواجهة صِعاب الحياة.

عَلِمنا أيضًا أن الحقبة ذاتها تُخفي في طَيَّاتها عالَمًا يختلف عمَّا يتحدَّث فيه الناس علنًا، وأمكن ملاحظة ذلك خلال الحياة اليومية، فخلف صمت الجنسانية اختبأ الرياء والنفاق.

***

ذات مرة أراد أخي أن يرينا أنا وسارة وكلارا ما سمعنا عنه وحسب. لقد تخرَّج في الجامعة، وبدأ ممارسة العمل بالفعل في مستشفى ڤيينا العام. أحيانًا كنت أذهب لزيارته في العمل، وخلال إحدى هذه الزيارات اصطحبني أخي إلى وحدة سِرِّيَّة غير مُرخَّصة.

اصطحبني إلى وحدته وأخبرني أثناء ذلك عن اختيارات المرأة غير المتزوِّجة التي تحبل ويرفض الأبُ الزَّواجَ منها. كنت أعلم أن أغلب الأهالي يطردون بناتهم لشعورهم بالعار، وسرعان ما تنتهي حياتُهنَّ من الجوع والبرد والمرض حتى قبل أن يَلِدنَ.

عرفت أن بعض مَن نَجَيْنَ حتى الولادة أَودَعنَ أطفالهنَّ في الملجأ، وامتهَنَّ أشقَّ الأعمال فلم تَستمِرَّ حياتُهنَّ، وعرفت عن الذين قَهَرَهم الإحساسُ بالعار فانتحرن؛ حفاظًا على شرف العائلة، ومن دون أن يخبرن أقربَ الأقربين عن حَملهنَّ من الأساس. وعرفت نساءً سَعَيْنَ للحصول على مشروبٍ يقتل الجنين من شخصٍ عديم الخبرة، وأحيانًا تموت بعضهن من السُّمِّ.

قال لي سيجموند إن الأثرياء يستغلُّون نفوذهم وأموالهم لتمرير قانون مَنْعِ الإجهاض. خَصَّص بعضُ الجرَّاحين جزءًا من وقتهم لممارسة الإجهاض بالمخالفة للقانون، لكنَّه على الرغم منذ ذلك مُباحٌ لثُلَّةٍ من الناس؛ إذ أُجريَت عمليَّاتُ إجهاضٍ لبنات الأثرياء أو خليلاتِهم.

أثناء وقوفنا أنا وأخي أمام الوحدة السِّرِّيَّة قال لي إنه تَعلَّم كيفية إجراء العملية، وراح يَصِفُ لي أَدقَّ التفاصيل، تخيَّلتُ المعدن الذي يمسك بالجنين لينتزعه فأصابني الغثيان وتقيَّأتُ.

لاحقًا عندما خَيَّم الظلام ذهبنا إلى أفقر مناطق قيينا، مشينا في الأزِقَّة الضَّيِّقة شبه المعتمة، وحُشِرنا تقريبًا مع فتياتٍ يرتدين ملابسَ رَثَّةً، وقد أصاب وجوههم العَجَز المبكِّر، بينما يقترب رجال يرتدون أسمالًا باليةً من أولئك الفتيات اللاتي لم تزدهنَّ مساحيق التجميل إلَّا خُشونَةً، وتنبعث من أنفاسِهنَّ رائحة الكحول.

قامت بعض الفتيات بِلَمْسِ سيجموند عارِضين أسعارَهُنَّ، ثم رَكَضن وراءَنا مُساوِماتٍ على السعر، حتى هبط إلى ما تساوي قيمته

رغيفَ خُبزٍ، بينما أطلَّت بعض النسوة نصفَ عارياتٍ من نوافذ البيوت المتهالِكَة ينادين على الرجال الذين يسيرون في الشارع.

لاحقًا تركنا مهرجان المدينة هذا ودخلنا حيًّا أكثرَ رُقِيًّا. أشار لي سيجموند ناحية الفنادق الصغيرة في الشوارع الجانبية، وأخبرني أن رجال الطبقة المتوسِّطة يأتون هنا لزيارة بائعات الهوى، وفي الغرف الصغيرة المجاورة يأتي شبابُ الطبقة المتوسطة لزيارة حبيباتِهنَّ الفقيرات دون عِلمِ عائلاتهم التي ترفض اقترانهم.

قال لي سيجموند إن أبناء الطبقات الغَنيَّة إمَّا يذهبون إلى بيوت دعارة تُقام في قصور، أو يتَّخِذون من الممثِّلات وراقصات الباليه المغمورات خليلاتٍ.

قال أخي: "لا أظنُّ أن هناك فَرْقًا بين الطبقات الثلاث، فما يحدث في أقذر حُجرات البيوت الآيِلَةِ للسُّقوط هو نفسه ما يحدث في الفنادق والقصور، لا فرقَ... تختلف المظاهر وحسب، أمَّا دواخل مَن يفعلون ذلك فواحدة. الأغلبية تُنَفِّس عن شهواتها، أمَّا نحن فنتعفَّفُ حفاظًا على كرامتنا، فلا نُبَدِّد صِحَّتنا أو طاقتنا أو قُدرَتَنا على الاستمتاع، نحن نُحافِظ على أنفسنا من أجل شيء ما، رغم أننا لا نعرف ما هو، لكنَّ عِفَّتنا تُفسح المجال لمشاعِرَ أعمقَ؛ فتصفو أنفسنا، بدلًا من أن تُستَنزَفَ على نحوٍ ضَحلٍ في مُتَعٍ حيوانية".

كانت هذه الأمسية التي أمضيناها في ڤيينا تَهدُفُ إلى تعليمي درسًا: أراد أخي أن يُبَيِّن لي الحيوان الكامن في الإنسان الذي يرفض اتحادَ الرُّوحيِّ والجسديِّ، وأن يُثير نفوري منه كما يَنفُرُ منه هو أيضًا. في تلك الليلة أرَّقتني فكرةُ اتحاد سيجموند جسديًّا بنساءٍ أُخرَيات، أرعبتني وقَضَّت مضجعي، ارتدَّ قلبي حين تخيَّلتُ أن تغويه امرأةٌ تُشبِهُ مَن رأيناهنَّ في الأزِقَّة الضَّيِّقة، إلى ما هو حِسِّيٌّ بَحْتٌ، خالٍ من الروح، وبهذا تفرَّقنا عن أحلامنا المشتركة.

***

أحيانًا كنت أسأل نفسي هل كان الدافع لاقتراحي بأن يلتقي أخي بسارة هو ذُعري من فكرةِ بَحثِه عن المتعة الجسدية في أحد الأَزِقَّة الضَّيِّقة إن لم يعثر على الحب الحقيقي؟.

بدأ القُربُ بين أخي وسارة في أوَّلِ لقاءٍ جَمَعَهُما، من اللحظة التي اقترب فيها من غرفتها ومَدَّ يده برِفقٍ فنهَضَت ساعِيَةً للحفاظ على توازُنِها. كثيرًا ما عُدتُ إلى تلك اللحظة، تلك الحيرة في سلوكَيْهما، ذلك التحفُّظ القَسريُّ في نظراتهما المحفورة بالتَّرقُّب والفضول، وهذا الاضطراب المبهج.

وَمَضَ وجهُها الواهن بمزيجٍ من السعادة والاستحياء، وكذلك وجهه الذي جاهَدَ طويلًا للحفاظ على جدِّيَّة ملامحه التي زَيَّنَها بلِحْيَتِه منذ سِنِي دراسَتِه الأولى.

حفلت لقاءاتُهم التالية بنفس ملامح اللقاء الأول: البهجة والاضطراب ذاتَيْهما، ذلك التَّرقُّب والفضول والتَّحفُّظ والحيرة، كل هذا اختلط بكلامهما حتى إن لم ينطقوا به. ظلَلتُ بجواره دائمًا أُراقِبُ ما تُخفيه الكلمات، أشهد على ما لم يقولوه لبعضهم أبدًا.

أحيانًا كنتُ أرغب في دور المراقِبَة، كما أردتُ أن أعرف ما يدور في غياب كلٍّ منهما عن الآخر، في وحدة كُلٍّ منهما. تمنَّيتُ أن أرى ما تومِضُ به أحلامُهما، وأن أقرأ أفكارَهما، أردتُ أن أعرف ما سيقوله كلٌّ منهما للآخر إذا تهاوى ذلك التَّحَفُّظ والاضطراب والخَجَل، أردتُ أن أرى حركةَ جَسَدَيْهما حين تُهَيمِنُ الشَّهوةُ على كُلِّ مساحةٍ تَفصِلُ بينهما.

كان عالم كلٍّ منهما مختَلِفًا عن الآخر، لكنْ كلاهما أراد أن يسمع من الآخر عن هذه الاختلافات. أخبرها أخي عن عالمه الذي يمتدُّ من البيت إلى الجامعة والمكتبة وبيوت أصدقائه والمستشفيات التي اكتسبَ فيها -مع زُملائِه- مهارَةَ الطِّبِّ.

حَكَت له سارة عن عالمها الذي لا يتخطّى عتبة بابها، وعن الأشياء التي يُمكِنُها أن تراها على حدود عالَمِها، العالم الآخر الذي تراه من خلال نافذة غرفتها: الشوارع والمنازل على الجانب المقابل، الأشجار المصفوفة بجوار البيوت، والسَّماء التي تعلوهم.

كانت أجزاء من هذا العالم غير القابل للانفصال موجودةً أيضًا في كُتُبِها، وأحيانًا كانت سارة تسأله عن نفسه ودراسته، وأصدقائه، وعمَّا يرغب في القيام به في اليوم التالي وبعد عشرِ سنوات. قال لها إنه يريد أن يحلَّ لُغزَ الوجود البشري، أراد أن يعرف كيف وُلِد الحب والكراهية، ومن أين ظهرت الشهوة، وما الذي يوجِّه الأفكار.

وضعت سارة يدَها على ساقها، على ثوبها الذي يُخفي الدعامات المعدنيَّة، وقالت له: "ربما لسنا بحاجَةٍ لمعرفة هذه الأشياء". بعد أن تَعرَّفا على بعضهما على النحو الكافي لم أسأل أيًّا منهما أبدًا عن الآخر، أَنِستُ فقط تَشوُّقَهم ليوم الأربعاء التالي، حين يجتمع أقراننا في صالون بيرتا، لكن سيجموند وسارة كانا يُطيلان البقاء في غرفتها، وكنت أبقى معهما لأشهد على ما يُبقِياه سرًّا.

وحين يُشرِف صالون بيرتا على الانتهاء نمضي نحن الثلاثة إلى الطابق العلوي، نرحِّب بالضيوف، ونسمع تأنيب بيرتا المهذَّب بأننا لم نُشرِّفهم بحضورنا.

***

لم أَعُد أرى كلارا إلَّا نادرًا، فلم تَعُد تذهب إلى المستشفى أو تأتي إلى سارة. وعندما كانت تأتي لزيارتي تُعَنِّفها أُمِّي بأبغض الكلمات، فلم تشعر بالترحاب.

تطوَّعَت بالمساعدة في البيوت التي انتقلت فيها النساءُ المطرودات من قِبل أزواجِهنَّ، وفي ملاجئ الأيتام. كان أخوها يجني ما يكفي

للإنفاق على العائلة بأَسْرِها، ولم تَعُدْ بحاجة لبيع الورود في المقابر، والآن كرَّسَت حياتها لمساعدة المنبوذين ولتوعيتهم بالحقوق التي يتعيَّن عليهم الصراع عليها.

ذهَبَت إلى المصنع وحَرَّضَت العُمَّال على الإضراب، مُطالِبين بعدد ساعات عَمَلٍ أقلَّ، ورواتِبَ أعلى، لكن أصحاب المصانع دفعوا للناس أموالًا لكي يضربوها بقسوَةٍ، حتى إنَّها ظَلَّت لأيَّامٍ فاقِدَةً للوعي. ثم عادت إلى المصانع مُجَدَّدًا حين استفاقت، ونظَّمَت صفوف العمال، فتعرَّضَت للضرب مرَّةً أخرى.

ذهَبَت إلى المطاحن ومصانع الغزل والنسيج، وأقنَعَت العُمَّالَ بمشاركتها الصِّراعَ من أجل المساواة بين الرجل والمرأة، من أجل الحق في التصويت والحق في الممارسة السياسية، غير أن الشُّرطَة ألقت القبض عليها، وحُكِمَ عليها بالحبس الانفرادي حتى توسَّلَ إليهم شقيقُها أن يُفرِجوا عنها.

ظهرت صورَتُها في الصُّحُفِ مصحوبةً بكلمة "فوضويَّة".

كانت مُخالِفَةً للذَّوق العام؛ فكان شعرها قصيرًا بسيطًا عكس صيحة تسريحات الشعر الغَيداءِ التي اشتهرت بها هذه الحقبة، وبدلًا من الفساتين المربوطة ذات الأشرطة والطَّيَّات والورود الاصطناعية كانت أوَّلَ امرأةٍ ترتدي البنطال في ڤيينا؛ فأصبح مَرآها مألوفًا في الشارع وكانت تُرجَمُ بالحجارة وأشنع الصِّفات ويُبصَق عليها. كُلَّما حارَبَت من أجل تعزيز ثِقَةِ النساء بأنفسهنَّ كُلَّما قَلَّت ثِقَتُها في نفسها.

تركَت فيها كلُّ الضَّرباتِ علاماتٍ؛ ففَقَدَت نظرتها الثاقبة وصوتَها الواثق، اختلَجَت الكلمات في حَلقِها، ولم تستقرَّ نظراتها في موقعٍ مُحدَّدٍ، بل كانت تُفلِتُ من حيث تنظر. لم تَعُد مشيَتُها واثِقَةً، بل تحدَّب كتفاها، وانحنى رأسها، أصبحت تُشبِه عصفورًا يتكوَّم تحت المطر.

أحيانًا كنتُ أصطحب كلارا معي لزيارة أخي في المستشفى، وسألته كيف يمكن أن تُساعِدَ النساء اللاتي أُودِعْنَ غصبًا في المصحَّات. كان يكفي للمرأة أن تُصارِعَ من أجل حقِّها في اختيار زوجها حتى يُبلَّغ عنها بأنها مجنونة، بل وتُودَع خلف القضبان. كان يكفي أن تُطالِبَ بحقوقها في الإرْثِ بعد موت أهلها حتى يُلقي بها إخوتها في المصحَّة.

قالت له كلارا إن المصحذَات العقليَّة مَلأى بنساءٍ كاملات العَقل. لم يكن هناك ما هو أسهل من أن يَتَّهِمَ المرأةَ أبوها أو زوجُها أو أخوها بأنَّها تُمثِّل خطرًا على نفسها وعلى المجتمع؛ فينتهي بها المطاف في المصحَّة العقلية. سألَته كيف يمكن لهذا الوضع أن يتغيَّر، قال لها إن الوضع لن يتغيَّر.

واصَلَت التَّجوُّلَ بين المصحَّات، تدخل في نقاشاتٍ مع الأطبَّاء، أحدهم رَدَّ عليها بمقولة لنيتشه: "إن حدَّقتَ طويلًا بالهاوية فستجدها هي الأخرى تحدِّق بكَ".

كُنَّا نعرف أنا وسارة أين كانت كلارا من نظرات عينيها، امتلأت عيناها بالأمومة كلَّما عادت من المنشأة التي شارَكَت بنفسها في تمويلها، مُنظَّمة ترعى النساء اللاتي طَرَدَهنَّ أزواجُهنَّ، واللاتي رغم ذلك لم يمنحهنَّ القانونُ الحقَّ في حضانة أبنائِهنَّ، هذا في حال لم يَقُمْ الزَّوجُ بطرد أبنائه مَعهنَّ بالفعل.

قدَّمَت لَهُنَّ كلارا المساعدة، لكن لم تكُن الأمومة هي ما جذبها، فكلُّ امرأة يختلف شعورها بالأمومة عن الأخرى، كما تختلف حياةُ كُلِّ شخص عن الآخر مهما تشابَهَت بعضُ تفاصيلها.

ذات مرَّةٍ كُنَّا نجلس في بيت الفَراشات، الحديقة الزجاجية الكبيرة ذات النباتات الاستوائية التي نُصِبَت بجوار منزل أورباخ. حلَّقَت أعلاه سحابةٌ من الفَراشات فقالت لنا كلارا: "رأيتُ أمَّهاتٍ ضَحَّينَ بحياتِهنَّ من أجل أبنائِهنَّ، وأُمَّهات قَتَلن أبناءهن، والتقيتُ نساءً لا يشغلهنَّ

سوى الرغبة في الأمومة، ليس عن رغبةٍ حقيقية؛ بل لأنَّهن لا يملكن خيارًا آخر سوى الزَّواج والإنجاب".

قالت سارة: "لكنَّ أغلب الأمَّهات يرعين أبناءهنَّ".

فأجابتها كلارا: "هذا ليس خيارًا في أغلب الأحوال، فحتى أكثر النساء تفانيًا يتقاسَمنَ هذه الرعاية مع الأب، ولا يُعَدُّ هذا حُبًّا منقوصًا لأولادها، بل إنها تحتاج بعض الوقت لنفسها؛ ففكرة أنَّ الأمهات وحدهن مُطالَبات برعاية الأبناء أوجبها الأزواجُ، حتى يصادروا أوقات فراغ زوجاتهن".

"لا تَنْسَيْ أن البيوت التي تَهَبُ فيها الأمهات جُلَّ أوقاتهنَّ لتربية الأبناء لا يحظى فيها الأزواج أيضًا بوقت الفراغ، لأنهم يعملون من الصباح حتى الغَسَق ليرعَوْا أُسَرَهم؛ هذا هو التدبير الطبيعي منذ نشأة الإنسان: الرجال يكسبون أكثرَ لأنَّهم أكثرُ قُوَّةً، والأُمَّهات يَمكُثن في البيوت لرعاية الأبناء".

"اليوم يحتاج الاثنان -المرأة والرجل- إلى العمل، وهم بحاجة أيضًا لأن يتشاركوا بالتساوي في رعاية الأطفال، لكنَّ الأمور لا تسير هكذا؛ فالنساء هنَّ مَن يبقين في البيت لرعاية الأطفال".

"هذا جزءٌ من الطبيعة: الأم تحمل أبناءها قبل أن تَلِدَهُنَّ، إنهم يأكلون من جسدها قبل وبعد الولادة".

"تختلف الأمور من أُمٍّ لأخرى، فجميعهنَّ حَمَلنَ أطفالَهنَّ في أرحامِهنَّ، ومع ذلك تتعامل كُلُّ أُمٍّ مع أبنائها بطريقة مختلفة، بل وتختلف مُعامَلتُها من طفلٍ لآخر، مسألة رباط الرحم هذه تحتمل التأويل".

"كيف ذلك؟".

"يُمكِنكِ مُلاحظتها عن الحيوانات، أخبريني أيَّ حيوان تعتقدين أنه الأكثر شعورًا بالأمومة؟".

"حسنًا سَمِعتُ أن أغلب ذوات الحوافر إن لم يَلعَقْنَ وليدَهنَّ فور ولادَتِه لتمييزه باللعاب، والذي به تعلن تبعيَّته لها، ترفض الوليد الذي يُبدي تَعلُّقَه بالأم، ويتوسل إليها أن تُرضِعَه، لكنَّ الأُمَّ تلتفت عنه بقسوَةٍ، ستَحكُمُ عليه بالموت جوعًا، ربما هنا يَكمُنُ سِرُّ الارتباط بين الأم ووليدها، إنها تراه كجزءٍ منها، وحين لا تراه كذلك تحكم عليه بالموت؛ فحُبُّ الأم لطفلها هو حُبٌّ لجزء منها: ضَربٌ من حُبِّ الذات".

خُضتُ في النقاش قائِلَةً: "تضحية الأم حينئذٍ ليست بتضحيةٍ؛ لأن ما يَقُمنَ به يَصُبُّ في مصلحتهنَّ، من أجل أمرٍ اختَبَرنَه كجزءٍ لا يتجزَّأ منهنَّ؟".

قالت كلارا: "لا أعرف... فلكُلِّ مصيرٍ قِصَّة، وفي الوقت الحالي ليس هناك ما هو أهم من أن نكافح في سبيل المساواة بين الرجل والمرأة، إنهم يؤكِّدون لنا استحالة حدوث ذلك، وأن على الرجال البقاء في موقع التَّحكُّم، لكن كانت هناك حقبة حَكَمَت فيها النساء، لسنا بحاجةٍ إلى سُلطةٍ أموميَّة، بل نحتاج إلى المساواة".

ابتسَمَت سارة وسألَتها: "ولماذا لا نقيم نظامًا أموميًّا؟".

"لأنَّ العدالة لا تتحقَّق إلَّا في وجود مساواة، وحين يتولَّى شخصٌ ما السُّلطَةَ يُمارِس القمع في سبيل الحفاظ عليها، وفي حين أن المتسلِّط الآن هو الرَّجُل ففي وقتٍ مضى كانت المرأة هي المتسلِّطة؛ إذ أُلزِمَت الأُمَّهات بالتَّضحية بأبنائِهنَّ عندما حَكَمَت النساء، حتى الابن البكر كان يُضحَّى به، كانوا يقتلعون رأسَ الوليد، ويغرقونه في المياه ويحرقونه، كانوا يُلقون به للكلاب أو الخنازير. ابتدَعَت الأُمَّهاتُ هذا

القانونَ غير المكتوب، وعندما بدأ النظام الأبوي واظَبَ الآباءُ على هذا التقليد، عَشَّشَت الكراهيةُ في قلوب الحُكَّام تجاه من سَيتلونهم في الحكم. كانت قِصَّة الكتاب المقدَّس عن إبراهيم وإسحق هي أول قصة لأبٍ يُضحِّي بابنه، ولاحقًا أُبدِلَ طَقسُ قَتلِ الابنِ البِكر بأُضحيَةٍ رمزية، بالختان، ثم تغيَّرَت أيضًا قصَّة إبراهيم وإسحق".

"إذا كان قَتلُ الطفل البِكرِ قانونًا غير مُدَوَّن فحتمًا شعر بعض الوالدين بالإكراه على ذلك، مؤكَّدٌ أن بعض مَن أُجبِروا على قتل ولدانهم قد عانوا".

"بلا شَكٍّ"- قالت كلارا، "ولهذا قُلتُ إنه ما مِن مصيرٍ يَتشابَه مع الآخَر".

لم نسأل كلارا ما إذا كانت تَرغَبُ في أن تصير أمًّا. لقد تحدَّثتُ مع سارة عن الأمومة، وفي إحدى المرات قالت: "يخبرني الأَطبَّاء أن مرضي لن يحرمني منها"، ومَرَّرَت يدها على الدعامات المعدنية على ساقها. في حين كانت كلارا تتحدَّث دائمًا عن الأمومة بوصفها شيئًا يحدث للأُخرَيات، وكأمرٍ يمكنها -بل ويجب عليها- أن تُدَعِّمَه إذا تعرَّضَت الأُمُّ إلى ضيقة، لكنها لم تقترح يومًا أن تصبح هي نفسها أمًّا.

لكن عندما رَوَت لنا كيف نادى عليها أحدُ أَطفالِ مَلجأ الأيتام، الذي تتطوَّع فيه من حينٍ لآخر، باسمِ "ماما" لمست في صَوتِها تأثُّرًا ما، لمحة مُبهَمَة من الرَّغبَة.

ذلك اليوم في بيتِ الفَراشات، حين تحدَّثنا أنا وسارة وكلارا عن الأمومة، أشارت سارة ناحيةَ فَراشَتَيْن مُتلاصِقَتَيْن تطيران في الهواء، "يُصوِّرون نسلهم المقبِل".

***

علم سيجموند حُبَّ سارة الشديد للشِّعر، وفي إحدى الزيارات أحضر لها ترجمةً منشورةً حديثًا لأشعار آدم ميتسكيڤتش[1]، وقبل أن تفتحه لامَسَت غُلافَه برِقَّةٍ، وقد رُسم عليه منظرٌ طبيعيٌّ في الخريف، ونَوَّهَت إلى أنها لم تذهب إلى المتنزَّه منذ فترة طويلة.

قال أخي: "فلنذهب إذًا إلى حديثة أوجارتين"، فأغلَقَت سارة الكتاب ووضعته على الفِراش.

أوصلتنا عربةُ آل أورباخ إلى المتنزَّه، أسند أخي سارة من ذراعِها اليمنى، بينما سندتها أنا من ذراعها اليُسرى. كان ربيعًا مُنعِشًا، سِرنا في مواقِعَ متشابكة تضجُّ بالألوان، عبر سيمفونية من الأصوات الطبيعية، وبحر من الروائح.

بعد بضعة خطواتٍ كانت سارة تطلب منا التَّوقُّفَ بُرهَةً، ليس لصعوبة المشي عليها؛ بل لأنها ترغب في مُشاهَدَةِ شيءٍ ما في الطريق، شيء لا نُلقي له بالًا في حياتنا اليومية المزدحمة: أُمٌّ وطِفلها يجلسان على أحد المقاعد ويلقيان بالفُتات للحمام، رسَّامٍ يقف بجوار الحامِل ويرسم شجرةَ بتولا، امرأةٍ شابَّةٍ تقود مُسِنَّةً ضريرةً وتحكي لها عن العالم الممتَدِّ حولهما، طفلين يحفران في التُّراب بيديهما بينما يقرأ والِدُهما الجريدةَ، غير مُنتَبِهٍ لبحثهما عن الديدان، شابٌّ يجلس على فرعٍ ضخم لشجرة بلُّوط كأنه كرسيٌّ، ويصفِّر برقَّةٍ، وبعض الفتية يلعبون الكرة.

قالت سارة: "يا لكل هذه السعادة في مكانٍ واحد!".

قال أخي: "لستُ واثقًا من أن جميعهم سُعداء في هذه اللحظة".

"ربما كانت السَّعادة كالخطيئة؛ في عين الرائي".

"السعادة ظاهِرة مُؤقَّتَة، إشباع لرغبات واحتياجات مكبوتة".

---

(1) آدم ميتسيكڤتش: شاعر بولندي وناشط سياسي 1798 - 1855.

"ما كنتُ لأُطلِقَ على ذلك سعادةً؛ إشباع الرغبات والاحتياجات إنْ هو إلا مُتعة".

سأل أخي: "إذن ما عساها تكون السعادة؟".

أجابته سارة: "لا أعرف، ربما لا تعريفَ لها، إنها إحدى الأمور التي تشعر بها وحسب".

تقدَّمنا ببطءٍ تِجاهَ أَوَّلِ حضانة أُنشِئَت في ڤيينا. جلسنا على مقعد بجوار السياج، وشاهدنا الأطفال يلعبون على الأراجيح، ثم خرَجَت امرأةٌ من فناء الحضانة ممسِكَةً بطفل. قالت سارة إذ تنظر إلى الأم وابنها: "هذه هي السعادة".

سأل أخي: "إنشاء أُسرَة؟".

أومأت سارة فقال أخي: "لا أعتقد أن الأُبوَّة أو الأمومة باعِثٌ على السعادة، بل جُزءٌ من التكاثُر، وهو جزء من عملية التطوُّر والانتخاب الطبيعي".

"وليست جُزءًا من حياتِكَ الشخصية؟ جزءًا من وجودِكَ؟".

"وجودي نفسه جزءٌ من عملية التطور والانتخاب الطبيعي، وحده الأقوى هو من ينجو في هذا العالم، هذا هو قانون الصراع من أجل البقاء، وحدهم الأقوى والأسرع هم من يتمكَّنون من النجاة".

قالت سارة: "وهو ما يعني أن هذا العالم خُلِقَ للأعنف"، ونهَضَت من المقعد وهي تشير إلينا بأنها تريد أن تمشي دون مساعدةٍ، وبلغت سياجَ الحضانة ممسِكَةً بالقضبان.

قال أخي: "ليس هذا سوى انطباعٍ خُرافيٍّ، لكن هذا البقاء هو جُزءٌ من التطور العظيم، ارتقاء الفصيلة الحيوانية والإنسان كذلك، يمكن للأجيال الجديدة أن تصبح أقوى وأسرع وأكثر قدرةً على التكيُّف

مـن أهليهـم، وهـم ينقلـون هـذه الصفـات إلى سُـلالَتِهم، الذيـن يصبحـون حينهـا أكـثر تطـوُّرًا.

تتحـوَّل تلـك الصفـات المتطـوِّرة إلى أمـرٍ مفصـليٍّ في جنـسٍ حيـوانيٍّ مُعـيَّن، وتُحـدِّد أيَّ جنـس سـيبقى وأيَّ جنـس سـيندثر وفقًـا لهـذه الصفات. الضُّعفـاء سـيندثرون، هـذا هـو قانـون العـالم. نحـن البـشر نشـأنا كجـزءٍ مـن عمليـة الانتخـاب الطبيعـي، تطوَّرنـا مـن أَحَـطِّ أشـكال الحيـاة، وهكذا أرى الأُبـوَّةَ أو الأمومـة: جـزءٌ مـن عمليـة التطـوُّر العظيـم".

"أنـا أراهـا عـلى نحـوٍ مُختَلِـف تمامًـا" قالـت سـارة، ثـم التفتـت ناحيـةَ الأطفـال الذيـن يلعبـون في فِنـاء الحضانـة، "أن تحمـل حيـاةً أخـرى قُـربَ قلبِـكَ لشـهور، ثـم تُحـضر هـذه الحيـاة إلى العـالم، وتشـاهد كيـف تصـل هـذه الحيـاة الجديـدة مذهولـةً ومصدومـة مـن إبعادهـا عـن الرَّحِـم، لتختـبر عالـمًا مجهـولًا، فهـي لا تعـرف شـيئًا عـن هـذا العـالم وعـمَّا يعرفه، إنهـا فقـط تشـعر، فبالنسـبة لي الأمومـة هـي أن أرى وأشـعر كـم تحتـاج إليَّ هـذه الحيـاةُ الجديـدة، وكيـف تسـتوعب عيناهـا التجـاربَ الجديـدة، وأن أرى أوَّلَ أمـل وأول حـسرة لهـذه الحيـاة الجديـدة، وأن أرى كيـف تسـتقلُّ عنـي، كيـف تُفارِقنـي هـذه الحيـاة التـي انبثقـت مـن حيـاتي لتخلـق لنفسـها حيـاةً جديـدة".

انفصـل أحـد الطِّفلَـيْن عـن الآخـر وراح يمـشي بمحـاذاة السـور، ثـم انحنـى وانتـزع زهـرة هِندِبـاءَ وأعطاهـا لسـارة مـن خـلال القضبـان. قبـل موتهـا عـثَرَت سـارة عـلى عـلى تلـك الزهـرة مضغوطـةً بـين صفحـات كتـابٍ أهداهـا إيَّـاه سـيجموند.

لكـن ذلـك اليـومَ في المتنـزه، أمسَـكَت الزَّهـرةَ بِيَـدٍ، ومـدَّت يدهـا الأخـرى لتُداعِـبَ الطفـل، لكنهـا تعـثَّرَت قبـل أن تَصِـلَ يدهـا إلى رأسـه وعـاوَدَت الإمسـاكَ بالسُّـور.

***

تعرَّف أخي على مارتا بيرنايز في عيد ميلاده السادس والعشرين. في الشهر التالي انتقل للعيش في غرفةٍ صغيرة بمستشفى ڤيينا العام التي تَوظَّف بها بالفعل. وبعد ذلك بشهر أتمَّت مارتا واحدًا وعشرين عامًا، وخَطَبَها سيجموند.

ذات ظهيرة في نهاية ذلك الصيف سألَتني سارة: "لماذا كفَّ سيجموند عن الزيارة؟".

حتى إذٍ لم أَكُن ذَكَرتُ مارتا بيرنايز أمام سارة، وعندما شَرحتُ لها سببَ تَوقُّف سيجموند عن الزيارة نظَرَت لأصابعها، ثم دَفَسَت يدها تحت الوسادة على فِراشها، وجذَبَت الكتاب الذي أعطاها إيَّاه أخي قبل عدَّة شهور، كان من عاداتها أن تنام فوق كتابها المفضَّل.

انحنت سارة للأسفل، وعلى الرغم من كونها جالِسَةً فقد ظننتُ أنها ستسقط أرضًا، لكنها جذَبَت حَشيةَ ثوبها، ورفعته أعلى كاحِلَيْها، وفوق رُكبَتَيْها وفَخِذَيها، بَدَت ساقاها الرفيعتان المغَلَّفتان في دعاماتٍ معدنيَّةٍ كجذوع نبتةٍ نَمَت في ظِلٍّ مَيِّت.

شَرَعَت سارة تفكُّ الدعامات عن ساقَيْها، فتحتها عند كاحليها، وفَخِذَيها ورُكبَتَيْها وما أعلاهما، ثم وضَعَت الدعامات أرضًا. أرخت راحتي يَديْها على الفراش، ونهضت ببطءٍ مُحاوِلَةً الوقوف وقَطْعَ خُطوَة، لكن لم تكن ساقاها على القدر الكافي من القُوَّة، فجلست في عجز، وسقطت على الفراش. عاوَدَت المحاوَلَةَ فعاد جَسدُها مرَّةً أخرى إلى الفِراش وكأنه ينهار، حاوَلَت مُجدَّدًا، فارتعشت شفتاها، والتوى وجهها، واغرورقت عيناها بالدموع، نهضت مُجدَّدًا ثم سقَطَت مرَّةً أخرى على الفراش.

وحين عجزت عن القيام بالأمر مَرَّةً أخرى عَضَّت شَفَتَها وشرَعَت في البكاء، وضربت ساقيها العاجِزَتَيْن بقبضَتَيْها. انحنيتُ بجوارها لأمسك

يديها، فأرخت وجهها على كتفي، سمعتُ نشيجها وتَنفُّسَها المتقطِّعَ، وأيقنتُ أن دموعها بسبب عجزها الجسدي أشعلها ألمٌ من نوع آخر.

ثم هدَأت، وأمسكت بالكتاب الذي وضعَته على الفراش لتَدفِسَه أسفل الوسادة.

***

ظلَّت غرفة أخي فارِغَةً بعد انتقاله. أحيانًا كنتُ أدخلها وأرى الرفوف الخالية التي كانت مُمتَلِئَةً حتى وقتٍ قريب بكُتُبِه ومناماته. كلَّما رأتني أمي في غرفته أو أنظر إلى فراشه قالت لي إنه سيكون محظوظًا لو عثر له ولمارتا على غُرفَةٍ كهذه في مُستَهلِّ حياتهما معًا.

اختفى شطرٌ من عالمي بظهور مارتا بيرنايز. تلاشى قُربي من أخي، تبخَّرَت أحلامنا المشتركة قبل أن تتحقَّق، تبخَّرَت البندقية، واختفت فكرة تَجمُّعِنا معًا. عندما استرجعتُ طريقةَ ترحيبه بي قبل ظهور مارتا بيرنايز، حين كان يحرِّك طرف سَبَّابته على جبهة رأسي، ثم يزلِقها على طرف أنفي فتستقرُّ على شفتي، قلَّدتُ طريقة ترحيبه هذه فرفَعتُ سبَّابتي للسماء، وجَرَيتُ بها على جبهة رأسي، ثم على طرف أنفي هبوطًا إلى شفتيَّ.

***

أصبَحَت سارة تمضي وقتًا أطول في بيت الفراشات، حتى فِراشها نُقِلَ إليه، وكانت تستغرق أغلب اليوم في قيلولةٍ بالبيت الزجاجي. أحيانًا كنتُ أرى الفَراشات تُغطِّيها أثناء نومها، وحين تستيقظ وتُحرِّك جسدها على مهلٍ يُحلِّقون بعيدًا عنها كسحابة.

صارت تُكثِرُ من الحديث عن الفراشات، عن تَحَوُّلِها من بيضةٍ إلى يَرَقَة، إلى حشرة، ثم أخيرًا إلى فَراشة، تحدَّثَت عن بياتهم الشتوي،

وعن هجرتهم إذ يجتازون آلاف الأميال، عن وسائل التمويه التي أعانتهم على تفادي الخطر.

ذات مرَّةٍ أَلفَيتُها نائِمَةً بجوار شجرة في البيت الزجاجي، وحين استيقظَت شعرَت بحكَّةٍ في رأسها، لقد امتلأ شَعرُها باليَرَقات، زحَفَت على الشجرة التي كانت تميل عليها فأخذتُ أنزعها من شعرها. تمكَّنتُ من إزالة بعضها والبعض الآخر انسلَّ من بين أصابعي، وأفرز سائلًا لزجًا التصق بأصابعي وبشَعْر سارة.

امتلأت يَدُ سارة باليرقات التي تمكَّنَت من تخليصها وقالت: "ذات يوم ستتحوَّل إلى فراشات، ذات يوم ستتوقَّف عن الزَّحف، وستطير"، وأطبَقَت عليهم يدَها الأخرى وكأنها تحميهم من شيء ما.

قالت سارة: "توقَّفَت كلارا عن زيارتي منذ فترة طويلة".

"لم تَعُد تُغادِرُ منزلها، زُرتُها بالأمس وبالكاد تحدَّثَت".

"لقد أَحَبَّت التَّحدُّثَ، لكنَّها لم تتكلَّم أبدًا عن نفسها، ولا عن مُعامَلَةِ أُمِّها السَّيِّئة لها وهي بَعدُ طفلة، ولا عَمَّا تَعرَّضَت له في السجون من إهانةٍ، أشعر أن قُوَّتها ستنهار".

"كانت قويَّةً للغاية، والآن أصبحت مَهيضةَ الجناح".

توسَّلَت سارة إليَّ قائلة: "عِديني... عِديني أنَّكِ لن تَنسَي كلارا، وأن تساعديها إذا كان بوسعِكِ".

وَعَدتُها، وقامت بوضع اليرقات على حِجرها.

كانت سارة كثيرةَ المرض، لكنَّنا كُنَّا نتعامل مع ذلك كعادة يوميَّة، ونادرًا ما كُنَّا نرى للأمراض نهاية.

خلال الأسابيع الأخيرة في حياة سارة بَدَا اختفاؤها الوشيك عن العالم لا لَبْسَ فيه، لكنَّنا اعتقدنا جميعًا رغم ذلك أن المرض سيمرُّ، إلَّا هي، على الرغم من أنها لم تَقُلْ ذلك صراحَةً.

لقد حدست سارة بالموت، وشعرت بما انتابها من قلقٍ حيال مَن يهتمُّ المشرِفُ على الموت بأمرهم، لم أَعُد أذكر في أي شطرٍ من حديثها اكتشفتُ اهتمامها بي، وبما ينتظرني في حياتي المقبِلَة، لكنني أذكر أنها أتت على ذِكر كلارا خلال زياراتي الأخيرة لها، "أتوسَّل إليكِ ألَّا تنسَيْ كلارا وأن تساعديها ما استطعتِ".

بعد كُلِّ لقاءٍ يجمعني بسارة كنت أفكِّر في زيارة كلارا، لكنني بدلًا من ذلك كنت أعود إلى البيت.

كلَّما عاد سيجموند إلى بيتنا لم أذكر كلمة عن مرض سارة، حتى أتى اليوم الذي أصبح غيابها عن العالم حتميًّا، فأراد أخي أن يزورها معي، وحين اقترب من فِراشها حيث تستلقي ممسِكَةً بالكتاب إلى صدرها، بدا لي أني رأيت ما آنسْتُه في أول لقاء بينهما، وما رأيتُه في كُلِّ لقاءاتها التالية: ذلك التحفُّظ المصطَنَع، الانفعال المكبوت، ذلك الترقُّب.

كنتُ معها مُجدَّدًا، لم ينفردا ببعضهما قَطُّ، كنتُ الشَّاهِدَةَ الأبديَّة على كلماتهم المرتعشة وصَمتِهم الدؤوب. راقبتُ إيماءاتهم بدقَّة، كل تعبير على وجهيهما، كل ما حوى على المسكوت عنه. لكن الآن، عندما جلس أخي بجوار فراش سارة أخفضتُ نظراتي واكتفيت بالاستماع، فلم أسمع سوى الرنين الواهن لصوتَيْهِما، ولم أفهم الكلمات التي خالَطَته، وحين نهض أخي من فِراش سارة التفتُّ إليهم مرَّةً أخرى، فكَّت سارة قبضتها عن الكتاب ورفعته لتُعطيه لأخي.

"لقد أعطَيتَني هذا الكتاب يومَ كُنَّا نمشي في المتنزَّه، لم نَلتقِ مُذ ذاك، ونسيتُ أن أعطيه لأدولفينا كي تعيدَه إليكَ".

تردَّد أخي: أيَأخُذُ الكتابَ أم لا؟ لقد أعطاها هذا الكتاب لأشعار ميتسكيفتش، والآن تعيده له وكأنه بالكاد أعارها إيَّاه.

وقف يُحدِّق في الكتاب باديًا على جَسَدِه المتيبِّس وصوته أثَرُ ما فكَّر فيه، وسأل سؤالًا عاديًّا لا لزومَ له على الإطلاق: "هل أعجَبَتكِ قصيدةٌ بعينها؟".

"تلك التي تتحدَّث عن شابَّةٍ ظلَّت ترى حبيبها بروحها وتتحدَّث معه رغم مرور سنواتٍ على موته".

أخذ أخي الكتاب، فسقَطَت من صفحاته زهرة الهِندِباء الجافَّة التي أعطاها إيَّاها طفلٌ في الحديقة من بين قضبان السياج، وقد دَسَّتها بين صفحات الكتاب، ثم سقَطَت الزَّهرَةُ على صدرها.

لم نَلتَقِ أنا وسارة مرَّةً أخرى. بعد ذلك كلَّما فَكَّرتُ فيها تذكَّرتُ زهرةَ الهِندِباء تلك، ويديها إذ تُمسِكُ بها لأوَّلِ مَرَّةٍ في المتنزَّه من يد الطفل الذي ناوَلَها إيَّاها من بين قضبان السياج، يديها التي ترفع الهندباء عن صدرها بعدما سقَطَت من بين أشعار الكتاب.

***

بعد موت سارة زُرتُ كلارا عدَّةَ مرَّاتٍ في بيتها، لكن استقبلتني أُمُّها بعدائِيَّة. كانت كلارا حاضِرَةً غائبة، كنتُ أُكلِّمها وأنا أعلم أنَّها لا تسمع ما أقوله، انجرَفَت نظراتُها إلى وجهةٍ بعيدة، أبعدَ ممَّا تنظر إليه، وحتى حين لمستُ يدَها وسألتُها: "هل تسمعينني يا كلارا؟"، ظلَّت غائِبَةً، فقط حين ذَكَرتُ سارة ابتسَمَت ابتسامةَ مَن تصالحوا مع الدمار الذي آلت إليه حياتُهم.

عندما رأيتُ كيف غابت في هذا الخواءِ تَذكَّرتُ كلام سارة: "أتوسَّل إليكِ ألَّا تَنْسَيْ كلارا، وأن تساعديها كُلَّما أمكَنَكِ"؛ لذا تحدَّثتُ لكلارا عن سارة وأخبرتها عن بيت الفراشات التي طافت فوق جسدها، وعن الشِّعر الذي قرأته سارة، أخبرتُها عن أمورٍ كثيرة حدثت في وقتٍ

ما. حكيتُها لها وكأنها تحدث الآن، لكنني لم أُخبِرها أن ما تحدَّثتُ به ينتمي إلى الماضي وذاكِرَته وحَسبُ.

***

بعدما رحل أخي عن البيت تمامًا وأصبح يقضي جُلَّ وقته مع المرضى ومع مارتا بيرنايز، وبعدما صرتُ ألتقي سارة في ذكرياتي وحسب، وبعد أن غرقت كلارا في غيابها، سيطر عليَّ شعورٌ بالهَجرِ، بأن أحدًا لا يطمع في وجودي بعد الآن، وأصابني هذا الشعور بالضَّعْف.

اعتادت أُمِّي أن تقول لي: "انظري إلى إخوتك، على الأقل حاوِلي أن تكوني مثلهم بعض الشيء»، وإن لم يَكُن كذلك فلتقلِّديهم قليلًا".

تطلَّعتُ إلى أخواتي، ذهب أربعتهنَّ للاعتناء بأطفال أُسَرٍ ألمانية تعيش في باريس، دون أن يخبروني أنهم كانوا يُخطِّطون لذلك. عُدن في ذلك الخريف، وعلى مدار موسم واحد فقط أصبحن شابَّاتٍ راقياتِ السلوك، يستخدمن عباراتٍ فرنسيَّةً في حديثهنَّ المغناج، دون أن تَنُمَّ ملامِحُهنَّ عن أي حيرةٍ أو ذُلٍّ، بل عن بساطةٍ خالِيَةِ الذِّهن ومُفعَمَةٍ ببهجَةِ الحياة، أَذْهَلْنَني، تلك الإيماءات والأحاديث، كنت أجلس دائمًا بالقُرب منهنَّ، لكن ليس مَعهُنَّ، شاهدتهن واستمعتُ إليهنَّ، وشعرت بالسعادة لَهنَّ.

لكن بجانب هذه السعادة شعرتُ بأمرٍ مختلف: ببُعدي عنهنَّ، كما كنت يومًا ما قريبةً من أُمِّي. اعتادت أمي أن تجمعهن دون أن تَشمَلَني، ثم يجلسن لوقتٍ طويل في المطبخ، وفي تلك الأوقات كنت أقطع بضع خطواتٍ في الطُّرقة ثم أعود إلى غرفتي، وحين أَصِلُ لبابها حيث أنفصل عنهم كان يصل إلى سمعي بعضٌ من حديثهن، من ذلك النوع الذي عادَةً ما تتحدَّث فيه أُمٌّ مع بناتها: ما يَتعيَّن على

الفتاة القيام به حتى تكون صالحةً، وكيف تتأهَّل للزواج، وواجبات الزوجة تجاه زوجها وأبنائها.

بقيتُ خارجَ نطاق عالَمهم وأحاديثهم التي تَكلَّمن فيها عن كَونِهنَّ زوجاتٍ وأُمَّهاتٍ. تناهى إلى سمعي رؤيتهن للمستقبل بينما أنظر أنا إلى الماضي، وبدا لي أنَّهنَّ باستعدادهن للزواج والإنجاب، يَغزين الزَّمنَ، ويَربطن أنفسهم بخطٍّ طويل من الأُمَّهات يعود إلى السَّلَف الأول، لكنني شعرت بأنني بعيدة عن ذلك الخطِّ الذي يتضاعَفُ فيه الدَّمُ ويندمج.

شعرَت أُمِّي بضعفي، وغَمَسَت فيه كراهيتها، كراهيةً غير مفهومة، ولا يعرف منبعها، تمامًا كما قالت سارة عن السعادة: غير قابِلَةٍ للتعريف، إنها تُحَسُّ وحسب. وربما كالخطيئة والسعادة، فالكراهية أيضًا في عين الرائي، وفي من تُوجَّه إليه، وما سوى ذلك أفعال، أفعال عادية، لكنها بالرغم من ذلك تَبثُّ سُمَّها في حيوات مَن يعانون منها.

أحيانًا كنت أحاول استيعاب كراهية أمي لي، كنتُ ربما كالبئر الذي تُلقي فيها جوانبها المظلمة. حسبتُ أنها تكره فيَّ أبي، زوجها الطاعن، الذي كان أكبر سنًّا من جَدِّها، ربما تخلَّصَت عبر كراهيتها لي من تَوْقِها لزوجٍ يَقرُبُها في السِّنِّ قبل أن تضطرم بداخلها هذه اللهفة.

إنها لا تكرهني، بل تكره ذلك الألمَ البعيد الذي أجبرها مُبكِّرًا على قمع رغباتها كفتاة، وأن تطيع زوجها الكهل في صمت، أن تعيش في فَقرٍ وتندب وتربِّي أبناءها في ذلك الفقر، وربما كرهتني أيضًا بسبب تَعلُّقي بأخي؛ لعجزها عن كُرْهِ مَن تَسبَّب فعلًا في انفصال "سيجي" الذهبي المفضَّل لديها عَنَّا، كان يبدأ حياةً جديدة، يبني عالَمًا جديدًا يكون فيه مجرَّدَ عابِرِ سبيل، لقد اختار أن يكون مجرَّدَ ضيفٍ على العالم.

مكتبة
t.me/t_pdf

لن تُفلِحَ أُمِّي إذا أبغَضَت مارتا بيرنايز؛ فالسُّمُّ الذي تسعى لِبَثِّه في حبيبة أخي لا يمكن أن يصل إليها، وسيظلُّ يجري داخل أمي وحسب؛ ولهذا انتقتني لتبثَّ فيَّ سُمَّها. هكذا بدا لي الأمر، وربما كنتُ مُخطِئَةً، لكنني كنت أحاول أن أُفسِّرَ لنفسي عبءَ وجودي.

في ومضة الوعي الأولى للطفل يبدأ شعورٌ ثقيلٌ بالوقت، هاجِسٌ غامض بأن الوجود ما هو إلَّا حبَّات رمل تُبدِّدُها الرياح، وأنَّ وحده الشعور بالنفس، بالذات، هو ما يحافظ على تماسُكِنا ظاهريًّا، حتى تتفتَّت آخر حَبَّة رمل، آخر بقايا الحياة، وحينها تنطفئ الذَّات، الأنا، فلا يبقى خلفنا سوى رياح الزمن.

أحيانًا تهبُّ ريح عاتية فلا تُفتِّتُ حبَّاتِ الرِّمال فحسب، بل أيضًا أجزاء من ذواتنا، فتشعر الـ أنا بالعجز، وبأن الرياح ستقتلعها مع حبَّات الرمل، وبأنها ستخمد قبل أن تَتبدَّد حَبَّاتُ الرمل المقرونة بها طوال حياتها. ثم تسعى الذاتُ لذاتٍ أخرى، وذواتٍ أُخَر، لتصاحبها بينما تعوي رياح الزمن حولهم، إنها تحتاج لتلك الذَّوات ليس من أجل النجاة المادية، لكن لكي تُدعِّم وسائل النجاة الأهم لتلك الأنا.

كسَرَت أمي جزءًا منِّي بنظراتها وكلماتها وإيماءاتها، جزءًا أصبح ينقصني وأتوق إليه على الدوام، صِرتُ أشعر طيلة حياتي بأن أمرًا ما ينقصني، كما يفتقد تمثالُ ڤينوس دي ميلو لذراعَيْن. لم يَعِبْ مظهري الخارجي شيءٌ، لكنَّ شيئًا ما بداخلي، وكأنَّ ذراعي روحي تنقصان. وقد أصابني هذا النقصان، وهذا الفراغ بالعجز، فكُنتُ أشعر طوال حياتي بأن نظرات أحدهم تُدمِّر وجودي، وفي الوقت نفسه أَمَلتُ أن يشفي شَخصٌ ما جُرحَ هذه الأنا.

***

4

قال لي أخي ذات مرَّةٍ حين زُرتُه في مستشفى ڤيينا العام: "تعالي انظري مَن جاء إلى مدينتنا".

أحيانًا كنتُ أزوره أثناء ساعات العمل لأنه لم يكن يقضي أوقات فراغه إلَّا مع مارتا بيرنايز.

استلقى شابٌّ بلا حراك على أحد الأسِرَّة في الغرفة التي قادني إليها أخي، سُحِب من نهر الدانوب الذي ألقى نفسه فيه قبلَ يوم. فتح عينيه حين اقتربنا منه، وبالرغم من مرور السنوات إلا أنَّني تعرَّفتُ عليه، وعلى تلك العينين اللَّتين تبكيان للداخل، والدموع التي تنسكب إلى أعماقه، كانت تلك عينَيْ راينر ريختر.

لم أعرف عنه شيئًا خلال تلك السنوات، لكنه أخبرني في تلك الظهيرة عن سبب عودته، عندما مات والداه الواحد تلوَ الآخر، أُمُّه

أولًا، ثم أبوه، لم يكن قد وصل بعدُ للسؤال الذي يسأله المرءُ على عتبة النُّضج: "ماذا سيصبح يومًا ما؟".

فتح راينر الخطابات التي احتفظ بها أبوه، وعَلِم من أحدِها أنه مُتبَنًّى، فراح يبحث عن أهله الحقيقيين، وقاده هذا الدَّربُ مرَّةً أخرى إلى ڤيينا، حيث عاش أهله الذين تَبَنَّوْه. كانت رحلة البحث عن أسرته كالسَّير في رواقٍ رُسِم فيه ماضيه الميِّتُ على الحائط الأيسر، بينما حاول عبثًا أن يرسم على الحائط الأيمن حجابًا يخفي أولئك الذين انتبذوه عند ولادته.

وفي مكان بعيد عبر هذه المسافة، في نهاية الرواق، انبسط فراغُ مُستَقبَلِه، فحفَّز شعوره باللامبالاة والهجر. آلمه هَجرُ مَن ولدوه أكثرَ ممَّا آلمه موتُ مَن قاموا بتربيته، "لماذا تركوني؟"- كان هذا سؤاله الأسود، الذي تردَّد معه صدًى شيطانيٌّ: "هل كان ضروريًّا أن أولَد من الأساس؟".

رنَّ شعوره بالهجر رافضًا وجوده الحاضر، سعى للبحث عن أصوله على أمل أن يكشف المأساة الكبرى التي فَصَلَته عن والديه، حَزَرَ أنَّهم ماتوا غفلةً بعد ولادته، أو فقدوه في ظرفٍ مأساويٍّ ولم يتمكَّنوا من العثور عليه، لكن سَبَّبَت له هذه الفكرة الأخيرة (أنَّه تَمَّ هَجرُه كمولودٍ جديد لأنه كان حياةً جديدة غير مرغوب فيها) ألَمًا مُضنيًا، دفعه للقفز في نهر الدانوب. ليس عن فِكرٍ أو استعداد، بل عن يأس، لم يَنتَوِ أن يغرق نفسه في النهر، بل أن تسحبه المياه إلى عالم مختلِف.

وقفتُ بجوار فراشه في المستشفى، كان راينر ريختر في الثامنة عشرة من عمره، وكنتُ أكبرَ منه بعامَيْن. بعدما عاد من المستشفى إلى بيته في ڤيينا بشونلاترن جاس، اعتدتُ تَركَ البيت كلَّ صباحٍ مُتعلِّلَةً بالذهاب للقراءة في المكتبة، مُتجاهِلَةً توبيخ أمي لي بأن أقراني يَلزَمنَ بيوتَهنَّ طوال اليوم، ولا يخرجن إلَّا برفقة أمَّهاتِهنَّ، أو فرد أكبر من

العائلة؛ حتى لا تَفسَدَ سُمعَتُهنَّ أمام مُوفِّقي الزواج. كان راينر ينتظرني في بيته حتى يتمكَّن من النوم.

قال لي عندما صادَفتُه بعد ليلة أرَّقَته: "لا يمكنني النوم بمفردي".

شاهدته هو يسقط في النوم، وأردتُ أن اضطجع بجواره، لكنَّني ظَللتُ جالِسَةً في رُكن الغرفة، أمسك بكتابٍ على حِجري، أخبرته أني قرأتُ له أثناء نومه، وفي الحقيقة أمضيتُ ساعاتٍ أُحدِّق في وجهه، أحيانًا كان يَئِنُّ في نومه كالمريض، فكنتُ أقترب منه لأستبين ما يهمس به.

عندما يستيقظ كان ينطلق إلى مُحترفٍ لأحد الرَّسَّامين ليسأله ما إذا كان التقى بالرَّسَّام فريدريك ريختر وزوجته قبل نحو عشرين عامًا، لكن لم يسمع أحدٌ بهم من قبل؛ لذلك لم يكن يسأل السؤالَ اللاحق: "من أين تَبَنَّوا طفلَهم".

زار راينر أيضًا دكتور أورباخ، الذي عالَجه بلا أملٍ في إحدى مراحل طفولته، لكن فريدريك ريختر لم يخبرهم أن ابنه مُتبَنًّى.

كان ثمَّة شيء في راينر، في حركته التي تقطع الهواء، في ظلال نظراته، في صدى كلماته، يشبه تدفُّقَ الدِّماء. ذات مرَّةٍ تَذَكَّر مقولة لكيركيجارد: "مَن هو الشاعر؟ إنه شخص حزينٌ، يخفي في قلبه كربًا عظيمًا، لكنَّ شَفَتَيْه مُصوَّرتان على نحو جميل، حتى أن الأنين والبكاء يخرج من بينهما لحنًا موسيقيًّا"، ثم أضاف: "لكنني لا أملك حتى موهبة الشِّعر، لا أملك سوى الألم"، وعَضَّ شفتيه لأنه أراد أن يُسكت يأسه.

كتم هَمَّه، لكن ذات مرة، حين كُنَّا نمشي في شارعٍ مصفوفٍ بأشجار الكستناء البَرِّيِّ قال لي: "كل شيء مليء بالحياة، لكن ثمَّة لحظات تدفعني دفعًا إلى الموت، هناك لحظات أخشى فيها الاقتراب من النافذة، إذ تومئ لي بالقفز، تُنادِيني الأدوات الحادَّة لتقطيع جسدي، والأجسام المدبَّبة تحثُّني على غرزها في قلبي، ينادِيني النهر للقيام بها

بنفس سرعة وقُوَّة جَرَيانِه، كل شيء مليء بالحياة، غير أن كل الأشياء تناديني للموت".

لكنني لاحظتُ على تعابير وجهه أنه نادم على ما يقوله، عارَضتُه وقلت له: "لا" على الرغم من ملاحظتي لما اعتراه من تناقُضٍ فيما يقوله، قلت: "كل شيء يناديك للحياة، حتى هذا المنزل الميت"، وأَشَرتُ إلى نهاية الشارع.

سِرنا باتجاه المنزل الذي رحل عنه سُكَّانُه منذ وقت بعيد. دخلنا عبر الباب المكسور، وتجوَّلنا بين الغرف المهجورة. نظرنا إلى الأرض حيث بُعثِرَت أدواتٌ لم تَعُد تستخدم. اتَّجه رايـنر إلى أحد الأركان، انحنى وثنى يدَه وأمسك بإبرة مُسنَّنَةٍ بخيطٍ أحمر.

قطع بها مجال الرؤية بيننا، أردتُ أن يُمرِّر الخيطَ على أطراف شفتيَّ، لكنني لم أَقُل شيئًا، وأعاد الخيط والإبرة على الأرض في رُكنِ الغرفة. كُنَّا في مرحلة البراءة، تماسَّت براءتنا كفُقَّاعَتَيْ صابونٍ لا يفرقعهما الالتحام، بل يُوحِّدُهما.

عندما تلاقت نظراتنا لم يلتفت إلى الأسفل، إلى عنقي أو نهديَّ أو ما بين ساقيَّ، وكذلك لم تهبط نظراتي إلى عنقه أو صدره أو ما دون ذلك، عندما التقت نظراتنا ضغطَ مجالُ بصري على مجال بصره فَغُصتُ في أعماقه، كذلك فعل هو واقتحمتني عيناه، فالتمسنا أمرًا ما وراء أجسادِنا، وعثرنا على ما هو دافئ وناعِمٌ، وهذا ما يسمِّيه البعضُ بالروح، لكننا أيضًا تَطلَّعنا إلى الدفء والنعومة السريَّيْن والممنوعَيْن عبر اتحاد المناطق المخفيَّة من جسَدَيْنا.

كُنَّا في سِنِّ البراءة، حيث تكشف لنا اللمسة والصوت والرائحة والمذاق والنكهة والرؤية ما هو أعمق من السطح، حيث بدا لنا أن الدماء تجري حتى في الجمادات، لم يَسمَح لنا سِنُّنا أن نتكهَّن بأن أحاسيسنا ستحبسها يومًا ما قوانين الزمان والمكان، وستفلت من

رجفة إدراك الأمور الجديدة، ستشهد فقط على وجودنا المادِّيِّ الذي لن يتحمَّل دفئها ولا نعومتها.

كُنَّا في سِنِّ البراءة حيث لا تزال الروح صلصالًا ناعمًا، وتَجهَلُ أنها ذات يوم ستصير حجارةً أو أَشدَّ قسوة، كُنَّا في سِنٍّ يسهل أن تشعر فيه بالدفء بواسطة روح قريبة، أو أن تتَّحِدَ بها، كُنَّا في سِنِّ البراءة حيث تنتفض أرواحنا تحت أجسادنا الرقيقة الحسَّاسة لمجرَّد نظرةٍ خَجْلَى وشوقٍ مُتخَفٍّ. سِنٌّ لم تَزَل فيه الروح والجسد كيانًا واحدًا، كُنَّا في سِنِّ البراءة، فلم نعرف أن الإثارة ستَفتُرُ يومًا ما، أو تتحوَّل ببساطة إلى رغبَةٍ مُلحَّةٍ لإشباع حاجاتٍ جسدية. ثم حينها، حتى حين يفلح المرء في الانغماس بمشاعره، فلن يجد القُدرَةَ ولا الرَّغبة في تحويل هذه اللحظة إلى أَبديَّةٍ مُؤقَّتة، أو حتى التَّمسُّك بها.

لم أذهب إلى راينر في أيام الأحد إذ تغلق المكتبة أبوابها، ولم أملك مبررًا لغيابي عن المنزل. صباح ذات اثنين وجدت راينر مستلقيًا على فراشه، ممسكًا بقصاصة ورقية في راحة يده، قال إنه التقى مالك معرض فني في اليوم السابق، وكان صديقًا مقرَّبًا من الشخص الذي قال إنه والده الذي تعهَّد بتربيته، وحكى له ما يعرفه: كانت فتاة شابة تدعى جيرترود، في الخامسة عشرة من عمرها حين أنجبته، وفي ذلك الوقت قبل أكثر من ثمانية عشر عامًا عاشت في شارع اسمه مدوَّن على الورقة التي يمسك بها راينر.

عندما تخطَّينا عتبة المنزل الذي نشأ فيه قبل ثمانية عشر عامًا على يد من تَبَنَّوه، ومضينا صوب المنزل الذي انفصَلَت فيه أمُّه عنه، مدَّ راينر يده التي تمسك ورقة العنوان وأمسك بيدي وقال: "منذ أن انتهت طفولتي، وحتى هذه اللحظة، كلَّما أغمضتُ عيني لمحت أنثى لا اسمَ لها ولا جسدَ ولا وجه حتى، كائنًا نورانيًّا يومض أمام عيني المغمَضة، كانت بلا جسد، إلَّا أن شوقي لها تَدفَّق فيها، إذ كنتُ

أعرف أن لها هيئة جسديَّةً في مكان ما في العالم، واختلج قلبي لفكرة أنني إذا أردت لنفسي حياةً فيجب أن أترك منزل والديَّ وأمضي باحثًا عنها، لكنني لم أعرف ما إذا كنت سأعثر عليها أم لا.

عندما مات والداي علمت أني مُتبنًّى فتغيَّر مسار حياتي، وعندما التقيتُكِ أدركتُ أن بحثي عمَّن ولدوني قادني إلى تجسيم هذا الكائن الأنثوي الذي كان يظهر لي سنواتٍ. لا بُدَّ لقاءاتنا في الطفولة هي ما خلقتها لي، لم أخبركِ لأنني كان يتعيَّن عليَّ أولًا أن أنهي بحثي عن أصلي، لكن الآن إذ لا يفصلني عن الإجابة المنتظرة سوى وقت وجيز، فإن حلمي بالوجود الذي تمسَّكت به لفترة طويلة ها هو يبدأ".

اقتربت رؤوسنا، شعرت بأنفاسه على وجهي، وخفق قلبي بشدَّة، وكذلك قلبه، تلامَسَت صدورُنا قبل شفتَيْنا، كُنَّا مُتقارِبَيْن للغاية، حتى بدا لي أن العالم كله اقتصر على عينَيْ رايز، أغلق عينيه للحظةٍ ساعيًا للعثور على تلك الأنثى النورانيَّة التي تعرَّف عليها حين انقضَت طفولته، ثم فتح عينيه وابتسم، ووجدني أقف أمامه، فأغلقهما وفتحهما مرَّةً أخرى وكأنه يسعى لتأكيد ذلك التماثُل بين هذه الكينونة التي لا وَجهَ لها التي نسجها له وميض الضوء أمام عينه المغمضة، وبيني.

تلامَسَت شفتانا، فأغمضت عيني، وشعرتُ في عذوبة تلامُسِ لِسانَيْنا بوعدٍ أبديٍّ باستمرارها. لو كان أحدٌ أخبرني أن تلك هي آخر لحظاتنا على الأرض ولن يبقى لنا بعدها أَثَرٌ ما كان ذلك ليَصرِفَنا عن نَشوَتِنا؛ إذ آمنَّا بأبدية ما جَمَعَنا، وأنه إذا انتُزِع مِنَّا وجودنا المادي فسنبقى حيث لا قُوَّة لقوانين الطبيعة ولا قوى التَّعفُّن والزَّوال علينا، وحيث الروح البشرية أقوى من كل الأجسام السماوية لأنها ستُدان ذات يومٍ، بعد ملايين السنوات من خلقهم، ليُحرَقوا فيما بعد، أمَّا الجزء الذي

اشتبك فيه شوقُنا ونشوتنا فسيبقى حتى بعد اندثار آخر ذَرَّةِ تُرابٍ في هذا الكون المادي.

سِرنا في المدينة، وبين الحين والآخر تحقَّق راينر من الورقة التي تحوي أسماءَ الشوارع التي تَعيَّن علينا السفر إليها للوصول إلى المنزل الذي عاشت فيه أُمُّه. وحين دخلنا المنطقة التي اصطحبني أخي إليها في جولةٍ للتعرُّف على أعماق ڤيينا قال راينر: "اقتربنا".

غطَّت الشوارع في نومٍ ما بعد ليلةِ عَملِ الأحد، بلغنا الشارع المنشود، كان بعض الفِتيَةِ ينبشون في القمامة المبَعثَرة، وثمَّة رجُلٌ ثمِلٌ يتدحرج على الرصيف، وامرأة مُسِنَّة تجلس في بسطة منزلها تغنّي عن حبٍّ ضائع، وطفلان يُطَوِّحان العِصيَّ في الهواء، يمسكون بها قبل أن تصل الأرض ثم يطوِّحونها عاليًا إلى السماء. سألهم راينر في أَيٍّ من المنازل الصغيرة تعيش امرأةٌ تُدعَى جيرترود، أشار أحدهم إلى منزل عُلِّقَت فيه الملابس مكانَ الستائر.

طَرَقنا الباب، أخبرَنا الأطفالُ ألَّا ننتظر، بل أن ندخل. كان الباب مفتوحًا، وفي مَمرٍّ مشبع برائِحَةٍ عَفِنَة كان ثَمَّة بابٌ مفتوحٌ جزئيًّا، دَخَلنا الغرفة ونظرنا إلى الجدران الرطبة، فدخلت امرأة تتَّكِئ على عصا، نظرت إلينا وقالت: "لا توجد غُرفةٌ للَيلَةِ زفافٍ، عَمَّ تبحثان؟".

أجاب راينر: "أنا أبحث عن جيرترود، ولا أعرف اسمها الأخير".

هَسهَسَت المرأةُ قائِلَةً بلدغَةٍ بسبب اتِّساع الفتحات بين أسنانها: "وما لك وجيرترود؟"، وجَرَت بأصابعها على بقايا شعرها الخفيف على رأسها الأصلع.

قال راينر: "أرغب في التحدُّث إليها".

أشارت المرأة إلى المنضدة والكراسي فمضينا للجلوس.

"أنا جيرترود".

قال راينر: "إذًا لقد أخطأتُ، لا بُدَّ أنَّكِ تحملين نفس اسم المرأة التي أبحث عنها، إنها في نحو الثالثة والثلاثين".

"نعم"- قالت المرأة، ودَفَسَت لسانها بين فتحات أسنانها الأمامية المفقودة، "أنا في الثالثة والثلاثين"، ثم جلَسَت على الفراش المواجه لنا، وأضافت: "ويبدو لي أنَّكَ جِئتَ من أجلي، تُشبه شخصًا لم أره منذ زمنٍ بعيد، كان وقتها في مثل سِنِّكَ".

نظَرَت الأُمُّ إلى ابنها، عرفَت أنها مُحقَّة لأنه لم ينطق بكلمة. مَدَّت ذراعها له في خطوة بطيئة، ربما أرادت أن تُرَبِّت عليه، لكن عندما لَمَسَته أدارت يَدَها ببطءٍ ناحيةَ وجهها، وقبل أن تلمسه سقطت في حجرها على ثَوبها الرَّثِّ.

واصَلَت أُمُّه قائلةً: "لم أكن أَتوقَّع مَجيئَكَ... وقطعًا لم تكن تتوقَّع أن أكون على هذا الحال".

ظلَّ راينر صامتًا.

"أنتَ صامِتٌ إذًا، لا شَكَّ أن كل ما احتاجت أمٌّ أن تقوله سَمِعتَه من أُمٍّ أخرى، ماذا تريد أن تعرف؟ لا يهمُّ مَن أنا أو ماذا أكون، فكَّرتُ كثيرًا فيما سأقوله إذا ظهرتَ يومًا ما، لكن كل ما سأقوله لكَ لن يعدو الأَعذارَ، لقد ربَّاني والدان بسيطان أمينان، بالكاد كنتُ في الخامسة عشرة حين حمَلتُ بِكَ، كنتُ فتاةً صغيرةً لا أعرف شيئًا عن حقيقة الحياة، كنت أرى في فِناء منزلنا ديوكًا تمتطي الدجاجات، وكنت أرى عند الجيران نِعاجًا تَلِدُ حِملانًا، حيوات البشر تختلف كثيرًا عن الحيوانات، لكنها تتشابه أحيانًا. أبوك كان وسيمًا، وكلُّ ما تَمَّ بيننا حدث في إسطبل الجيران، قبل حَمْلي بكَ لم أعرف عنه سوى أنه جاء إلى بلدتنا أو قريتنا في الحقيقة، قبل ستة أشهر من إصلاحه لعجلات عربة الخيول الخاصَّة به، عندما أخبرته عن حَمْلي عرفتُ المزيد عنه، لم يكن يُصلِحُ الأشياء فحسب، بل كان يسرق أيضًا، كان لِصًّا مُتجوِّلًا

مـن بلـدةٍ إلى الأخـرى حتـى لا يُمسَـكَ، ثـم انطلـق إلى بلـدةٍ أخـرى. نعـم، كان أهـلي بُسـطاء وأمنـاء؛ ولذلـك طـردوني مـن المنـزل، أرادوا أن يُنقِـذوا شرف شـقيقاتي، وكانـوا يعرفـون أن أحـدًا لـن يُقـدِمَ عـلى الـزواج منهـنَّ إذا عُـرف أننـي حُبـلَى، أعطـوني القليـل مـن المـال وأرسـلوني إلى قريـبٍ بعيـدٍ في ڤيينـا، ولم أَرَ إخـوتي أو أبـاك بعدهـا أبـدًا".

أَرخَـت نظرتهـا إلى يديهـا وقالـت: "مَـن تَبنَّـوْكَ بَـدَوْا وَدودِيـن، قالـوا لي إنهـم ليـس لديهـم أطفـال، وأنهـم يعيشـون بعيـدًا في المدينـة، لكنَّهـم يتأهَّبـون للعـودة إلى موطنهـم، وأرادوا أن يعـودوا وبصحبتهـم طفـل، كنتَ بالـكاد أتممـتَ عامَـكَ الأوَّل".

مَرَّرَت يدها على الفِراش وقالت: "وَلَدتُكَ على هذا الفِراش".

سرح رايـنر في الفـراش. ظَنَنـتُ أن هـذه المـرأة اسـترزقت طيلة السـنوات الثـماني عـشرة السـابقة عـلى ذلـك الفِـراش. وَجهُهـا المكـروب، ربمـا كان بمقدورهـا أن تَخـدَعَ مَخمـورًا أو اثنـين في مسـاء الأَزِقَّـةِ المظلِمَـة، بِفَمِهـا ذي الفـروق بـين أسـنانها، وشـعرها الرفيـع.

"حسـنًا هـذا كل مـا في الأمـر، هـذا مـا خطَّطـتُ لأخبرك بـه إن ظَهَـرتَ يومًـا مـا، ظَلَلـتُ أُردِّد الـكلام ذاتـه لنفـسي طـوال ثمانيـة عـشر عامًـا، هـذه هـي المـرة الأولى التـي أُردِّده فيهـا بصـوتٍ عـالٍ"، التفتَـت إلى المـرآة المشروخـة، وابتسَـمَت ابتسـامَةً باهِتَـةً لانعكاسـها، ثـم التفَتَـت مـرَّةً أخـرى لرايـنر، فنهـض.

قالـت لـه والدتـه: "وبالنسـبة لـك، هـل فكَّـرتَ في أي شيء تقولـه لي بينـما كنـت تَنظُـر إليَّ؟".

اتَّجـه رايـنر إلى البـاب ومضيـتُ في إثـره، فقالـت أُمُّـه: "بعـض الأسـئلة مـن الأفضـل ألَّا تُسـأل، وبعـض الإجابـات مـن الأفضـل ألَّا يُحصَـل عليهـا". لم يَعُـد ينظـر إليهـا. قادتنـا إلى مخـرج المنـزل المتداعـي، سـمِعتُ خطواتهـا

خلفنا حتى في الممرِّ الضَّيِّق، وطرقات العصا التي تستند عليها، نظرت إلى خطوات راينر فتوقَّف صوتُ خطواتها، واستمرَّ وقع خطواته.

عندما انعطفنا إلى شارعٍ آخر التفتُّ لأرى والدة راينر تقف بجوار جدار المنزل وتُمرِّر أصابع يدها اليمنى على وجهها.

قرَّر راينر في تلك الظهيرة أن يغادر ڤيينا، اهتزَّت أعماقُه وهو يُردِّد بصوتٍ عالٍ سائلًا: "مَن أنا؟"، لم تُجدِهِ تأكيداتي نفعًا بأنه ما هو عليه، بأن ذاته لا تعتمد على مَن أنجبه، ولا عَمَّن نبذه بعد ولادته. "مَن أنا؟"- ظلَّ راينر يطرح سؤاله بعينين مغمضتين أو مصوَّبَتَيْن إلى المرآة، أو تنظران إليَّ، أحسب أنه لو ابتعد قدرَ الإمكان عن المدينة التي تقنعه فيها أمورٌ شَتَّى بأنه ليس ما هو عليه، فربَّما يصل لحقيقة ذاته.

***

بعد رحيل راينر اعتدتُ الذهاب إلى شونلاترن جاس يوميًّا، طَرَقتُ بابَ بيته في ڤيينا، لكن لم يكن هناك أحدٌ، بعث فيَّ ذلك الخوفَ كُلَّ صباح، ومنع عنِّي النوم، وقطع آمالي وتوقُّعاتي التي لا حصر لها. شعرت أن راينر سيعود، لكنني شعرت أن يأسه سيقوده إلى عدمٍ لن يتمكَّنَ معه من تحقيق وعده.

أحيانًا عندما كنت أخشى أن يرتكب الانتحارَ أُفكِّر أن أطلب مالًا من أخي؛ حتى أعثر لراينر على عِزبَةٍ في ميونخ حيث نشأ وحيث هو موجود الآن، لكنني كنت أعلم أنه إن أراد أن يعثر على السَّلام وعلى إجابة لسؤاله "من أنا؟" فيجب أن يبقى وحده؛ ولذلك لم يسأل عن عنواني عند مغادرته المدينة، ولم يُعطِني عنوانه كذلك، فلم يكن التَّواصُلُ بيننا حتى بالكتابة مُمكِنًا.

شعرَت أمي بخوفي، لكنها لم تعرف مصدره. يصبح الإنسانُ أكثرَ هشاشةً حين يشعر بالخوف واليأس، ظهر خَوفي، النَّاتج عن يأس راينر، في حركات جسدي في الهواء، وفي صَدَى كلماتي، وفي ظلال نظراتي. اقتَفَت أمي آثار هذا الخوف، ودَسَّت كلماتها في ضعفي، أخبَرَتني أنني سأظلُّ وحيدةً طوال حياتي، وسأغرق في عُزلَتي، وسأظلُّ عزباءَ فأُسبِّب الحَرَجَ لعائلتي، جلَستُ دون حراكٍ أفكِّر في راينر، يُصارِعني قلقي من عدم عودته وثباته على عهده.

***

ذات صباح بعد مرور عام على رحيل راينر، اقتربتُ من منزله فرأيته يقف خلف النافذة. جمَّعتنا الأقدارُ مرَّةً أخرى، فملأنا عالَمَيْنا بأحلام اليقظة، أراد راينر أن يدرس كلانا الفلسفة في جامعة ڤيينا، أَردتُ أن أُحقِّق معه حلمي القديم بأن أعيش مع أخي في البندقية.

ثم قطعنا مسافةً بعيدة عن البراءة، المسافة بين القيام بفِعلٍ جنسيٍّ والاتحاد الفعلي لجَسَدَيْن. تفحَّصَت نظراتُنا الخَجلَى عُرينَا، وفَتَّش كُلٌّ مِنَّا عن نظرات الآخر، ثم ارتخت على الأرض خَجلًا وحيرةً وخوفًا. كانت المرة الأولى لكل شيء: النظر إلى جسدٍ عارٍ، وخطواتنا المتردِّدة إلى الفراش وكأننا نتعلَّم المشي، انجذاب جسدينا لبعضهما، وكيف امتزجا ببعضهما تمامًا، وقوة أنفاسنا وكأننا وُلدنا لتوِّنا.

ذات يوم قال لي: أرغب في زيارة أُمِّي".

انتظرتُه طويلًا حتى يُعبِّر عن هذه الأمنية مجدَّدًا، ولاحقًا ذكَّرته بالأمر.

قال لي: "أنا خائف".

ثم تحدَّثنا عن مَخاوِفِنا وعن أمورٍ كثيرة أخرى، قضينا أيامًا نستكشف فيها أجسادنا، ونفتِّش عن مصدر الحب الخالص لهذا

الجسد على وجه الخصوص، كذلك فتَّشنا عن روح كُلٍّ واحدٍ مِنَّا، أردنا أن نعرف ما تَعنيه السعادة والألم بالنسبة لكِلَيْنا، وجَّهنا لبعضنا الأسئلة، وسألنا بعضنا مرارًا عن معنى الحب، والخيانة.

كُنَّا في سنوات السذاجة، حين يفكِّر كُلُّ شخص بقلبه، عندما كنَّا نُصدِّق تمامًا ما يكتبه الفلاسفة من أفكار، عندما يشعر المرء بأنه يمتلك حلاوة الفقرات التي تنبثق منها السعادة، ومرارة القصائد التي كُتبت بدافع اليأس.

كُنَّا في السِّنِّ الذي لا تولَد فيه الكلمات من الفراغ ولا يكون مصيرها كذلك، سنٌّ تنبع فيه الكلمات من صميم روح المرء، وفور التعبير عنها تعود إلى مَنشَئِها مرة أخرى. كُنَّا في سِنٍّ غير ناضجة، حيث لم ندخل بعدُ في جدِّيَّة دراما الحياة الفانية، ومن ثَمَّ نتحدث بسذاجة عن أمور سامِيَةٍ، أمور تتجاهلها الخبرة لأنها بارزة بروز الشمس.

سألنا بعضنا عن الحاضر والماضي أيضًا؛ لأننا كنَّا نعلم أن الإنسان يحمل بداخله كُلَّ الطبقات، وأن الحاضر يحمل بصيصًا ممَّا كان مُهِمًّا ذات يوم، ولم يكن الماضي أطلالًا، بل مصدرَ ضوءٍ يُنير ملامح المرء.

حكى كُلٌّ مِنَّا للآخر عن ماضيه، حكيتُ له عن أمي وأخي وسارة وكلارا، تذكَّر رايز لحظاتٍ مع أولئك الذين أحبوه كابنهم. ثم ذكَّرتُه مرَّةً أخرى برغبته في لقاء أُمِّه مُجدَّدًا، لكنه تجنَّب ذلك وتذكَّر مخاوِفَ داهَمَته حين كان طفلًا، إذ كان يخشى أن يخسر والِدَيْه، كل شيء كان ينذر بحدوث هذه الخسارة، ربما عشَّش هذا الخوف بداخله بسبب ذكرى مُشوشَّة في عامه الأول حين هَجَرَته أُمُّه، وما تلاه من تخوُّفٍ دائم من أن يفقد كُلَّ أحبَّائه.

سألني: "ماذا لو فقدتُكِ أنتِ أيضًا؟ ماذا لو كان قدري أن أخسر كلَّ مَن أُحبُّهم؟ ماذا لو رَفَضَتني كما رَفَضَتني أُمِّي بعد ولادتي؟".

"سأبقى معكَ دائمًا... لكن الآن فلنذهب لزيارة أُمِّكَ"- أومأ راينر برأسه.

***

عندما أومأ راينر برأسه تَذكَّرتُ أن لي مَوعِدًا مع شخص، تذكَّرتُ ما رَدَّدَته سارة عليَّ: "لا تَنْسَيْ كلارا وساعديها كُلَّما أَمكَنَكِ".

قَلَّت زياراتي لكلارا، وأثناء تلك الزيارات التي كُنَّا نجلس فيها مُتقابِلَيْن كان چوستاف يقطع الصمت، متحدِّثًا عن الأمور ذاتها: كيف كانت أُمُّه تَصبُّ جام غضبها على أخته وهي بَعدُ طفلة صغيرة، وكيف تعرَّضَت كلارا للضرب لقيامها بتنظيم تظاهُرَةٍ لدعم حقوق المرأة، والأطفال والعمال، وكيف سُجِنت شجاعتها وهِمَّتها في عالمها الخالي.

كنتُ على علم بهذه الأمور، ورأيتُ بنفسي كيف عذَّبت كلارا نفسها بانزوائها، لكنني انتبهت لحديث چوستاف لأنني شعرت بأنه في حاجةٍ للتنفيس عن معاناته. أحيانًا عندما كانت كلارا تصحو من همودها تهرب من البيت، فتعثر عليها الشرطة مُستَلقِيَةً على أحد المقاعد، أو تجلس سانِدَةً على شجرة، أو تميل بجسدها فوق سور جسرٍ ما.

اعتاد أخوها أن يسألها كلَّما عادت إلى البيت: "لماذا هربتِ من البيت؟"، فتجيبه بنفس الإجابة: "هذا ليس بيتي".

قرَّر چوستاف حينها أن يُنزِلَها في مَصحِّ "العش" النفسي، عندما زُرتُها هناك للمرَّة الأولى أدرَكتُ من نظراتها وصوتها وحركات جَسَدِها أن ثِقَتَها القديمة تعود بالتدريج.

قالت لي: "عثرت أخيرًا على بيتي"، تعرَّفت أيضًا على مدير مَصحِّ العش دكتور جوته، شرح لي أن الصراحة هي الوسيلة الوحيدة لعلاج

الجنون، وأثناء حديثه جاء أحد المرضى وبصق في وجهه، فمسح البصاق بمنديله بعنايةٍ وواصل: "إن المرضى الذين يُعانون من خلل عقلي يحتقرون مُعالِجَهم؛ إذ يرون فيه الرَّبَّ الذي يُعاقِبُهم، طاغية يمنعهم من خَلْقِ عالَمِهم، لكنني لا أَصدُّ انفجارات غضبهم، أستمع لهم حين يسبُّونني أو يهينونني كما أفعل مع مَن هم خارج المصَحِّ، وحين يواجهون حماقاتهم أخبرهم أنها سخافة، نعم هذا ما أقوله لهم".

ابتسَمَت كلارا قائِلَةً: "نعم، تلك هي الكلمة التي يُرَدِّده دكتور جوته كثيرًا: سخافات".

قال دكتور جوته: "أترين؟ الصَّراحة هي أولى خطوات العلاقة الناجحة بين المرضى وأطبَّائِهم".

وكما الحال في أغلب مشافي المجانين (لم يواكب الدكتور جوته مُستجدَّات الطب ليطلق عليها مَصحَّات عقلية)، كان التصنيف هو أول المبادئ المطبَّقة في "العش": يتمُّ الفَصلُ بين الرجال والنساء، كان ثمة جناحٌ للمرضى الهادئين، وآخر للعاجزين الذين يحتاجون رعاية مركزة، وآخر لمن يعانون الهَوَسَ، وهؤلاء بحاجَةٍ للعَزلِ/ أو أَقَلُّه أن يخضعوا للإشراف الدائم إذا لم يُمثِّلوا خطرًا. وهناك جناح رابع لمن يعانون الخَرَف.

لم يلتقِ من بين هؤلاء سوى القليل، في صالات الطعام الكبيرة، أو في القاعة الرئيسية التي يُلقي فيها دكتور جوته محاضرات، أو أثناء سيرهم.

هذا المكان -كغيره- يفصل بين الفقراء والأغنياء، فالمريض الذي تُنفِقُ عليه عائِلَتُه مبالِغَ كبيرة يحصل على غرفة منفردة أو مُزدَوَجة.

كانت كلارا وحيدةً في غرفتها، حَثَّني دكتور جوته على الذهاب إليها ومشاركتها في صناعاتها اليدوية؛ إذ كان يؤمن بأن العمل يعالج

الجنون، أو على الأقل يساعد على العلاج، وحدهم من يعانون من الشيخوخة والشلل وطريحي الفراش في "عش" هم مَن لم يمارسوا حِرَفًا يدويَّة.

اعتبر دكتور جوته هذه الحِرَفَ وسيلةً يملأ بها خزانة "العش"؛ فالعديد من النزلاء يقيمون مجَّانًا، أمَّا مَن ينفق عليهم أقرباؤهم يمارسون أعمالًا بسيطة: تطريز، خياطة، حياكة، صناعة السجاد، قام قِسمُ الرجال بعمل زهور صناعية من الأوراق والأشكال الخشبية، بينما تولَّى آخرون الأعمالَ الشَّاقَّة، غسلوا الملابس والحشوات، وصنعوا الأزرار والأحذية.

"أنتِ مُرحَّبٌ بِكِ إن أَرَدتِ زيارة متجَرِنا في المخرج، فكل منتجات مرضانا الأحبَّاء هناك: جوارب وشالات، وقمصان نوم وفساتين ومناديل ومناشف وأدوات خشبية"- واصل دكتور جوته حديثه لي عن الحياة في "العش" قائلًا: "موعد الاستيقاظ في السادسة، ثم تُتابع المرِّضات تنظيفَ فوضى الليلة السابقة، وليست هذه بالمهمَّة السهلة كما توحي، فعلى سبيل المثال يحدث أن يتبرَّز أحد المرضى في منتَصَفِ الغرفة، أو يحشر وسادةً بين قضبان النافذة، أو يبسط ثالثٌ بطَّانِيَّته في منتصف الغرفة، أو يقوم رابِعٌ بتخبئة أخفاف النُّزَلاء تحت مرتبته.

ثم نقوم نحن الأطبَّاء بزيارة المرضى، ونمضي لتناول الإفطار، لدينا سِتُّ قاعات طعامٍ، جميعها تستوعب كل المرضى، ثم نبدأ عملنا حتى موعد الغداء، وبعده نحصل على قسطٍ من الراحة ثم نواصل العمل، فكما قلت؛ الإنسان جُبِلَ على العمل، وسيصنع ممَّن يتجنَّبون المسؤولية رجالًا. فهكذا الأمر: أن تكون مجنونًا هو أن تَتجنَّب مسؤولية أن تكون إنسانًا. بعد ذلك نتناول العشاء ونتحدَّث قليلًا قبل أن نأوي إلى الفراش".

بينما نمشي في ممرِّ المستشفى اقتربَت امرأة من دكتور جوته، وجَثَت على ركبيتها أمامه، وتوسَّلَت إليه أن تعود إلى البيت، تخطَّاها ببساطةٍ، وواصَلَت المرأةُ صراخها حتى وصل طاقم الممرِّضين وحملوها بعيدًا.

لاحظ دكتور جوته استيائي مِمَّا شاهَدتُ وقال: "لا تُعنَيْ بالجانب المظلِم من الأمور، تعاملي مع أسوأ الأمور بقليلٍ من السخرية، فلولا هذا المذاق ما استمتعنا بما يُقدَّم إلينا".

"لكن هذا ليس غداءً، إنها حياة!".

"بل أكثر من ذلك، بدون سخرية تُمسي الحياةُ ماسِخَةً وغير محتَمَلَة".

واصلنا التحدُّثَ أثناء مشينا في ممرَّات المشفى، أحيانًا يفتح لي دكتور جوته الباب بما يسمح لي لاستراق نظرةٍ، ظلَّ يلاحظ ارتعابَ نظراتي طوال الطريق، وبحث عن وسائل لتهدئتي. "الأوضاع هنا رائعة، أتعرفين كيف تسير الأمور في مصحٍّ سالبتريير بباريس؟ ينامون على حشواتٍ موضوعَةٍ على الأرض، يحبسونهم في الغُرَف ويمنعونهم من الخروج، يقضون حاجاتهم في منتصف الغرف التي يكسو الغائِطُ جدرانها وأرضياتها، الكثير منه؛ لأنهم بالكاد يطعمونهم بما يبقيهم على قيد الحياة، وحتى لو وَفَّروا لهم الغذاء المناسب فلماذا سيأكلون أكثر إذا كانت الغرف لا يتمُّ تنظيفها سوى مرَّةٍ في الأسبوع؟ والأطبَّاء لا يمرُّون إلَّا ليعرفوا فقط مَن يجب حبسه ومَن يجب الإفراج عنه بعدما أرهقه غَضَبُه، هكذا الحال في باريس، لكن هنا على نهر الدانوب الجميل". صفَّر الدكتور بلحن ڤالس ثم واصل: "ليس عليَّ أن أخبرَكِ، يُمكِنُكِ أن تشاهدي بنفسك، يجب أن تحسبي نفسَكِ محظوظةً لأن صديقتَكِ أصابها المرضُ هنا في ڤيينا".

قلت: "كلارا ليست مجنونة، إنها تحتاج بعض الوقت لتعود لنفسها".مكتبة سر من قرأ

"وما الجنون في رأيك؟ أتحسبينه أمرًا مهولًا؟ لا، الجنون حالةٌ لا يكون الناس فيها أنفسهم، وهنا نحن نوفِّر أفضل السُّبُل للمرضى حتى يعودوا لأنفسهم، أتعلمين كيف يعالجونهم في باريس؟ بالخوف، إنهم يظنُّون أنهم لو صَبُّوا عليهم الكثير من الماء البارد، أو ضربوهم أو هدَّدوا مَن يصرخ بقطع لسانه فسيعود أولئك المرضى إلى صوابهم، نعم هكذا يتمُّ الأمر في باريس، أمَّا هنا على ضفاف الدانوب الجميل"، ومجدَّدًا راح يصفِّر لحن ڤالس...

أردتُ أن أقول له إنه حتَّى في باريس كَفُّوا عن مُعامَلَة المرضى بالطريقة التي يصفها، هذه الأساليب أَدخَلَها دكتور بانيل منذ عشرات السنوات في سالبيتير وهو نفسه مَن ينادي بتطبيقها هنا. لكنني لم أنبس بكلمة، وواصَلتُ الاستماع إليه.

"هنا نحن نعالج المرضى بالحديث بُغيةَ الوصول إلى حقيقة ما يعذِّبهم، نحاورهم بشأن ما يرغبون في التحدُّث عنه، وهو ما يكون تُرَّهاتٍ في العادة، لكن في النهاية يتوصَّلون إلى بصيرةٍ ما من خلال هذه التُّرَّهات، لا أقول جميعهم، لكن بعضهم يُحالِفُهم الحَظُّ ويعودوا إلى طبيعتهم".

كُنَّا نتحدَّث قُربَ قضبان السِّياج عند مخرج "العش" حين قالت لي كلارا: "نعم، بعضنا يُحالِفُه الحَظُّ ويعود إلى صوابه، كل ما يحتاجه هو الوقت"- عَبَرَت البوَّابَة، وإذ أمضي مبتعدةً إلى الشارع التفتُّ خلفي عدَّةَ مرَّاتٍ لأرى كلارا تقف خلف القضبان.

***

مَرَّ الوقت، وبرَدَت الأمور بيني وراينر، عندما يمتزج جسدانا يتعلَّق بجسدي كأنه أداة مُتحرِّكة، حين كان ينظر إليَّ فكأنه ينظر إلى شيء لا حياة فيه. وأنا لم أعد أُمَيِّز صوته. نشب في أعماقي الشَّكُّ، كشعور المرء حين يرتدي أفخم أنواع القماش، لكن تُرِكَت فيه سهوًا إبرةٌ تَخِزُ الجسدَ على غير تَوقُّع.

في ذلك الوقت كان راينر يدرس الفلسفة، وفي البداية ظننتُ أن التَّغيير بدأ حينها لأنه تفانى في دراسته.

ذات ظهيرة قال لي: "عليك أن تغادري لأن دروسي ستبدأ".

"يمكنني مُرافقَتُكَ إلى الجامعة".

"لا، أرجوكِ ارحلي، أريد أن أذهب بمفردي".

دفَعَني إلى الباب، لم يَعُدْ رقيقًا معي منذ وقت طويل، لكن هذه هي المرة الأولى التي يبدو فيها فظًّا.

اكتنفني الشعور بأنه لن يذهب إلى أيِّ مكان، كنت أعرف أنه سينتظر في البيت. لم أبتعد عن حدود المنزل، بلَغتُ منحنى الطريق وانتظرت. لم يَمُرَّ الكثير من الوقت حتى اقتَرَبَت من منزله امرأةٌ شابَّةٌ، فُتِح الباب فدخلَت البيت.

أردتُ أن أدخل أنا أيضًا وأن أشعر بالألم ممَّا قد أراه؛ لذلك بقيتُ هناك أسند على جدار المبنى، حَفَرتُ في الجدار بأظافري، ولم أدرِ كم مَرَّ من الوقت أثناء وقوفي هناك، وحين غادَرَت المرأةُ الشابَّةُ أَرَدتُ أن أدخل منزله، لكنني انطلقتُ عائِدَةً إلى البيت.

في اليوم التالي أخبرته بما رأيتُ، ولم يَسْعَ لإنكار الأمر، وحين انتحَبتُ أمامه داس الألمُ على كرامتي، ولم يَسعَ هو لتهدئتي، مَدَدتُ ذراعي ولمست أصابعَ يديه، أسعى وراء أي أمل أو دعم، لكن أصابعه لم تتحرَّك. جَثَوتُ أرضًا ورفعتُ بصري إليه فلم أتعرَّف على نظراته،

لقد كانت هكذا منذ فترة، غريبة ومختلفة، لكنني الآن أدرك السبب الحقيقيَّ للتَّغيير.

نظر راينر إلى ساعته وقال: "حان وقتُ رحيلِكِ".

نَهضتُ وغادَرتُ.

لكنني لم أبتعد عن المنزل، وسرعان ما ظهرت المرأةُ الشَّابَّةُ مرَّةً أخرى، ومضت إلى بيت راينر، انتظرتُ فترةً طويلة وحين خَرَجَت ركضتُ نحوها، فالتفَتَت لدى سماعها وقعَ خطواتي، كانت ملامحها مُرتَعِبَة؛ ربَّما حَسِبَت أنني سأمسُّها بسوء، على بُعدِ خُطوَةٍ منِّي وضَعَت يديها على وجهها لتحمي نفسها.

قلت لها: "أريد أن أتحدَّث معك بشأن راينر ريختر".

أنزَلَت يدها عن وجهها.

سألَتني: "مَن أنت؟".

فرددتُ: "أريد أن أتحدَّث مَعكِ بشأن راينر ريختر".

"ماذا تريدين أن تعرفي عن راينر؟".

"أعرف كلَّ شيء عنه، أو تقريبًا كل شيء، إن وجودَكِ في حياته هو ما لا أعرف عنه الكثير".

"لا بُدَّ أنَّكِ..."- وَشَت تعابيرُ وَجهِها والإيماءات غير المكترثة لحركة يديها أن راينر حكى لها عني.

"أريد أن أعرف المزيد عنكِ، وماذا تريدين من راينر".

"أترغبين في تعذيب نفسِكِ؟".

قلتُ: "أريد فقط أن أعرف".

مكتبة
t.me/t_pdf

"وحده مَن يرغب في تعذيب نفسه هو مَن يسأل عَمَّا تسألين عنه، لو كان لَديكِ ذَرَّةُ احترامٍ للذَّات لَكُنْتِ نسيتِ وجود راينر من الأساس".

أَرَدتُ أن أقول لها إن أمورًا عديدة حدَثَت بيننا، لا يمكن أن ننسى مَن ارتبطوا بهذه الأحداث، لكنها كانت قد التفتت بالفعل، ومَضَت في طريقها، لم أَمْضِ في إثرها، بل عُدتُ باتجاه منزل راينر لكنني لم أطرق بابه.

اتَّجهتُ إلى بيتي، مَشيتُ بِبُطءٍ، ورُحتُ أتأمَّل وجوه السُّعَداء في الشارع، تعرَّفتُ على وجهي بين هذه الوجوه فقط حين عبَسَت. شاهدتُ امرأةً مُسِنَّةً تتمزَّق حقيبتها ويتبعثر ما بها من تُفَّاح، وبينما تنحني لتُلَملِمَه رَكَضَ نحوها بعضُ الأطفال الأشقياء لينشلوه منها. كان هناك شاب وفتاة يتلاطفان على المقعد، انفصل طفلٌ عن أبويه واتجه ناحيتي، قَضَمَ نصف قطعة الشوكولاتة وأعطاني النصف الآخر، في بعض اللحظات تصبح ألذَّ الأشياء مُرَّة.

عندما وصلتُ إلى البيت ابتسم لي والدي الذي بدأ يفقد بصره منذ وقت. قالت له أمي: "ابنتنا أصبحت سعيدةً يومًا تلو الآخر".

مضيتُ إلى غرفتي، التي أصبَحَت بالفعل لي وحدي، لم يبقَ غيري ووالدي في المنزل؛ إذ تزوَّجَت آنا فور انتقال سيجموند للعيش في المستشفى، وانتقَلَت مع زوجها للعيش في أمريكا، ثم بعد ذلك تزوَّجَت كُلٌّ من باولين وماري، وانتقلتا مع زوجيهما إلى برلين.

في العام الذي تزوَّجَت فيها روزا ترك ألكسندر المنزل، بقيت أنا مع والديَّ، مع حالي، لم يَعُد لديَّ مَن أشاركه آلامي، ولا حتى داخل غرفتي؛ لأنني لم أَشكِ همومي حتى أثناء مُحادثاتي مع أقرب الناس إليَّ.

استلقيتُ على فراشي ووجَّهتُ رأسي إلى الحائط.

لم أذهب إلى راينر منذ أيام، وحين التقيتُه قال لي: "ما كان يجب عليك أن تحاولي التحدُّثَ إليها".

"كان لا بُدَّ أن أفعل، ظَنَنتُ أنني قد أُقنِعُها أن تَترُكَكَ".

"طَلَبَت منِّي أن أُجبِرَكِ على الرحيل... لا تحضري مرَّةً أخرى".

"لا يُمكِنُني ذلك".

"انسي أنِّي موجود".

"لا أستطيع".

"لو كان لَدَيكِ ذَرَّةُ كَرامةٍ لَكُنْتِ نسيتني".

"الأمر لا يتعلَّق بالكرامة، بل بالحبِّ!".

"ما تُطلقين عليه حُبًّا ما هو إلَّا امتهانٌ للذَّات وتعذيبٌ لها... ارحلي، ولا تأتي هنا مُجدَّدًا".

أخبرته أنني لن أعود إليه مرَّةً أخرى، لكنني، على الرغم من ذلك، كنتُ أفكِّر في العودة إليه وأنا في طريقي إلى البيت.

أصبح راينر بالنسبة لي وجودًا غائبًا لا يفارقني، لم يكن بجانبي، لكنه كان حاضرًا أكثر من أي وقت مضى. نسيتُ حالي ورُحت أجوب الشوارع وأعبر الجسور وأحدِّق في النهر، أحيانًا كنت أرفع بصري إلى السماء، أو أجلس على المقعد.

في الليل لم أخلد إلى النوم، وأَمعنتُ النظر في الظلام. قُمتُ بكل هذه الأمور، لكنني مع هذا كنت أشعر بأني غائِبَة أيضًا، إلَّا أن راينر كان موجودًا على الدوام. ما سَكَّنَني أكثر من نفسي هي فكرةُ هَمسِه بكلماتٍ رقيقة لامرأة شابة، وفكرة التحام جسدَيْهما، وخُطَطِهما المستقبلية، المستقبل الذي أحيانًا كُنَّا نحلم به أنا وراينر من قبل: الحب الأبدي والعائلة وبيت في البندقية.

لكن كان لديَّ هاجس واهِنٌ بأنه يومًا ما سيعود إلى سَجِيَّتِه معي، وأن كل ما حدث في تلك الأثناء، كل الخيبات والآلام سيقتلعها فيضانٌ ما، ومن ثَمَّ تستعيد أرواحنا براءتها مرة أخرى فنصبح بعد ذلك ناضِجَيْن.

ولذلك ذهبتُ مُجدَّدًا إلى رايـنر، وهناك كانت قسوته بانتظاري، وإنذاره لي بألَّا أحضر مرَّةً أخرى. غادَرتُ منزله، إلَّا أن شطرًا مني بقي هناك كظلٍّ على الأرض.

قبل ذلك بعدَّة سنوات، عندما كنتُ فتاةً صغيرة، خائِفَة وبائسة بسبب كراهية أمي، آمنتُ أن يومًا ما سيمدُّ لي أحدُهم يَدَه ليَعبُرَ بي إلى وجودٍ آخر، أحيانًا كنت أحلم بتلك اليد، وكنت أمدُّ لها ذراعي، فتصطدم يدي بالحائط وأستيقظ من نومي.

أثناء معاناتي في طفولتي، كان ما يُهدِّئ من يأسي هو إيماني بأنه إذا ظهَرَت تلك اليَدُ فستنتهي معاناتي، عندما تلتحم يدي بِيَدٍ أخرى لنخوض في الحياة معًا. ثم بعد ذلك أعطيتُ يَدي لرايـنر، وحين اكتَفَت يدُه من الدَّعم دَفَعَتني نفسُ اليَدِ إلى بأسٍ، وكأنني أُشفَط. حيث يسقط الريش والرصاص بنفس السرعة ونفس البطء مع الروح والدم.

تشابك الألم الذي عِشتُه على هيئة طبقات مُتداخِلَة، فأثارت الآلام الجديدة فيَّ كُلَّ آلام الماضي. دفعني ألمي الحالي للشعور بآلام طفولتي، فلو لم أُجرَح في طفولتي لمرَّت خيانَةُ رايـنر على نحوٍ أسرع، لكنتُ اعتبرتها أمرًا بمقدوري أن أُدير له ظهري وأتخطَّاه، لكن هذا الألم فَتَحَ الجُرحَ القديم.

أَحْيَت خيانَةُ رايـنر ذكرياتِ الفتاة الصغيرة التي بدأت بالألم، كأنها دماءٌ تنزف من جُرحٍ قديم، تلك الذكريات التي تُسمِّيها "الحياة"، لكن هذه الفتاة لم تكن أنا، بل الفتاة التي كُنتُها يومًا ما، والتي ظلَّت جراحُها تنزف بداخلي، حتى في لحظات حياتي التي لم أشعر

فيها بذلك، الفتاة التي دفعتني كلَّ صباح للذهاب إلى راينر حتى قبل أن أستيقظ تمامًا، وأن أتوسَّل إليه، بتأنيب ضمير، أن يُدخِلَني بيته.

دفعني هذا الألمُ القديم لأسأل راينر أين راينر الذي كان يخشى أن يفقدني كما فقد من تَبَنَّوه، راينر الذي كان يخشى أن أَرفُضَه كما رفضه والداه الحقيقيَّان. سألتُه، لكنه لم يُجِب بشيء، وعندما تحوَّلَت الأسئلةُ إلى نَحيبٍ واتِّهاماتٍ أجبرني على الرحيل.

ذات صباح، إحدى تلك الصباحات التي توسَّلتُ فيها إلى راينر أن يُدخِلَني بيته حتى أنتحب أمامه أو أتَّهِمه، قال لي إن العلاقة التي جمعته مع المرأة التي هجرني بسببها انتهت.

قلت له: "هذا يعني أن بإمكاننا العودة لبعضنا".

"هذا يعني أنني راحِلٌ إلى ڤيينا".

"إذًا أريد أن أذهب معك"... لمست كتفه بأصابعي، وأكملت: "حيثما تمضي".

"لستُ أعرف أين سأذهب... ربما البندقيَّة".

كانت البندقية حُلمَنا منذ كُنَّا في سِنِّ البراءة.

قلتُ: "سأذهب معك إلى البندقية".

أَبْعَدَ أصابعي عن كتفه وقال: "يمكنكِ الذهاب أينما ترغبين، لكن ليس معي، لقد خُلِقتِ لتكوني حَجَرَ عثرةٍ لمن توهمين نفسَكِ بأنَّكِ تُحبِّينهم، أنتِ عاجِزَةٌ عن الحب، أولئك الذين يحبُّون بِحَقٍّ لا يُحَمِّلون مَن يحبُّونهم عبء آلامهم إذا كَفُّوا عن حُبِّهم، أنتِ لا ترغبين إلَّا في الحزن، لِنَفسكِ ولمن توهمينهم بأنك تحبينهم".

مَدَدتُ أصبعي مرَّةً أخرى إلى كتفه، لكنَّه دفعها بيده قبل أن ألمسه، وأضاف: "لا أريد أن أراكِ مَرَّةً أخرى".

أردتُ أن أجرحه، أردتُ بكلماتٍ قليلة أن أُصيبه بأكبر قدر من الألم الذي أَشْعَرَني به طوالَ الأشهر السابقة، قلت له: "أنت مثل والِدِكَ، ليس مَن رَبَّاكَ، بل ذلك اللص الذي هرب فور سماعه بمولدك من تلك الذي زرع فيها بذورَه في رَحِمِها، أنت مثل أُمِّكَ، ليسَت مَن رَبَّتكَ وعَلَّمَتكَ العَزفَ على البيانو وحَبَّبَتكَ في الشعر، أنت مثل مَن تحمل نفس دمائها، التي لو لم تَعرِضْكَ للتَّبَنِّي لقَذَفَت بكَ إلى الشوارع لتموت، حتى لا تُزعِجَها بينما يستلقي زبائنها بين ساقيها. لقد سألتَ نفسَكَ ذات مرة: مَن أنا؟ والآن أنت تعرف الإجابة، أنتَ ثَمَرةُ لِصٍّ وعاهِرَة... هذا هو أنتَ".

جلس راينر ببطء على الفراش، وضع مرفقيه على ركبيته، وأحنى رأسه بين راحَتَيْه. اقتربتُ منه واعتذرتُ عن كلماتي، لكنه لم يَقُلْ شيئًا، سمعتُ تَنفُّسَه، وجلستُ بجواره أتوسَّل إليه أن يقول شيئًا، أي شيء على الإطلاق مهما بلغت فظاعته، لكنه لم ينطق.

جلسنا هكذا لوقتٍ طويل بجوار بعضنا، حَلَّ المساء ولم يتحرَّك من موضعه، نَهَضتُ، وقلت له إني سآتي غدًا، وفي اليوم التالي لم أعثر عليه في البيت، ولم يكن هناك أيضًا في الأيام اللاحقة، حينها قال لي أحد جيرانه إن راينر رحل بعيدًا.

***

ذات ليلة استيقظت ولا زلت أَتشبَّث ببقايا حُلمٍ يرقد فيه راينر بجواري على الفراش، وللمرَّة الأولى أشعر بقلبي ورَحِمي وذلك الشيء بين ساقيَّ يخفقون معًا كأنهم عضوٌ واحد.

حتى ذلك الحين كنت أجهل ذلك الألمَ اللذيذ وذلك الاشتياق المرَّ لإحضار حياة جديدة. نَهَضتُ من الفِراش ووقفتُ أمام المرآة، نَزَعتُ عني ثياب النوم ببطءٍ، وألقيت بها على الأرض، ألقى القمر

ضوءه على جسدي، ووَضعتُ يدي على بطني، وكأنني أحوط الحياة بداخلها رغم أن رحمي كان فارغًا.

استيقظتُ، ومَضيتُ لزيارة كلارا في "العش"، وتذكَّرنا المحادثة التي دارت بينها وسارة حول الأمومة، ثم ذهبنا إلى متجر بيع المنتجات التي صنعها نزلاء "العش". مَرَرتُ بالمعروضات، ولامَسَت أصابعي التصميماتِ الخشبيَّةَ والورقية والمعدنية، الملبوسات والأثاث. قد تتمايل إحدى المنتجات في يدي فأضعها في حقيبتي، ثم حين ذهبتُ لأدفع ثمنَ الأشياء أذهلني ما جَمَعتُ في حقيبتي، قالت لي كلارا: "أنتِ تريدين أن تصبحي أمًّا!".

نظَرتُ إلى ما أخرَجتُه: طاقية رأس للرُّضَّع، وقُبَّعة صغيرة، وزوج أحذية صغير في حجم الإصبع. عندما وصلت البيتَ وضعت هذه الأغراض في حقيبة داخل خزانتي بغرفتي، واعتدتُ من حينٍ لآخر أن أُخرِجَها من حقيبتي وأبسطها على فراشي.

مَرَّت السنوات، لكنَّني لم أَنْسَ رايتر، وصار يؤلمني كلٌّ من حُبِّي وكراهيتي له على حَدٍّ سواء. اعتدتُ الذهاب إلى منزله، وكنت أطرق الباب لو كان نهارًا، وإن كان ليلًا كنت أنظر لأرى ما إذا كان هناك ضوءٌ خلف الستائر، لكنه كان خاليًا، كما كانت مشاعري، شعرتُ أن الحب والكراهية يمزِّقانني إربًا، ودفع الاثنان بي إلى الحزن، فلم تكن ثَمَّةَ وجهة أخرى ليُفرَّغوا فيها، لم يكن لي وجود في حياة مَن تَنْصَبُّ ناحيته هذه المشاعر، بينما كان هو حاضرًا في حياتي أكثر مني.

لم أَعُد أتردَّد على كلارا، وقلت لها ذات مرة: "أرغب في رؤيتِكِ كثيرًا، لكنني أخشى المجيء هنا"، لم أَقُل ما يخيفني حَقًّا، لكنها استَشعَرَت أنني أخاف، ليس ممَّا رأيته هناك، بل من مشاعري.

***

مرَّت السنوات، ومات أبي في شهر أكتوبر، بعد ذلك، وكلَّما رأتني أمي في الصباح، أخبرتني أن يومًا فارغًا آخر بانتظاري بدلًا من أن تتمنَّى لي يومًا سعيدًا، في المساء حين أتمنَّى لها ليلةً طيبة تخبرني كم تُشفِق عليَّ بسبب فراشي الخالي، وبين الصباح والمساء كانت تخبرني ببعض النصائح من الكُتُب المقدَّسة اليهودية، والتي ربما اخترَعَتها بنفسها: أن المرأة بغير نَسْلٍ ليست بشرًا، وأضافت إلى هذه الحكمة: "حياتُكِ بلا معنى".

بعدما تزوَّج أخي بمارتا فتح عيادةً في بيته، وتعامَلَ هناك مع المرضى النفسيِّين، تَوسَّلتُ إليه أن يسمح لي بالانتقال إلى بيته، لكنه شرح لي أنهم لا يملكون ما يكفي من المال أو المساحة؛ لأن كلَّ عامٍ يأتي مولودٌ جديد، في البداية كانت ماتيلدا، ثم مارتين، ثم أوليفر وإرنست وصوفي، وأخيرًا آنا.

كلَّما تُرِكنا وحدنا لبضع لحظات، وكان من النادر أن نحظى بوقتٍ على انفراد لأكثر من ذلك، كنت أتوسَّل إليه أن أنتقل إلى بيته، ظَلَلتُ أتوسَّل إليه حتى اليوم الذي أخبرني فيه أن مينا، شقيقة زوجته، ستنتقل للعيش معهم.

مرَّت السنوات ولم أَعُد أشعر أنني على ما يُرام. حين أستيقظ في الصباح كان جُزءٌ مني يبقى في الفِراش، ربما لأنني أردتُ أن أتحرَّر من نفسي، من ذلك الشطر الذي يُعتَصَرُ حُزنًا، لكن ظلَّ الحزن يؤلمني مهما حاوَلتُ أن أقسِّم نفسي، أصبح هذا الألم المدمر هو سيرتي، جزءًا من نمط كلِّ يوم، حتى لم أَعُد أَلحَظُ مرورَ السنوات، حتى أحلامي تشابَهَت عليَّ.

ذات مرةٍ حَلمتُ أن بيتي يغرق، تنهمر عليه المياه من كل صوب، أكان هذا فيضانًا؟ سألتُ نفسي في الحلم، أردتُ أن أهرب، لكنَّ صرخات طفلٍ ما ظلَّت تصدح من الجدران، هؤلاء أطفالي! قام أحدهم

بِلَصقِهِم داخل الحائط، هكذا قلتُ لنفسي في الحلم، حَكَكتُ الحائِطَ بأصابعي، ومزَّقتُ عنه الطلاء، ومَزَّقتُ الحائِطَ بأظافري، ظَلَّ الماء يتدفَّق أكثر فأكثر، غَطَّى الماء رأسي فشعرتُ بالغرق، لكن رغم ذلك سمعتُ صرخات الطفل من بين الجدران.

***

تفادَيتُ النظر في المرايا، لكنني كُلَّما نَظرتُ إلى إحدى لوحات دورر[1] بدا لي أنني أشاهد نفسي، التقطتُ في الرَّسمَةِ كينونةً ما تحدِّق في الفراغ، لها جناحان، لكنها ليست بملاكٍ، كانت تجسيدًا لمنخوليا، رأسها محنيَّة، ولم تسندها بقبضتها المُحكَمة، بل سَقَطَت على صدرها، بينما استرخت يَدُها الأخرى على حِجرها تُمسِكُ عدَستَيْن برقَّة.

مالت رأسي أيضًا وسقطت على صدري، فأحكَمتُ قبضتي وكأنها تستعدُّ لحماية نفسها من الألم، لكنها لم تتمكَّن من الإمساك بها، وسقَطَت على ساقي، بينما استرخت اليدُ الأخرى لأنني كنت أعلم أني سأعجز عن إنقاذ نفسي من الغرق وأنا أتعلَّق بقشَّة.

وجهُ دورر المخبول تَغشاه الظلال، ومن بين هذه الظلال الْتَمَعَ بَياضُ عينَيْها، وتسمَّرَت نظراتها على غيابٍ ما. يتألَّق البحر في الخلفية أيضًا كوميض بياض عَيْنَيْها والسماء بوَهَجِها المبهر، ثمَّة مُذنَّبٌ سيختفي من سماء ملنخوليا، وسيغطس عالَمُها مرَّةً أخرى في الأسى.

قُربَ هذا المتَّسعِ المائي يمكن رؤية مدينة، باقي العالم هناك، ثَمَّة أناس آخرون لكن ملنخوليا مُنفَصِلَة عن هذا، وحدها، وأنا أيضًا كنت أخطو نحو الغياب، خَلَت سمائي وشملتني الكآبة، حاوَطَني الخرابُ،

(1) آلبرخت دورر: رسام ألماني من عصر النهضة الألمانية (1471 - 1528)، ملنخوليا هي إحدى لوحاته التي رسمها عام 1514.

والأقربون فَصَلَتهم عني أَبَديَّةٌ لا يمكن اجتيازها، أبديَّة لا يمكن لأحد أن يشرحها سوى زينون[1].

في اللوحة تستعين ملنخوليا بأمرَيْن لتتخلَّص من ألَمِها: ثمَّة طَلسَمٌ مُربَّعٌ مُعلَّقٌ خلفها، عليه ستة عشر رقمًا؛ وذلك لجذب طاقة المشترى العلاجية، والتي يمكنها أن تواجِه طاقة عطارد التي تزيد الحزن. ثمَّة ساعة رملية بجوار الطلسم، وفوقه يوجد جرسٌ وميزان. نزل نِصفُ الرَّمل بالفعل، وتساوَت كفَّتا الميزان، وثبت والجرس، رغم أنها وفقًا لتوقيتي يمكنها أن تَدُقَّ في الساعة الأخيرة، أو ربما توقَّف الوقت وكذلك سيتوقَّف الرمل في الساعة الزجاجية. لا هنا ولا هناك، وتساوت كِفَّتا الميزان لتوضِّح أن كُلَّ شيء في تَساوٍ تام بالفعل وبلا معنى، ولا جدوى من قَرْع الجرس.

***

تجلس ملنخوليا بجوار المبنى غير المكتمل مُحاطَة بالأدوات، يبدو عليها أنها رفَضَت كُلَّ شيء، وكأن شيئًا ما يخبرها أن البناء لن يكتمل. سُلَّمٌ مَسنودٌ على المبنى، وبجوار السُّلَّم يوجد حَجَرٌ ضخم، هل يتعيَّن على ملنخوليا أن تتسلَّقه لكي تصعد على السُّلَّم إلى المبنى؟ لكن الحجر ليس مصقولًا.

ملنخوليا مُحاطة بالعديد من أدوات النجارة وتقطيع الأحجار، لكن كل شيء متروكٌ بعناية، إنها تعلم ألَّا شيءَ يكتمل، وتعلم أن كُلَّ الأشياء في العالم بلا جدوى، ومن العبثِ القيامُ بأيِّ شيء، لقد تَسلَّلَت العبثيَّةُ إلى كُلِّ الأشياء.

المبنى الواقع خلف ملنخوليا هو حياتها التي ستظلُّ ناقِصَةً كيفما عاشتها، ومهما شُيِّد فيها، هباءً. هل تكون الغاية من وجود الميزان

(1) زينون الإيلي أحد فلاسفة ما قبل سقراط، عاش في القرن الخامس قبل الميلاد.

خلف ملنخوليا هو وَزْنُ ما تحتاجه للبناء؟ أم عساه يكون رمزًا لأثقال لا تنتهي، وحسابات دائمة، وحيرة مُؤبَّدة؟.

أن تعيش أو لا تعيش، هذا السؤال مكتوبٌ في الرَّسمة، في الوجوه الغارقة في الظلام، في بَياض العين اللامعة. في لوحة دورر ملنخوليا لديها أجنِحةٌ، لكن لا أحدَ يعتقد بأنها حلَّقت بهما من قبل، إنهما حتى ليسا مُزَخْرَفَيْن. ربما كان لديها جناحان فقط لكي يعوقا خطواتها أثناء مشيها؛ حتى يثقِلا عليها ويُذَكِّراها -بعد فوات الأوان- أن بوسعها الطيران.

أصبح سؤال "أن تعيش أو لا تعيش" الذي بدا أن ملنخوليا تسأله لنفسها وجوديًّا. تحاشَيتُ هذا السؤال الذي أثاره بداخلي طيفٌ ما، كما تحاشَيتُ النظر إلى المرآة. كان بيتي ذاته مرآة، ظلًّا للطَّيف الذي يسألني السُّؤال الذي تأرجح بين الوجود والعدم. وبسببه كنتُ أطوف الشوارع على غير هُدًى، وأقف على الجسور، أو أدخل إلى المعابد والكنائس، أو أجلس على مقعدٍ حتى لو انسلَّ البرد إلى عظامي، حتى لو هَبَّت الرياح بشدَّة حتى أَغلقتُ عيني، كنت أفعل ذلك وكأنني أُنَفِّس عن روحي الأشبه بنسيجٍ امتصَّ رائِحَةً كريهة.

أثناء تجوُّلي في الشوارع، كانت نظراتي تسقط أحيانًا عن غير قصد على مُسطَّحٍ زجاجيٍّ كبير، أو أسرح في مياه النهر أو في بِركَة، وأجد وجهي رغمًا عني ينظر إلى الفراغ، ومهما حاوَلتُ إخراسَ طَيفي الداخلي، ومهما سَعيتُ لتوجيه نظراتي إلى النور الذي كان من المفترَض أن يُدمِّرَه، ظلَّ طيفي يسألني: أن أعيش أو لا أعيش؟.

ذات ظهيرةٍ، بعد تمشيةٍ طويلة في المدينة قالت لي أمي ساخرة: "ثَمَّة شابٌّ بشوشُ الوجه يبحث عَنكِ، طلب أن ينتظركِ هنا؛ لذا أمضينا بعضَ الوقت في غرفَتِكِ، لكنه قليل الكلام".

مضيتُ إلى غرفتي وكان فيها راينر يجلس على فِراشي.

قال راير: "لقد عُدتُ".

نهـضَ فاتَّجهـتُ ناحِيَتَـه، تلامَسَـت رؤوسـنا، معبدانـا، الـدَّمُ تدفَّـق بجـوار الـدَّم، فسـمعت تنفُّسَـه الثقيـل.

قال: "عُدتُ، لكن لا أعلم لماذا".

أبعَـدتُ رأسي عـن رأسـه ببـطء. تغـيَّرَت ملامحـه، وصِرتُ أرى في عينيـه فراغًا يحـدِّق فيَّ، كان في الرابعـة والثلاثـين، يكـبرُ أُمَّـه عامًـا حـين التقيناهـا ذات يـومٍ اثنـين في ذلـك المربَّـع النـائي في ڤيينـا. إنـه يُشـبِهُها، ليـس شـكلًا، لكنهـا كانـت أَخبَرَتـه منـذ سـنواتٍ أنهـا تعرَّفَـت عليـه لأنـه يشـبه والـده إلى حَـدٍّ كبـير.

أمَّـا بالنسـبة لسِـنِّه فقـد ضَعُـف شَـعرُه، وسَـقَطَت أسـنانه، والتـوت عظامـه، وتقوَّصَـت وتغضَّنَـت عـلى نحـوٍ غريـب. جلسـنا عـلى فـراشي، فأخـبرني أن كُلَّ مـا تبقَّـى لـه مـمَّا تركـه لـه أبـواه بالتبنِّـي هـو منـزل شـونلاترن جـاس في ڤيينـا، والباقـي خسره في الشُّرب والقُـمار، وعـلى وجـه التحديـد لعـب القُـمار أثنـاء الـشرب.

أمسـك كلٌّ مِنَّـا بِيَـدِ الآخـر، اعتدنـا القيـام بذلـك منـذ زمـن، وكُنَّـا نشـعر بخِفَّـةٍ أرواحنـا بمعـزِلٍ عـن أجسـادنا، ولاحقًـا لم نَعُـد نشـعر بـشيء أَبْعَـدَ مـن أجسـادنا، والآن ارتجَفَـت أرواحُنـا، تَغلغَلَـت في أجسـادنا التـي ظَلَّـل عليهـا مُبكِّـرًا تَقـدُّم السِّـنِّ، لكنهـا رجفـة شـديدة الرِّقَّـة.

تركنـا الشَّـقَّة مَدفوعَـيْن بنظـرات أمـي المتهكِّمـة، لم ننطـق بكلمـةٍ حتـى وصلنـا منزلـه، حيـث كان كل شيء مهجـورًا، رغـم أنـه بـدا مألوفًـا بشـدَّة. كل شيء كـما هـو، لكـن سـنوات مـن عـدم التهويـة والغبـار المتراكِـم أعطـت انطباعًـا باختـلافٍ مـا ومـوتٍ مـا.

خَلَّفَـت خطواتُنـا آثـارًا في الأرض المترِبـة. جـذب رايـنر واحـدةً مـن السـتائر فأثـار دَوَّامَـةً مـن التُّراب، مَسـحتُ الـتراب عـن المرايـا بأصابعـي

ويدي، سمعتُ راينر يذرع الخطى في الغرفة ويقول: "أعرف أنك تحسبيني عُدتُ بحثًا عن الراحة، أنا لا أبحث عن الراحة، فقط أولئك الذين يحملون بداخلهم شغفًا للحياة هم مَن يبحثون عن الراحة، أمَّا أنا فقد مات كلُّ شيء بداخلي، ليس هناك ما يمكنه أن يبعث فيَّ الحياة مرَّةً أخرى، سامحيني، لكن حتى حُبُّكِ لا يمكنه القيام بذلك، دَعَّمَني حُبُّكِ في فترةٍ كنتُ فيها على شفا حفرة من النار، أمَّا الآن حتى هذه الحفرة لم يَعُد لها وجود. لم يَعُد لأي شيء وجودٌ في نظري، لا صراعَ ولا مُتعَة، لقد صارَعتُ الشعور بالرفض، لم يسبق لي أن صارَعتُ لِنَيْلِ حُبِّكِ، لقد كان هديةً لي، ربما لهذا رفضته، فنحن لا نُقدِّر الهدايا إلَّا إذا استحققناها. ثم رُحتُ أُفتِّش عن الحب، لم أعرف أن الحُبَّ ليس جائِزةً يمكن الفوز بها، خسرتُ الجائزة، ورُحتُ أُفتِّش عن المتعة، ولم أستمتع بها، بل دَمَّرتُ نفسي بها، كل تجربة كانت أكثر ابتذالًا ممَّا قبلها، وكلَّما زادت التجربة قُوَّةً كلَّما قَلَّت المتعة. فقدتُ كُلَّ عقائدي، وخسرتُ معها نفسي، والآن أصبَحَت كُلُّ الأمور بلا معنى، كُلٌّ من الحياة والموت؛ ولهذا أقول إنني لم أَعُدْ سعيًا للراحة، فليس ثمَّةَ راحَةٌ لي، أنا لا أعرف سبب عودتي".

مسَحتُ التراب عن آخِرِ مرآة ورأيت فيها انعكاس راينر واقفًا خلفي. التفتُّ ناحيته، وأثناء تَبادُلِنا لِقُبلَةٍ تذوَّقنا التُّرابَ العالِقَ على شَفَتَيْنا، وحين سحب شفتَيْه بعيدًا عني قال: "اعتدتُ أن أسأل نفسي مَن أنا، وكنت أتمنَّى أن أعثر في إجابتي على معنى لوجودي، على شيء ما يربطني بباقي الكون، عن المرحلة التي يَصِلُ إليها كُلُّ مَن يسأل هذا السؤال، اعتدتُ أن أسأل نفسي: مَن أنا، والآن أعرف: أنا نَكِرَة".

في اليوم التالي تحدَّثتُ مع أخي، ووافَقَ على لقاء راينر في مكتبه. لكن بعد عِدَّة جلسات معه قال لي: "لا يمكن لأحدٍ أن يُساعِدَه، إنه يرفض التَّحرُّرَ من تعذيب ذاته، مُشكِلَتُه بسيطة: ثَمَّة تجربةٌ مدفونةٌ

في أعماقه خاضَها في عامه الأول، وقد سَلَّمَته أُمُّه لآخرين، لكنه لا يرغب في حَلِّ المشكلة، بل يستمتع بها".

قلتُ: "إنه لا يستمتع بها، بل يتألَّم".

قال لي أخي: "المتعة والمعاناة... كُلُّها أمورٌ واحدة، يُقال لها الاستمتاع بالمتعة السلبيَّة".

***

رَحَلَت أُمِّي لِعدَّة أشهر لزيارة حمَّامات باد جاستين، وذهبتُ أنا للعيش مع رايـنر.

في أول يوم استيقظتُ فيه بمنزله قال لي: "حَلمتُ أنني أُشيِّد منزلًا، لكن لأسفل لا لأعلى، لم أكُن أبنيه بل أحفره، سألتُ نفسي هل سيكون هذا بيتًا لي أم حفرة. رُحتُ أحفر وأحفر وأحفر، وأدهشني كيف كانت يداي تحفران بسرعةٍ وكأنَّهما تبتلعان الأرض. رفعتُ بصري لأرى أيَّ منزلٍ بَنَيتُ، وبالكاد رأيت شعاعَ نورٍ فوقي، كانت السماء نُقطةً صغيرة، واصَلتُ الحفر لأنني لم أستطِعْ العودة إلى السطح. واصَلتُ الحفر حتى آخر بصيص نور؛ لكي أنسى ما فَعلتُ".

أحيانًا كُنَّا ننظر معًا إلى لوحاتٍ رَسَمَها له ذاك الذي كان بمثابَةِ أبيه.

قال رايـنر بينما يُلملِمُ اللوحات: "هذا كل ما تَبقَّى منِّي، وهذه أيضًا ستصير رمادًا، لكنها لم تَعُد تعني شيئًا لي، ذات يوم كان هناك خيطٌ رفيع يربطني بذلك الطفل، وهذا الصَّبيُّ، خيطٌ ربَطَنا وحافَظَ على روحٍ واحدة عبر الزمن. سقطت أشياء كثيرةٌ لتحلَّ مَحلَّها أشياء جديدة، أشياء لا يُعلم عنها إلا حينها، وعلى الرغم من ذلك ظَلَّ بريقُ روحي كما هو، والآن لم يَعُد هناك شيء مشتَرَكٌ يجمعني بهم، الآن أنا لا شيء، الآن سيكون من الأفضل أن أصير عدمًا في أسرع وقت".

قلتُ له إن خَيطَ روحه هذا الذي يربطه من لحظة ميلاده حتى لحظتنا هذه لا يمكن أن ينقطع. قلتُ له إن اليأس حالَ بينه وبين رؤية هذا الخيط، وأن التَّغيُّرَ الذي حدث له بالأحرى هو ما قَطَعَ الخيط.

لم يَعُد هناك شَغَفٌ أو مُتعَة في هذا الجسد حين مارسنا الحب، فقط بَدَا أنَّه يحاول أن يدفع يأسَه بعيدًا، وكذا صار يأسُه أكثرَ حضورًا حول جَسَدَيْنا حين التحما. لكني ظللتُ أشعر بخفقان قلبي ورَحِمي بين ساقَيَّ في وقتٍ واحد، شعرتُ بذلك الألم اللذيذ، وذلك الشوق المرِّ لخَلقِ حياةٍ جديدة.

قلتُ لراينر ذات صباح: "أريد أن نُنجِبَ طفلًا".

"لكي نُلقي به في عَبَثِ الوجود؟".

بعد عِدَّة أسابيع شعرتُ بالإعياء الشديد وتقيَّأتُ، أصابني مَغَصٌ في الأيام التالية أيضًا، وصار عندي سببٌ أَدْعَى للاعتقاد بأنني أحمل بداخلي حياة جديدة. زُرتُ الطبيب وبعد أن فحصني أكَّد الأمر: "أبشري... أنتِ حُبلى".

وإذ أمشي في الشوارع شَعرتُ بالسعادة تتنفَّس بداخلي.

قال لي راينر عندما رآني: "تبدين سعيدة! كم أتمنَّى أن أُشارِكَكِ هذا الشعور، لكنَّ حُزني أقوى من رغبتي".

"عليكَ أن تفرح، ألَا ترغب أن تكون أبًا؟".

"سَبَق وقلتُ لكِ إنني لا أرغب في خلق حياةٍ جديدةٍ ستَسقُطُ فورَ ميلادها في عبثيَّة الوجود".

"ولماذا يكون وجودُه عَبَثًا؟ سيعتمد الأمرُ علينا كيف سيختبر هذا الوجود".

لم يُجِبْ راينر بكلمة، وحين نَهضتُ من الفِراش ومضيت نحو النافذة لأزيح الستائر سمعته يقول: "أريد أن أرى أمي".

انطلقنا في إثر أُمِّه كما فعلنا منذ سنواتٍ مضت. بلغنا الشارع المنشود ودخلنا المنزل. رأينا في الرَّدهَةِ فتاةً تأخذ نقودًا من رَجُلٍ مُسِنٍّ أحدبَ، سرعان ما غادر مُحرَجًا بعض الشيء. نظَرَت الفتاةُ إلينا.

قال راينر: "أرغب في رؤية جيرترود".

"نعم"- ودون دعوةٍ دخل الغرفة التي وُلِدَ فيها، وقال: "ألتقيها هنا منذ خمسة عشر عامًا".

قالت الفتاة: "جيرترود ماتت، مرَّت بضع سنوات على ذلك، في فصل الشتاء، ماتت من الجوع أو البرد... أحدهما، أغلب مَن يمتهنون مهنتنا غالبًا ما يموتون هكذا، دفنَّاها كما يُدفن أَغلَبُنا، ليس في مقابر، بل حُفرَة، حيث يُدفَن الفقراء والمشرَّدون، لكن لا تَحْسَبَا أن جنازتها كانت فقيرةً، فحتى الأباطرة كانوا ليحسدونها على جنازةٍ كهذه، كُلُّ مَن يعمل في مهنتنا حضرها، مئاتُ الفتيات والنساء اجتمعن حول الحفرة، واختلطت دموعنا برقائق الثلج على وجوهنا".

مضى راينر ناحيةَ الفِراش على مَهلٍ، حيث جلَسَت أمُّه قبل سنوات، حين أخبَرَته أنَّها وَلَدَته في هذا المكان. جلس على الفِراش، وراح يُمرِّر أصابعه على الفَرش المتَّسِخ.

سألَته الفتاة: "لِمَ تبحث عن جيرتورد إذن؟".

نهض راينر من الفراش، شَكَرَ الفتاة، ثم غادَرْنا المنزل.

أثناء سَيْرِنا نظر إلى الأرض وقال: "كان بوسعي القيام بأي شيء لها، حتى منذ سنوات، كان بوسعي القيام بأي شيء".

أردتُ أن أقول له ألّا يلوم نفسه، لكنني كنت أعلم أن الكلمات نادرًا ما تُهَدِّئ المرء أو تُريحه.

وحين اجتزنا مسرحَ كارل رأينا إعلانًا كبيرًا عن عرض مسرحيات تراچيديَّةٍ قديمة. وكتب أحدهم على حائط المسرح بالفحم الأسود بيتًا لبندار[1]: "ما الإنسان إلا ظِلٌّ يَحلُم".

لم ننطق بكلمة حتى بلغنا قناةَ الدانوب. فكَّر راينر في هذا البيت وقال: "كون الإنسان ظَلَّ يحلم هو ما يحوي مشاعرنا السيِّئة منذ بدء الخليقة وحتى يومنا هذا، قال كيركجارد[2] ذات مرة إنه على الرغم من التغيُّرات الكبيرة في العالم فالمأساة لا تتغيَّر، كما أن البكاء يُلازِمُ البشرية جمعاء، على الرغم من أنني لا أعتقد أن الحزن مرتبط بالبكاء.

في قاعدة الوجود الإنساني يظلُّ السؤالُ عن معنى الحياة حاضرًا، مَن يبلغ هذا العُمقَ، مَن يغطس حتى هناك، سيواجه في لحظةٍ ما عَبثيَّةَ الوجود وَجهًا لوجهٍ، وبحزنٍ عميق. بعض الناس يختبرون -في هدوء وسلامٍ- الوجودَ بوصفه مأساويًا، تتأصَّل المأساة في التجربة الحيَّة لحياة الشخص بوصفها عبثًا، وليس في الطريقة التي يُعبِّر بها عن تلك التجربة".

أرَدتُ أن أنتشله من هذه الأفكار السوداوية؛ فقلتُ له: "أريد أن نذهب سويًّا إلى مكانٍ لبضعة أيام، هل تذكر كيف كُنَّا نحلم بالعَيْشِ في البُندقيَّة؟".

أومأ برأسه وابتلع ريقه وتوقَّف للحظةٍ، ثم واصَلنا التَّحدُّثَ بطول الرصيف، بدا أنه أيضًا يرغب في تغيير المحادَثَة، لكن شعوره بالمرارة حال بينه وبين التحدُّثِ في أمرٍ آخر.

---

(1) شاعر غنائي يوناني عاش في القرن الخامس قبل الميلاد.

(2) سورين كيركجارد 1813 - 1855 فيلسوف وعالم لاهوت دنماركي.

"أن يعيش المرءُ وجودًا بائسًا يثير التساؤل حول جدوى وجود الشخص من الأساس، وجدوى الوجود بصفة عامَّة، والبحث عن معنى للوجود هو بحثٌ عمَّا هو غير مرئي، بحث عن الأساسيات غير المادية، ويحمل هذا البحث بين طيَّاته خَلاصًا من المأساة حين يعثر المرء عن معنى لحياته؛ لأن هذا المعنى مُرتَبِطٌ بكلِّ الموجودات، بما في ذلك وجود الإنسان، وكل ما هو موجود بصفة عامة.

إن لم يكن هناك أمرٌ ما وراء العالم المادي فإن قوانين العالم ستنتهي في نهاية الأمر، وليس البحث عن معنى الحياة أو مواجهة مأساة الوجود أمرًا اختياريًا، إنه يَحدُثُ قَهرًا، والنَّفسُ لا تدري ما إذا كانت تجبر نفسها على ذلك أم أن قُوًى مجهولةً هي ما تدفعها نحو ذلك، تُجبِرها على مواجهة هذا العَبَث، في الوقت ذاته يمكن للنفس أن تَعجَزَ عن المواصَلة".

كان يتحدَّث كأنه يُصارِعُ نفسه، وكأنه يعرف نتائج هذا الصِّراع مُسبَقًا. أردتُ أن أجذب أفكاره بعيدًا عن هذا الصراع، لكنني كنتُ أعلم أن المواجَهَةَ ليست علاجًا لألمه؛ لذلك أَشَرتُ لِظِلِّ شجرةٍ ارتخى على صفحة المياه.

"هل تذكر كيف كُنَّا نلعب بظلال أصابعنا حين كُنَّا أطفالًا؟".

قال راينر: "ما الإنسان سوى ظِلٍّ يَحلُم".

لم أَنطِق بكلمة.

سألني: "هل ستتذكَّرين مَحاسِني؟".

"لماذا تتحدَّث هكذا؟ لم ينتهِ شيءٌ".

"لن تستطيعي تَذَكُّرَ مَحاسني؛ فأنا لم أُدمِّر حياةَ المرأة التي أنجبتني فحسب، ولم أكتفِ بتدمير حياتي، لقد دمَّرتُ حياتَكِ أيضًا".

"لا تتحدَّث هكذا".

"لقد بَقيتِ وحيدةً بسببي".

"أنا لستُ وحيدةً، أنت معي".

"أنا لا وجودَ لي، هل ستذكرين محاسِني؟".

"لا داعيَ لذلك؛ فسأكون مَعكَ".

قال بصوتٍ مُتضرِّعٍ: "من أجل محاسني؟".

وضع يده اليمنى في جيبه وأخرج قطعةَ قماشٍ حَمراءَ. قبل سنواتٍ عديدة حين كُنَّا صغارًا قَطَعتُ هذا الجيبَ الصغير وأعطيتُه إيَّاه كتذكارٍ أثناء وداعنا حتى يتذكَّرَني. والآن طوى هذه القطعة الحمراء التي في حجم قلب صغير ووضعها في راحة يدي، ثم افترقَت يدانا وابتعد خطوةً إثرَ الخطوة، ثم خطوة أخرى باتجاه النهر، ثم رأيت خُطوَتَه الأخيرة قبل أن يسقط في المياه لتسحبه بعيدًا.

رَكضتُ بطول الرصيف، وصرختُ طالِبَةً مُساعَدةً، بينما تختفي جُثَّتُه عن أنظاري. ثم شَعرتُ بضَعفٍ سَحَبَني بعيدًا عن ألَمِي، ودنا بي إلى فقدان الوعي.

***

سحبَ النَّهرُ جُثَّتَه إلى مخارج المدينة. نقلني إلى المستشفى أناسٌ شاهدوني أركض بطول الرصيف طالِبَةً المساعَدَة قبل أن أسقط على رُكبتَيَّ، وأخبط راحتَيْ يديَّ في الرصيف وأفقد الوعي.

استلقيتُ على فِراش المستشفى، ورُحتُ أنظر إلى يديَّ الداميتين. أنقذني جنونٌ صامِتٌ من الشعور بالألم. تحدَّثتُ إلى رايِنر، وفي تلك اللحظات كان لا يزال حيًّا في نظري؛ وهذا ما أنقذني، قلتُ له "ستعود"، قلتُ له إن كلَّ شيء أصبح من الماضي: بَحثُكَ الأبديُّ، ضَياعُ نَفسِكَ الَّذي لا نهايةَ له، قسوَتُكَ تجاهي ورغبتي في رَدِّ قَسوَتِكَ إليك، كل الألم... كل شيء أصبح من الماضي.

سؤالُكَ: مَن أنا، لقد أجاب عنه الموت: أنت لا شيء، ومواجَهَتُكَ للموت وجهًا لوجه، ورغبتك في السقوط فيه. ستعود يا راينر، قلتُ له، ما النهر سوى مَطهَرٍ كبير، هل تسمعني يا راينر؟ ما هو إلى إبحارٌ بعيدٌ، سأنتَظِرُكَ عند نهاية النهر يا راينر، سأنتَظِرُكَ هناك حيث يجري فيما بعدُ إلى وجودٍ آخر. أعرف أنَّكَ هنا يا راينر، ها هي يدي... انظُرْ إلى يدي، كلُّ شيء سيكون بخير يا راينر، عندما تنهي رحلتكَ وتخرج من النهر ستحتاج فقط لتغيير ملابسك، ستكون بحاجَةٍ إلى ملابس جديدة، وكل شيء سيكون بخير، صدِّقني يا راينر، صدِّقني كما أُصدِّق أنا ما أقوله، ها هي يدي... أَمْسِكْ بها وسأنتَشِلُكَ، ثم ننطلق إلى وجود جديد.

تحدَّثتُ بهذا الكلام إلى نفسي إذ أغمض عيني، وأمدُّ يدي باتجاه راينر، لكنها اصطَدَمَت بالحائط، وحين فتحتُ عيني لم أَرَ حولي سوى أَسِرَّة المستشفى.

عُدتُ للواقع وشعرتُ بالخوف، أغلب الفتيات غير المتزوِّجات اللاتي يَحبَلنَ في سِنِّي يَنتَحِرنَ لحماية شَرَفِ العائلة من العار، أو تهجرهن أُسَرُهنَّ فيَترُكنَ بيوتَهنَّ ويعملن بالدَّعارة، أو يَقُمنَ سرًّا بعملية إجهاض.

استلقيتُ على فِراش المستشفى أضع يدي على بطني، ونظرتُ إلى السقف الأبيض أعلاي، وتَذكَّرتُ كلمات النَّبيِّ نحميا: "مَلْعُونٌ الْيَوْمُ الَّذِي وُلِدْتُ فِيهِ! الْيَوْمُ الَّذِي وَلَدَتْنِي فِيهِ أُمِّي لاَ يَكُنْ مُبَارَكًا".

نظرتُ إلى السقف الأبيض فوقي مرَّةً أخرى، وأغمضتُ عيني، ثم تَقلَّبتُ في الفراش ولَعَنتُ يومَ مَولدي، لعنتُ أُمِّي التي لم تَضُمَّ ساقيها لتسحق الرأس التي بالكاد خرجت منها، لَعَنتُ رَحِمَ أُمِّي الذي حملني تسعةَ أشهر، ويا لَيتَه كان قبري، لَعنتُ بذرةَ والدي، ورَغْبَتَه في الاقتراب من أُمِّي ليلةَ حَملِها بي، لَعنتُ الليلَ التي حَمَلَت

فيها بي، لعنتُ اليومَ الأوَّلَ لأوَّلِ البشر وعاطفتهم الأولى، تحوَّل حُزني إلى ألمٍ جَسديٍّ.

تقلَّبتُ في فراشي وواصَلتُ اللَّعنَ، لم يَكُن ثمَّة علاج آخر لألمي، لكنه استمرَّ كأنَّه ينزع اللحم عن عظامي، وحتى عظامي اعتُصِرَت ألمًا من شِدَّة حزني. عجَزتُ عن التَّنفُّس؛ فلَعَنتُ تَنفُّسي أيضًا، لَعنتُ تلك الحاجةَ المُلِحَّة التي لا تنتهي للشهيق والزفير، قلتُ لنفسي إن ألمي سيختفي إذا توقَّفَت أنفاسي.

ثم فكَّرتُ أن الألم لن ينتهي، وأن حزني لن تكونَ له نهاية، لم أعلم حينها أنني أنفصل عنهم، عن الألم والحزن.

عندما غادَرتُ المستشفى، مضينا -أنا والطفل الذي يسكن أحشائي- إلى قناة الدانوب، حيث اختفى رايَنر، وقَفتُ هناك لوقتٍ طويل أُحدِّق في المياه، انحنيتُ، وغَمستُ يدي في المياه، بينما أضع اليد الأخرى على بطني، وهكذا ودَّع ثلاثتنا بعضنا البعض.

في ذلك المساء هاتَفتُ سيجموند فأخبرني أن وقته يسمح بلقائي في اليوم التالي، وأننا بإمكاننا أن نتحدَّث أثناء زيارَتِه لمعرض والِدَةِ وابن الإله في متحف التاريخ الفنون Kunsthistorisches، حيث ستُعرَضُ مئات اللوحات عن حياة العذراء مريم ويسوع من أنحاء العالم.

استوقفتنا قليلًا لَوحَةُ المادونَّا وطفلها لچيوڤاني بيلِّيني، ولوحة "الصَّلب" التي أُحضِرَت من متحف كورير في البندقية، لاحَظنا كيف قامت العذراء بحمل الطفل يسوع الذي أَرهَقَ الحُزنُ وَجهَه، لم تَشِ عيناه نصفُ المغلَقَتَيْن بنظرات طفلٍ، بل بشخص رأى ما يتخطَّى الطفولة. لم تكن نظرةً إلى ما يُواجِهُه، بل ناحية ألمٍ عظيمٍ، خسارة رهيبة، وكأنَّ هذا الطفل قد استشعر مصيرَه، وانفصاله عن ذلك الشخص الذي يقف في تلك اللحظة خلفه في سَلامٍ وحماية، والتي

ستشعر بعد سنواتٍ عديدة بحزنٍ شديد بجوار الصَّليب؛ لأنها ستعجز عن منع الانفصال والخسارة.

هبط الألم حتَّى على شَفَتَيْ الطِّفل، وفي حركات يديه، لقد وضع واحِدَةً على صدره، فوق قلبه، وأمسك بأصابع يَدِه الأخرى الصغيرة أصابِعَ أمِّه، بينما يشير بإبهامه نحو الأسفل.

لا يمكن للألم أن ترى ملامح الحزن على وجه طفلها؛ إذ تنظر صوبَ مكانٍ آخر بعيد، إن النقطة التي تنظر إليها تقع خارج اللوحة. إنها تُحيطه بالحماية الكاملة، بينما يسند الطفلُ ظَهرَه على ذراعها، بكتفٍ واحدة بمحاذاة نهدِها الأيسر، فوق قلبها تمامًا. ليس بمقدور الأُمِّ أن ترى حزن طفلها، لكن ربما شعرَت به، ربما تعلم هي أيضًا ما سيحدث، لكنها تُسَلِّم بالأمر، هكذا يجب أن تكون الأمور، وفي هذا تَعزيَة لها.

اتَّجهَت نَظراتُها إلى الأفق خارجَ اللوحة كما لو أنها تنظر إلى بُعدٍ آخر حيث كل شيء محفوظ، حيث كل ما كان وما هو كائِنٌ وما سيكون- يكتسب معناه الحقيقي. ثم نظرنا إلى لوحة "الصلب"، إلى وجه يسوع المملوء رعبًا من ملامح وجه أمِّه الحزينة، كما في لوحة مادونا وطفلها. الآن فقط مُلئَ استِكَانةً ورعبًا، نفس الكلمة ليسوع لحظة نهايته، وأُمُّه تقف بجوار الصليب في أسًى، ذراعاه ممدودتان ورأسها محنيَّة ونظراتها مَعميَّة عن أي شيء حولها إلا ألم روحها، وعيناها التي غطَّاهما السَّوادُ وحَلَّ مكان نظراتهما الأسى الشديد.

تأمَّلنا هاتين اللوحتَيْن لوقتٍ طويل، ثم قُلتُ إن أغلب الفلاسفة وعلماء الدين الذين قرأت لهم، والذين كتبوا في هذا الشأن، اتَّفقوا أنه مع ظهور المسيحية، ومبدأ الخَلاص والقيامة، انتهت المأساة. يؤكِّدون أن المأساة تُدمَّر في المسيحية: من أخطأ يُعاقب بالمعاناة، ومَن يعاني دون ارتكاب خطأ يُجزَى في الحياة الأخرى، وفيها ستكون

جَنَّة المأوى. اتَّفق هؤلاء الفلاسفة واللاهوتيِّين على أن مبدأ الخلاص والخلود يلغي المأساة.

قلت لأخي: "على الرغم من ذلك، انظُرْ إلى هذه اللوحة، أليَسَت المأساة جَلِيَّة هنا؟ في تلك اللحظة التي ترى فيها الأُمُّ ابنَها يموت؟".

لم يَقُل أخي شيئًا، مَددتُ يدِّي نحو اللوحة، نحو الأم الواقفة بجوار ابنها الميت، نحو الجسد المصلوب الذي يموت صاحِبُه أمام مَن وَلَدته، تَساءلتُ بينما لا أزال أمدُّ يدي نحو الأم وابنها: "هل يلغي الخَلاصُ والقيامَةُ المأساةَ أم تكون مُجرَّدَ تَعزيَةٍ؟".

"ليس ثَمَّة عَدلٌ في هذا العالم، لا يوجد عقاب واحِدٌ يمكنه تصحيح ظُلمٍ ما؛ لأن ما مضى لا يمكن تغييره، وأولئك المضرورون من هذا الظلم سيبقون مع خسارتهم، لكن حتى في عالمٍ آخر ما، سيمحو العَدلُ ما وقع من ظُلمٍ في العالم الأول، وفي هذه الحالة سيعود للمجروحين ما خسروه هنا، لا يُعَدُّ ذلك عودة لإنجازاتهم في الحياة، إنٍ هي إلَّا تَعزيَة؛ إذ إن ما فُقِد في لحظةٍ ما لا يمكن أبدًا تعويضه؛ فما فُقِد كان ضروريًّا لحظة اختفائه، وحتى لو استمرَّ وجودنا في عالَمٍ آخر ما بعد مَوتِنا في هذا العالم، فوجودنا في العالم الآخر لن يكون إلَّا تَعزيَةً، مواساة.

في العالم المادي كُلُّ شيء ظالم، وبما أننا نجهل ما إذا كُنَّا سنحيا بعد ذلك في وجودٍ آخر مُعزٍّ أم لا؛ فخَلاصُنا الوحيد في هذا العالم هو بالاستمتاع بمحاسنه وجماله".

ابتسم أخي وقال: "على الرغم من أنها ليست جُملَةً واضِحة إلَّا أن وَقْعَها جميل: الجمال هو خَلاصُنا في هذا العالَم".

أبعَدتُ يدي عن الرجل الذي ينزف على الصليب وعن أُمِّه التي راحت تنظر إليه بحُرقَة، لكن أخي واصَلَ النَّظرَ إلى هذا الجَمال وهذا الارتياح.

قلتُ: "أنا حُبلَى... إنه طفل راينر".

أشاح أخي ببَصَرِه عن اللوحة لكنه لم ينظر إليَّ.

أنزَلتُ يدي على بطني وقلتُ له: "راينر مات... على أحد أن يَنتَزِعَ الجنينَ مِنِّي".

لم يَنطِق أخي بكلمةٍ وراح ينظر إلى الأرض.

"أريدُكَ أن تقوم بذلك".

"أقوم بماذا؟".

"أن تُجهِضَني".

"لا أستطيع".

"أنت تعرف كيف تقوم بذلك".

"أعرف، لكنني لن أستطيع".

قال لي إنه سيُدبِّر لي طبيبًا ماهرًا، ومُمرِّضَةً ليعتنيا بي قَدرَ ما أرغب. قال: "علينا أن نُسرِعَ... أنا راحِلٌ بعد غَدٍ إلى البندقية".

"البندقية"... تَذكَّرتُ أنني حَلمتُ مع راينر بأن نعيش فيها. "لا أريد الذهاب هناك".

"إلى البندقية؟".

"لا أريد الذهاب إلى مستشفى، لا أريد أن أفقد طفلي داخل وحدة إجهاضٍ سِرِّيَّة... بل أريد أن...". وشعرتُ بألمٍ في رحمي، "أريد أن يَتِمَّ ذلك على فراشي".

في اليوم التالي استلقيتُ على فِراشي، وباعَدتُ بين ساقيَّ، بينما كان دكتور كراوس يُعِدُّ الأدوات في رُكنِ الغرفة وبجواره تَقِفُ الممرِّضةُ

المساعِدَة فراو جروباخ. جلس أخي على الفِراش بجواري وشَعَرَ بخَوفي.

قال لي: "لا تخافي"، ووضع راحَةَ يَدِه اليمنى على الجانب الأيسر من عنقي، ارتَعَشَت يدُه وهو يقول: "كل شيء سيكون بخير".

قلتُ: "بخير؟ ربما سيكون هذا خيراً، لكن ليس كل شيء، فبعد ذلك لن يبقى شيءٌ".

قال أخي: "لا"، ومَرَّر يده على جبهتي المتعرِّقة حتى رأسي، "كل شيء سيبقى كما هو الآن".

"هذا أسوأ ما في الأمر"- قلت إذ أحتضن يده بين راحتيَّ، "أن يَظلَّ كُلُّ شيء كما هو الآن"، أنزَلتُ يدَه ويدي إلى بطني.

الأمومة هي أن تَهبَ حياةً جديدة، لكن بالنسبة لي كان الأمر أكثر من ذلك، كان استمرارًا لوجودٍ انتهى بالفعل، "كُلُّ شيء سيبقى كما هو، وكل الأمور ستصير عَدَمًا".

قال لي أخي: "لا تتحدَّثي هكذا"، وسحب يده بعيدًا عن بطني، فجَذبتُها بكلتا يديَّ ووضعتها على عيني "كلُّ شيء سيكون بخير".

طلب الطَّبيبُ من سيجموند أن يرحل، فراو جروباخ كانت تقف بالفعل أعلاي مُمسِكَةً بمنشفةٍ منقوعة في سائلٍ مُرٍّ ليحُثَّني على النوم. صنع أخي علامَةَ وداعنا السِّرِّيَّة منذ كُنَّا صغارًا، مسَّ جبهة رأسي بإبهامه، ثم أنفي وشفتي، أردتُ أن أردَّ له التحية لكنني أغلقتُ شفتيَّ وأغمضتُ عيني.

شعرتُ بأخي إذ ينهض من الفراش، ثم أحسستُ بالمنشفة المرَّة على فمي وأنفي. وإذ أهوي على مهلٍ إلى اللاوعي ظهَرَت أمام عيني المغمَضَتَيْن ذكرى من زمنٍ بعيد، منذ الزمن الذي لم يَكُن للأشياء فيه أسماء بَعدُ، أعطاني أخي شيئًا حادًّا وقال: "سكين".

بعد عِدَّة ساعات، وبينما كنت أستعيد وعيي، شعرت بألمٍ في رَحِمي، مَدَدتُ أصابعي ببطء إلى بطني، فتحتُ عيني، وإذا بكُلِّ الأشياء أمامي تهتزُّ، وبالكاد تعرَّفتُ على ما حولي، لم أعرف أين كُنتُ، أو مَن أنا، وأول ما تذكَّرتُ كان اسم أخي "سيجموند".

ناديتُ بأعلى ما يُمكِنني هامِسَةً: "سيجموند".

"أخوكِ في الغرفة المجاورة"- تناهى إلى سمعي في هذا التشويش صوتٌ أنثويٌّ، كان صوتَ الممرِّضة التي ستبقى معي للاعتناء بي قدرَ ما أريد، "هل أطلب منه الحضور؟".

أومأتُ برأسي إيجابًا.

بعد وقتٍ قليل فُتِحَ الباب وأصبح بإمكاني الرؤية على نحو أوضح قليلًا رغم أنني ظللتُ مُشوَّشَة.

رأيتُ أنه كان أخي سيجموند، اقترب من الفِراش وجلس بجواري، ووضع راحتيه على يدي.

قال لي: "أنت بخير الآن".

"لن أكون بخير مُجدَّدًا أبدًا"، وواجَهتُ الحائط فرأيت آثار دماءٍ، رأى أخي نظراتي مُصوَّبَةً نحوها.

قال: "هذا إهمال من دكتور كراوس".

كانت بُقعَة الدَّمِ على الحائط هي كلُّ ما تبقَّى من طفلي الذي لم يولَد.

لم ننطق بشيء، وبعد وقتٍ قلت له: "حان الوقت لترحل".

"سأبقى هنا الليلة".

"لكن عليكَ أن ترحل".

"سأرحل غدًا".

"عليكَ أن تَستعِدَّ للسفر".

"أنا مُستعِدٌّ".

شعرتُ بالاستفاقة تدريجيًّا، ورُحت أغطس في ألمٍ شديد، ثم توسَّلتُ إليه: "أرجوك ارحل".

صنعت تحيَّتنا السرية منذ كُنَّا أطفالًا، مَدَدتُ يدي ولامَستُ جبهةَ رأسه بأصابعي، ثم أنفه، ثم لحيته، كانت رؤيتي مُشوَّشة فلم أرَ ما إذا كانت عيناه تدمعان أم لا، انحنى وقبَّل جبهتي، ثم أدرتُ رأسي ناحية الحائط، ناحيةَ بُقعَةِ الدِّماء، فأسرع هو خارجًا من الغرفة.

***

أمضيتُ تلك الأيام في حيرةٍ لأنِّي لم أَعُد أشعر بالألم، وكأن الشَّطرَ المُعذَّب من روحي تمَّ استئصاله مع الجنين.

عندما عادَت أمي من بادن جاستن لاحَظَت الدِّماء على حائط غرفتي لكنها لم تَقُل شيئًا، اقترحَت أن نزور سيجموند الذي عاد لتوِّه مع أسرته من غابات ڤيينا، حيث أمضى ما تبقَّى من عطلته بعد رحلته إلى البندقية، أخبرتها أن تذهب بمفردها، ومنذ ذلك الحين لم أَعُد أشاركها الذهاب إلى دعوات الغداء تلك، وكلَّما جاء أخي كعادَتِه صبيحةَ كُلِّ أحد غادَرتُ البيتَ قبل وصوله.

كان عيد ميلاد أُمِّنا يقترب، واقترحت العائلة أن نجتمع في البيت. أمضيتُ أيَّامًا في ترتيب الشقة وإعداد الطعام، وفي مساء الثامن عشر من أغسطس توافَدَ الضيوف، وعادت آنا من أمريكا بصُحبَة أُسرَتِها بعد غياب سنوات، كذلك عادت كُلٌّ من بولين وماري مع عائِلَتَيْهما من برلين، بينما جَلَسَت روزا عاقِدَةً يديها على بطنها، كانت حُبلَى.

كُنَّا ما زلنا ننتظر وصول سيجموند وألكسندر لنبدأ الاحتفال. لعب أحفادُ أُمِّي حولها، رُحتُ أُصغي لأصواتهم الجميلة، وأَردتُ أن أُشارِكَهم، لكنَّني وَقفتُ عند الباب وواصَلتُ الصَّمت.

قالت أُمُّنا إذ تُداعِبُ رؤوس أحفادها: "ليس هناك أفضل من أن ترى الأُمُّ سعادةَ أبنائها... لا عَجَبَ أن أدولفين ما زالت عَزباءَ"، ثم استدارت نحوي، وواصَلَت حديثها: "أَخبَرتُكِ أنَّكِ ستبقين وحيدةً، لقد رأيتُ أنَّكِ تجهلين ما تحتاجينه في حياتك، أسدَيتُكِ النَّصيحَةَ لكنَّكِ لم تستمعي إليَّ، والآن انظري كم هُم سعداء، أمَّا حياتُكِ فليست سوى فراغٍ كبير".

اقتَرَبَت مني آنا ابنة أخي الصغرى، وألقَت بنفسها بين قَدميَّ، حملتها بين ذراعيَّ وقرَّبتها إلى وجهي، ضحكَت وصَفَعَتني بسعادَةٍ بيدَيْها الصغيرتين. ثم ردَّدت أُمِّي الكلمات التي نسيتها منذ سنوات، والتي اعتادت أن تُردِّدَها عليَّ منذ طفولتي: "ليتني لم أَلِدْكِ".

اعتدتُ الألمَ منذ بداية حياتي، كقطرات دماءٍ تَنزِفُ في صمتٍ من جُرحٍ خَفيٍّ، والآن أسمع تلك الكلمات التي فتَحَت الجُرحَ الأول، شعرتُ بالدِّماء التي تنزف منه ومن كل الجروح التالية.

أقعدتُ آنا بحرصٍ على الأرض، ومَضيتُ إلى غرفتي، فتحتُ الخزانةَ حيث كانت بها حقيبةٌ مَلأى بملابس الأطفال، فتَحتُها وأخذتُ كُلَّ ما كان بها: غطاء الرأس المجدول، والقُفَّازات الصغيرة، الأحذية الصغيرة في حجم الأصابع، القُبَّعة الصغيرة- ثم أغلقتُها، وأخذتها معي، وغادَرتُ الغرفة.

كانت الطفلة الصغيرة ما زالت تنتظرني في الرَّدهة، ركَضَت باتجاهي مرَّةً أخرى، فاتَّجهتُ إلى الباب الآخر، فَتحتُه ومَضيتُ إلى الخارج، وإذ أهبط الدَّرَجَ سمعتُ الطفلة الصغيرة تفرُكُ يديها الصغيرتين بالباب.

لم تُدهَش كلارا عندما دخلت غُرفَتَها وأنا أحمل الحقيبة، فقط سألتني: "هل زال خوفُكِ؟".

أومَأتُ برأسي. رفَعتُ الحقيبة وفتحناها كما لو كُنَّا نَنزِعُ القِماطَ عن رضيع. أخرجنا أغراضي، ثم وضعناها في الخزانة الصغيرة قرب الفراش.

***

عندما فتحتُ عيني كنتُ في "العش"، سمعتُ صوت كلارا: "كيف كانت ليلَتُكِ؟".

التفتُّ إليها حيث كان تستلقي على فِراشٍ في الرُّكنِ المقابِل من الغرفة.

قلت: "بخير"، ووضَعتُ يدي على صدري.

سألَتني: "هل يؤلِمُكِ صَدرُكِ؟" فنَفَيتُ.

"إنها الحياة ما تؤلِمُكِ... لكن حتى هذا سيمُرُّ".

لم يسبق لأحدٍ أن لـمَّح لي بملاحظته لألمي. ذلك الشيء الذي ظلَّ يَقضُّ مضجعي منذ طفولتي حتى صِرتُ أشعر به ينتزع قلبي من مكانه. على الرغم من أنه لم يَعُدْ لهذا الألم أو الجرح الخَفيِّ الذي فتحه وجودٌ الآن، إلَّا أن كلارا لاحَظَت آثارهما.

في تلك الظهيرة مَضَت كلارا إلى غرفة الحياكة حيث أمضت ساعاتِ عَمَلِها ذلك اليوم. لم أشعر أنني بخيرٍ، وكنتُ أستلقي على فِراشي عندما دخَلَت إحدى الممرِّضات إلى الغرفة.

قالت: "ثَمَّة شَخصٌ يرغب في رؤيتِكِ".

دخل أخي الغرفة فور ابتعادها عن الباب. قال: "قال دكتور جوته إنَّكِ هنا".

"نعم أنا هنا".

دَعوتُه للجلوس على الفراش، نَهضتُ وأَمسَكتُ بالوسادة، وجلستُ في أحد أركان الفراش، بينما جلس أخي في الركن المقابل.

"لماذا تركتِ البيت؟"- سألني، "كان بإمكانك على الأقل أن تُخبريني أين ذهبتِ". لم أنبس بكلمة. "لكن هذا ليس مُهمًّا الآن، ستعودين إلى البيت اليوم".

"لن أستطيع العودة أبدًا".

"ليس لديكِ مَكانٌ آخر، إنه بيتُكِ الوحيد، حتى لو لم ترغبي في العودة يجب أن تفعلي".

لم أنطق بكلمة.

حَدَجني بنظرته فيَّ ثم قال بنبرة آمِرَةٍ: "ستأتين معي".

قلت: "سأبقى".

5

كُلُّ الأسوياء متشابهون، أمَّا المجانين فلكلٍّ جُنونُه الخاصُّ.

تقع عيادة "العش" النفسية في قلب ڤيينا، ومع ذلك كانت مُنعَزِلَةً عن باقي العالم.

في الليل كانت الصرخات تكسر صمتَ غُرَفِ النوم الكبيرة، هناك صرخاتُ مَن حُكِم عليهم بأن يقتسموا جنونهم مع باقي المجانين، في تلك الليالي، التي يهبط فيه ليلٌ تلوَ الآخر، ويستحيل سنواتٍ، هناك أيضًا صرخاتُ مَن ظلُّوا مخروسين، الذين يتوقون إلى الصمت، وإلى مطرحٍ صغير في الأرض ليدسُّوا أياديهم تحت رؤوسهم وينامُوا في سلام.

في الليل يتنفَّسون بصوتٍ عالٍ، أو ينتحبون أو يُصلُّون، رغم أنهم لا يعلمون إلى مَن يجب أن يُصلُّوا؛ إذ كفروا بالله منذ زمنٍ طويل بعد أن كَفَرَ هو بهم. أو يتنفَّسون ببطء، وعبر الشَّهيق والزَّفير يتخلَّصون من الألم المحشور في صدورهم، ثِقَلٌ غَلَّف السؤال عن سبب وجودهم

إذا كانت هكذا هي حياتهم، وهم سُعداء طالما احتوى هذا الثُّقَلُ أفكارَهم؛ لأنهم إن لم يتعرَّوا منه لن يَقوَوْا على التحمُّل.

في النهاية يُصيبُهم الإرهاقُ الشديد من محاولات التأقلم مع هذه الضوضاء، يبدو أن الصفير والصياح في عيادة "العش" ينفصل عنهم، يبدو وكأنه يأتي من بعيد، حتى لم يَعُد لأصواتٍ بشرية، بل أصوات صنَعَتها وخزاتُ الألم الإنسانيِّ، تتحوَّل إلى سخطٍ، وتَدقُّ ناقوسَ القَدَر.

في الغرف الأخرى التي لا يوجَدُ بها سوى رَجُلَيْن أو امرأتَيْن، تقترن السعادة والتَّعاسَةُ في عُقدَةٍ واحدة.

على مدار يومٍ عاديٍّ قد أُصادِفُ فتاةً تقوم بِعَدِّ أصابع قَدَمِها، امرأة مُسِنَّة تحاول إدخالَ الخيطِ في الإبرة، رجل عجوز يتحدَّث في أحد الأركان، شابٌّ يرتجف خوفًا عاضًّا الكُمَّ الأيسر من قميصه، امرأة... رجل... في معرض اليوم، وفي ساعات يَقظة الليل، كُلُّ مَن في "العُشِّ" يقومون بشيء ما يسحبهم إلى عالَمِهم الداخلي، مُنفصلين، وحيدين.

كلُّ ليلة، قبل أن نخلدَ إلى النوم، تحدِّق امرأةٌ طويلًا في الفَراغ قبل أن تهمِسَ قائِلَةً: "أيُّها العالم... طابَت ليلَتُك".

***

كتب أخي أن الشخص يَظَلُّ ابنَ زمانِه بِغَضِّ النظر عن صِفاته الشخصية. يمكن القول بأن جنون كُلِّ شخصٍ هو نِتاجُ زَمَنِه، وأن السِّمات الشخصية للجنون واحِدَة في كُلِّ العصور.

ظهر الجنون مع الجنسِ البَشريِّ، ربما شعر أوَّل شخص قال "أنا" بانفصاله. لاحقًا في المراحل الأولى من طفولة البشريَّة دَأَبَ أعضاءُ المجتمع على النَّظَر إلى الشخص المختلف بانبهارِ مَن يشاهد إحدى

العجائب التي لا تفسيرَ لها، أو كمَن ينظر إلى حركة الشمس من ركنٍ في السماء إلى الآخر، أو وميض البَرق.

مَرَّت العصور وشَرَعَ الإنسانُ يفسِّر الأمور، فكان البرق رُمحًا سماويًّا من إلهٍ غاضب، والشمس أصبحت إلهًا يَعبُرُ في السماء، وصار الجنون نتاجَ سَيطرةِ قُوى روحيَّةٍ أو شيطانية. هل هرب هؤلاء الممسوسون من بيوتهم وتَسلَّلوا إلى أوكار الحيوانات؟ غير مُدرِكين أن الوحش الكاسِرَ الذي يكمن بالداخل قد يُمزِّقُهم إربًا؟.

هل قاموا أثناءَ الصيد بوضع رماحهم أرضًا بدلًا من إطلاقها على فرائسهم وانحنوا للحيوان المطارد؟، هل ألقوا بالحجارة في وجه الشمس ظنًّا منهم أنهم قد يُطفئونها؟.

في كافَّة المجتمعات البدائية كان علاجُ أولئك الذي استحوذت عليهم قوًى شريرةٌ واحِدًا، كانوا يثقبون الرأس بحُفَرٍ صغيرة لتحرير الشيطان من جنونه، أمَّا الأجساد التي لم تنجُ من عملية إخراج الشياطين فكانت تُلقَى بعيدًا عن المأوى الإنساني؛ كي لا تدخل في إنسان آخر في المجتمع.

مرَّت العصور وأصبح الإنسان يُفسِّر الأمور على نحوٍ مختلف، فصار الرعد نتاجًا لاصطدام السحاب ببعضه، وأصبحت الشمسُ كائنًا ملائِكيًّا يدور حول الأرض، لكن ظلَّ الجنون نتيجةَ لمسٍ من الشيطان. في الكتاب المقدَّس الجنونُ عِقابٌ من الله لمن يعصيه، يَصِفُ العهد القديم كيف يُعاقَب المرء: "يَضْرِبُكَ الرَّبُّ بِجُنُونٍ وَعَمًى وَحَيْرَةِ قَلْبٍ" تثنية 28:28

في العهد الجديد يفسِّر الجنون على أنَّه مَسٌّ من شيطانٍ يجب أن يُنتزع من الممسوس. وفي العديد من الديانات الأخرى أيضًا يُعَدُّ الجنون هو الوقوع تحت سيطرة قوى الظلام؛ نتيجة الصراع بين الله وإبليس.

لكن هناك مَن ارتأوا تفسيراتٍ مُغايِرَةً للجنون، ففي الوقت الذي عزا فيه المواطنون والأقرانُ الجنونَ للإلهة هيرا أو أريس إله الحرب، توضِّح مخطوطة أبقراط أنه لا صِلَةَ لقوى النور أو الظلام بالجنون، وأن وحده العقل هو ما يصيبنا بـ "الجنون أو الهَذَيان، ويجلب لنا الخوف والرعب".

بعد قرونٍ لاحقة يقول أريتايوس القبادوقي[1] في كتابه "عن أسباب وأعراض الأمراض المزمِنَة" إن المريض قد يتوهَّم أنه طائر، أو ديكٌ أو مزهريَّة، ويعتقد آخر أنه إلهٌ أو خطيبٌ أو مُمثِّلٌ، حامِلًا جِذعًا من القُشِّ، مُقتنعًا بأنه صولجان العالم.

البعض يبكون كالأطفال ويطلبون أن يُحمَلوا، أو يعتقدون أنهم حَبَّةُ خردلٍ؛ فيرتجفون خوفًا من أن تأكلهم دجاجة.

حدَّد الباحث القبادوقي كلًّا من الملنخوليا والهَوَس كقُطبَيْ الجنون، يَعزِلُ المُصاب بالملنخوليا نفسه، إنه يخاف من المحاكمة والسجن، ويعذِّب نفسَه بأفكار خرافية، إنه يكره الحياة، يلعنها، ويتمنَّى الموت،أمَّا المصابون بالهَوَس فهُم في غضبٍ لا سيطرةَ عليه، بهجة مضطربة.

وتحت هذه الظروف يُلهَمون القيامَ بأفعال عظيمة لا قِبَلَ لهم بإتيانها، أو يرتكبون القتل دون مُبرِّر. أحيانًا يجتمع القطبان في شخصٍ واحد، "بعض مُصابي الملنخوليا يعانون أعراضًا من الهَوَس، لكن الابتهاج العنيف الذي يُسبِّبه الهَوَسُ يتحوَّل مع نوبات الملنخوليا إلى حزنٍ، تراخٍ، سكوت".

إنه يشتكي من خوفه من المستقبل، يشعر بالعار، ثم يسقط مرة أخرى في دائرة الهَوَس والملنخوليا.

---

(1) من أشهر أطباء الإغريق، وعاش في عصر نيرون.

مرَّت القرون، وأصبح من الواضح أن الشمس لا تدور حول الأرض، بل العكس. صارت التفسيراتُ تعزو الأسبابَ إلى الظواهر الطبيعية، لكن ظَلَّ الوُسَطاءُ الروحانيُّون يعلنون الجنون استحواذًا من قوى الشيطان، وتنفيذًا لمشيئة الله. كانوا هم مَن يُحدِّدون علاج الممسوس، بالصلوات أم بإرساله للحَجِّ إلى الأماكن المقدَّسة التي قد تشفيه، لكن إن قرَّروا أنه ليس ممسوسًا، وأنه تعاهد طَوعيًّا مع الشيطان؛ فيكون عقابه حرقًا على الوتد أو الشنق أو الغرق.

مع بزوغ عصر المنطق على أوروبا، لم يَعُد يُنظَر إلى المجانين أنهم مذنبون وقعوا تحت طائلة الشيطان، بل ككائناتٍ خَطِرَةٍ، أو أفرادٍ لا يمكنهم المشاركة في المجتمع، بل يتسبَّب وجودُهم في تعطيله.

وحتى حينها، ظلَّ أحد أسباب الجنون من الله رأسًا، إبَّان عصر النهضة عُدَّ الجنونُ نتيجةً لثلاث خطايا رئيسية: جنون المخَيِّلَة، وهو أن يتوهَّم المرءُ أنه شخص أو شيء آخر، والجنون كَلَعنَة من الله، والجنون كنتيجة لعاطِفَةٍ جيَّاشة.

في هذا الوقت كان هناك سجنٌ للمختلِّين عقليًّا في كل مدينة كبيرة، وهناك لا يحصلون على علاجٍ، بل عقاب، لم يَكُن الجنون مرضًا، بل جريمة، كان على مَن اعتبرهم المجتمعُ أسوياءَ أن يضعوا حدًّا فاصلًا بينهم وبين من وُصِموا بالجنون، وقام حُكَّام المدن الساحلية برشوةِ البَحَّارين ليجمعوا من حُكِمَ بجنونهم، فتبحر القوارب وعلى مَتنِها أولئك التُّعَساءُ مربوطين على سطح سفينة، إن نَجَوا من الجوع والعطش، وإن لم تُغرِقْهُم الرياحُ والبردُ؛ يتمُّ تفريغهم عند أوَّل مرفأ، وإن كان ذلك مستحيلًا فيُلقَى بهم في مكان معزول، أو في الماء.

في القرن السابع عشر أكَّد كُلٌّ من رينالد سكوت[1] وإدوارد جوردون[2] وتوماس ويليس[3] إن الجنون ليس عهدًا مع الشيطان أو مسًّا منه، بل مرضًا عصبيًّا وعقليًّا، لكن على الرغم من ذلك ظَلَّ إرجاعُ خُسوف العَقلِ إلى القوى الظلامية قائمًا حتى بين المثقَّفين.

في نهاية القرن السابع عشر شرح إرنست فريدريك ويديل، أستاذ الطب بجامعة چينا، لتلاميذه الطُّرق التي يتجسَّد فيها الشيطانُ في الناس من خلال الجنون. لكن جاء ذلك متأخِّرًا؛ إذ أعلن چون لوك أن هذا المعتَقَد أيضًا يجب أن يخضع للعقل، وفسَّر توماس هوبز الجنونَ على أنَّه خَلَلٌ في التفكير، ناتِجٌ عن قصورٍ في وظائف الجسد.

وبالرغم من هذه الأعمال ظلَّت مصحَّاتُ المجانين تُشبِهُ غُرفَ تعذيب المجرمين. في المصحَّتَيْن الأكثر تَطوُّرًا، مصحتا: بيسيتر Bicêtre وسالبتريير Salpêtrière في باريس، يُعامَل المرضى كالحيوانات. حتى أن بعضهم كانوا يُودَعون في غُرَفِ حَجزٍ تحتَ الأرض، مربوطين بالسلاسل من أعناقهم. وكجزءٍ من عقابهم كانوا يُقيَّدون إلى المشهرة[4].

إن أراد أحدُ الأجلاف بالخارج مُشاهَدَتهم والاستمتاع بتعذيبهم فكان الحُرَّاسُ يسمحون بذلك لقاءَ بعض المال، وأحيانًا يسمحون لهم بجَلدِ أحدِ هؤلاء التُّعَساء بالكرباج، وكأنه أحدُ عروض السيرك.

في القرن التاسع عشر، سَلَّمَت أخيرًا كُلٌّ من المؤسَّسة الدينية والعقابية المجانين إلى مصحَّات الأمراض العقلية، لم يَعُد الجنونُ ذنبًا في حَقِّ الله أو جريمة، بل وجودًا قاحِلًا وحياةً فاشِلَةً، فرصة ضائعة

---

(1) Reginald Scot برلماني وباحث إنجليزي (1538-1599).

(2) *Edward Jordan: طبيب وكيميائي إنجليزي (1569-1633) ، أول من شخَّص المتهمات بالشعوذة كمرضى عقليين.

(3) Thomas Willis طبيب تشريح إنجليزي ورائد في أبحاث تشريح الدماغ والجهاز العصبي. (1621 - 1675)

(4) آلة خشبية يُصلب عليها الإنسان واقفًا من فتحات لرأسه وقدميه.

يحصل عليها الإنسان لكنه يُدمِّرَها بجنونه؛ لأنه بالرغم من أنه يعيشها إلَّا أنها بلا طائل، حياة الجنون غلطة، أو استثمارٌ خاطِئٌ للطَّبيعة ولله.

كل نوافذ غُرَفِ "العش" تُطلُّ على حديقة المستشفى، كانت الأرض مُغطَّاةً بالعُشب الناعم الذي تُقاطِعه ممرَّاتٌ بمحاذاتها مَقاعِد، عناقيد من الأشجار تستدعي في العقل مَشهَدًا لغابة. قُربَ المساء عندما يهبط الغروب، كُنَّا نقف أنا وكلارا قرب النافذة لنشاهد الظلام يغشاها.

في "العش" كان هناك مَن يخشى الظلامَ أكثرَ من الموت.

حين كُنَّا نستشعر حضور الصَّمت نمتثل له في الحال، مهما بلَغَت محادثاتنا من أهميَّةٍ في لحظتها. صِرنا نحبُّ الهدوء أكثرَ فأكثر؛ لأنه أمرٌ نادِرٌ في "العش". عاش كُلٌّ من هانس وچون في غرفةٍ أعلانا، أحدهم يمشي بخطواتٍ بطيئة وخفيفة للغاية وكأنَّ لديه حوافر أقدام، بينما يمشي الآخر بسرعة وبشكلٍ حاسِم.

في الغرفة المجاورة لنا دَأَبَت كريستا على التحدُّث إلى نفسها بصوتٍ عالٍ، تتَّهِمُ نفسها دومًا بأمرٍ ما، في الغرفة المجاورة بيتا وهيرتا تضحكان بشكل محمومٍ. وأحيانًا يضربان الحائط برأسيهما أو قبضاتهما. ضربات واهِنَة كالألَمِ المنسيِّ، صرخات وعواء ونحيب وضحك، ضجيج ونحيب وضربات تصل إلينا من الغُرَف المجاورة، فكان الهدوء ظاهِرَةً نادِرَةً نتوق إليها، وأثناء تلك اللحظات التي يحلُّ فيها كُنَّا نشعر بالصَّمت بدون أي تفكير.

توقَّفنا عن الحديث، ليس لأننا أردنا عن وعي أن نستمتِعَ بالصمت؛ بل لأن الكلمات هرَبَت مِنَّا كما لو كُنَّا نشهد معجزة.

***

لطالما شعر الجنس البشري في صميمه -رغم عدم قدرته على تمييز صحَّة الأمر من عدمه- ببصيصٍ من النور الإلهي. أمرٌ ما قد يَظلُّ مُشتَعلًا حتى بعد فَناء الجسد. يتكوَّن الضوء من عِدَّة أَشعَّة، كُلُّ شُعاعٍ هو سِمَةٌ بشريَّة أساسية، ومن ثَمَّ يقوم الناس -بسبب تشابُه تلك الأشعَّة التي يحملونها بداخلهم- بخَلْقِ كَوكَبةٍ بشريَّة، عددٌ لا حصرَ له من الناس يُشكِّلون جزءًا من هذه الكوكبة البشرية.

يرتبط كُلُّ شخصٍ بأكبر عدد من الكوكبات وفقًا لعدد الأشعة التي تُشَكِّل ضوءَه.

آلاف من الناس مُتَّصلون في المظالِّ البشرية، حتى لو لم يعرفوا بعضهم البعض، أو لم يلتقوا من قبل، أو لن يروا بعضهم مرَّةً أخرى، فليس من الضروريِّ أن يكون المرءُ قريبًا من أولئك الذين يعيشون في الكوكبة البشرية، أو أن يعيش في نفس زمنهم حتى يصبح جزءًا منها، بل يجب أن يحمل في ضوئه الرُّوحانيِّ نفسَ سِمات شُعاع هذه الكوكبة البشريَّة.

بعض هذه السِّمات تحمل مواصفات الجنون، تتداخل الكوكبةُ البشرية التي يخلقها الجنون مع نُظَرائها البشرية الأخرى؛ لأن العديد من البشر يشتركون فيها، وبالرغم من ذلك تومِضُ هذه الكوكبة البشرية للجنون في سَمَواتٍ مُنفَصِلَة، مُنفَرِدَة.

تحمل مناضِدُ الأسِّرة في "العش" تذكاراتٍ مُتعدِّدَة لحيواتٍ سابِقَة.

على منضدة جارتنا كريستا، احتفَظَت بضفيرةٍ من شَعْر طفلتها من أوَّل تَصفيفَةِ شَعْرٍ لها، وكذلك أول سِنٍّ خَلَعَتها. كُلُّ مَن يدخل غرفتها ويخوض معها حوارًا يلحظ نظراتِها ترتفع إلى الطاولةِ الصغيرة أثناء المحادثة، وتَردَّد ما تنسى أنها كرَّرَته العديدَ من المرات: "هذه صغيرتي لوتي"، ثم تحمل الجديلةَ الصغيرة والسِّنَّ المخلوعة في يدها،

وتُمعِنُ النظر فيهم كطفلٍ ينظر إلى بريق زجاج مكسور، وكأنه شيء ثمينٌ.

كل ما يمكن تَخيُّلُه كان موجودًا على المناضد في "العش": قِطَعٌ حَجريَّة، صُور، بطاقاتٌ بريدية مكتوبٌ عليها بحبر ضعيف، ريش طيور، قوائِمُ كَرَاسٍ، أكياس الوسائد، قِطَعٌ من ستائر، جيوبٌ مقطوعة، أزرار، مرايا صغيرة، حَصًى، خَشبٌ منحوت، أربطة أحذية، حمَّامات، حفَّاضات، خَرَزٌ، أيادٍ، أقدامٌ، أجساد، ورؤوس عرائس، وهنا وهناك عرائس كاملة.

رُتِّبَت بعض الأشياء بعناية على بعض الطاولات، وأحيانًا بنظامٍ صارم، بينما بُعثِرَت على طاولات أخرى في فوضى. من خلال الفوضى والنظام على المناضد، وطريقة توضيب الأغراض عليها سواء بنظام أو بعثَرَةً- عن طريق هذه الهندسة المدهِشَة للنظام والفوضى يمكن للمرء أن يقرأ هندسة حياةِ الشَّخص السابقة، ذلك الشيء الذي لا يستطيع أولئك النائمون بجوار الطاولات، والذين عاشوا حيواتهم وفق هذه الهندسة المبهِرَة أن يشرحوه بالكلمات.

على منضدة فراش كلارا كانت هناك رَسمَةٌ لم يكُن أحدٌ يتخيَّل أن أخاها هو مَن رسمها: امرأة تولينا ظهرها، وتقف بثباتٍ على حافَّةٍ ما.

أمَّا منضدة فراشي فخالِيَة، الكثير منها كان خاليًا في "العش".

توجد مكتبةٌ في نهاية الجناح الشرقي من مبنى المستشفى، وهناك تَصفَّح بعضُنا سريعًا الكُتُبَ من أوَّل غلافٍ إلى النهاية، ثم العكس، والبعض الآخر لم يقلب صفحةً منذ جلسوا إلى أن نهضوا راحلين، بل سرحوا في حرفٍ أو مسافةٍ أو فاصلة أو علامة تعجُّبٍ أو علامة استفهام، وبعضنا كان يقرأ.

أحيانًا كانت كلارا تلتقط الرَّسمَة الموضوعة بجوار فِراشها، تلك الرسمة ضَلَّت طريقها إلى جيب أخيها في إحدى زياراته، اعتاد

چوستاف أن يضع يديه في جيوبه أثناء التَّحدُّث، ثم يخرجهما فجأةً في نهاية المحادثة، وفي تلك الحظة تسقط من جيبه أقلامُ رصاصٍ، قِطَعٌ من الطباشير، مَسَّاحات، عملات معدنية. وفي إحدى من زياراته وبينما يخرج يديه من جيوبه سقطت منها ورقة مَطويَّةٌ على الأرض.

ومنذ ذلك احتفظت كلارا بالرسمة على منضدة الفراش، أحيانًا كانت تمسك بها وتحدِّق فيها،حيث تقف امرأةٌ عند حافَّةٍ مُولِيَةً ظَهرَها، تمتدُّ خلف هذه الحافَّة هاوِيَةٌ. قالت كلارا ذات مرة بعد أن سرحت في الرسمة: "أسأل حالي هل تنظر تلك المرأةُ إلى الهاوية أم أنها تقف على الحافة مُغمِضَةً عينيها؟".

في أوقات الظهيرة حين يصفو الجو، كُنَّا نمضي إلى الخارج لنمشي في حديقة المشفى. لكن لو كان هناك ما يستدعي فبإمكان المرء أن يبقى في المبنى، أحيانًا كنتُ أبقى في غرفتي بسبب آلام معدتي أو بسبب الصداع، وحينها أقف أمام النافذة وأدرس مَن هُم بالخارج، بعضهم يركض على العشب كالأطفال، وآخرون يجلسون على المقاعد ليتحدَّثوا، وهناك مجموعة ثالثة تتجادَل، البعض كان يقف بمفرده يفكِّر، أو يضحك، أو يَدْمَعُ، أو شيء آخر.

أطَّرَت النافذةُ العالَمَ الخارجيَّ لي، فأبقتني مُنفَصِلَةً في عالمي، حيث يمكنني مراقبة نفسي.

***

ذات مرة تطلَّعتُ عبر النافذة فرأيت رجلًا يقود طفلين تجاه واحِدةٍ من النساء اللاتي يمشين في حديقة المشفى، وعندما لمحَتْهُم تجمَّدَت في مكانها، وكذلك فعل زُوَّارُها الثلاثة أيضًا على نحوٍ ما. قد يقول زوجها شيئًا ما، ويشير إلى الأطفال، ومن حين لآخر يربِّت على رؤوسهم لبضع دقائق، أو يتوقَّف عن حديثه، ربما أملًا أن تقول شيئًا.

لم تتحرّك زوجته، ولم أتمكّن من رؤية ملامح وجهها، أو إذا كان بمقدورها أن تقول أي شيء على الإطلاق، ما بدا على وجه زوجها أنها عَجَزَت عن النطق، وفي هذه اللحظة بدا على وجهه اليأسُ من محاولاته، ثم خطا ناحيتَها وعانَقَها، وبالكاد تحرَّكَت يداها، وكأنها تحاول ردَّ عناقه.

اقترب الطفلان وعانقاها إذ يلهوان حول خَصرِها، لم تنحنِ ولم تتمكّن من ذلك، اتجه الزوج والأولاد إلى مَخرَجِ "العش"، وقبل أن يعبروا البوَّابةَ التفتوا إلى أُمِّهم، رفعوا أيديهم ولوَّحوا لها مُوَدِّعين، فرفعت يدها بصعوبةٍ كأنها تحمل شيئًا ثقيلًا. صَنَعَت في الهواء حركةً بالكاد يمكن فَهمُها تشبه التلويح، ثم أخفَضَت يدها ببطء إلى جانبها. انفصل أحد الطفلين عن الأب وخطا بضع خطوات باتجاه المرأة، خطوات تكاد تتحوَّل إلى ركض، لكنه توقَّف فجأةً. استدار الطفل وانضمَّ إلى أخيه وأبيه ومضوا عبر البوَّابة.

تجمَّدَت المرأةُ في مكانها لفترة طويلة، وبالرغم من أنها كانت تقف في حديقة المشفى إلا أنني شعرتُ بها واقفة على حافَّة هاويةٍ.

حاوَلتُ أن أَتصوَّر وجهها، لكنني فشلتُ، سألت نفسي هل كانت تنظر إلى الهاوية أم كانت تقف على الحافَّة مُغمِضَة عينيها؟.

انقلَبَت حياة جارتنا كريستا رأسًا على عقب في لحظة. حدث ذلك قبل نقلها إلى "العش" مباشَرةً، ربما كان موت زوجها هو السبب، لكن عندما يكون الجنون واردًا فلا يمكن الجَزْمُ بشيء. فجأة لم تَعُد تُميِّزُ الناسَ حولها، كانت تنظر إلى أهلها كأنها تنظر إلى حائط، تنظر إلى ابنتها ذات السبعة شهور كأنها تشاهد جمادًا.

عندما أحضروا كريستا إلى "العش" انتفض شيءٌ ما بداخلها على الفور، بدأت تتحرّك وتأكل وتُحَمِّم نفسها، وتمشي في حديقة المستشفى، وأصبحت تغزل أثناء ساعات العمل، لكن عندما جاء والداها وابنتها

لزيارتها فكأن شطرًا من ماضيها عاد إلى الحياة، وتيبَّس جَسدُها كله، ثم بعد رحيلهم ظلَّت تبكي على ابنتها، وتوسَّلَت أن تعود إليها.

فور أن عَلِمَ أهلُ كريستا بما حدث أثناء عودتهم إلى البيت بعد زيارتهم، اصطحبوا كريستا إلى البيت وأمضت معهم عِدَّةَ أَشهرٍ في تبلُّدٍ تامٍّ؛ ولهذا أعادوها إلى "العش"، وحالما تركوها ثارت وانتحبت على ابنتها الصغيرة.

كانت تأوُّهاتُها البائسة تستمرُّ لساعات بعد تلك الزيارات العائلية؛ فكُنَّا نمضي إلى غرفتها ونُؤكِّد لها أننا سنعيد إليها ابنتها الصغيرة، لكنها كانت تبدو بكماءَ، في اللحظة التي يستشفُّ وَعيُها الكَذبَ تومئ كريستا برأسها ببساطة، وتَسقطُ في الصمت، وتستمر الحياة.

وقتما آمن الناس بأن الأرض مُسطَّحَةٌ كَصَحنِ العَشاء، عندما ارتجف الناسُ فيه من يوم الحساب، يخشون الجحيم ويتمنَّون النعيم، كان من المعتاد في كل مدينة أن يُحبَس المجانينُ في أقفاصٍ من وقت لآخر، ويُجلبوا إلى الميادين العامة. وهناك يحتشد كُلُّ سُكَّان المدينة، كبار الشخصيات المحلية والحرفيُّون ورجال الدين والجنود، سيِّدات المجتمع والخادمات، الأطفال والكبار، الأطباء والصيَّادون، الشُّرَفاء واللصوص، جميعهم مُتحَمِّسون من أجل الاحتفال الكبير الذي يبدأ مع فتح الأقفاص ليخرج منها المحبوسون، يُرَحِّب الحشدُ بهذا الخروج بصيحاتٍ مُبتَهِجَة، يخطون خارج الأقفاص بنظراتهم الغريبة، وغمغماتهم غير المفهومة، وملابِسهم الممزَّقَة، يحاوطهم حُرَّاس المدينة في دائرة كبيرة؛ لكي يَظلُّوا في حلقة ضيِّقة، يقف الحُرَّاس بثباتٍ، مُنحَنين بقدر الإمكان حتى لا يحجبوا الرؤية عن المشاهدين.

ينظر الجميع إلى الرجل المجنون، وإلى الحشد المجتَمِع في الميدان، ينظرون إلى بعضهم، إلى رجال الدين أو إلى اللص؛ فلا فَرْقَ بينهم، يصيح بإهانةٍ ما، يَردُّ بعضُ المجانين، بينما يَظلُّ البعض الآخر في

ابتهاجهم بصُحبَةِ قِدِّيسيهم، أو في حيرتهم يسألون حالهم لماذا وجدوا أنفسهم أمامَ كُلِّ هذه العيون.

ينتظر الحشدُ، يلتقط أحدُ الأطفالِ بعضَ الأحجار، ويُفلِتُ بين سيقان الحُرَّاس المفرودة، ويبدأ في رمي الأحجار فتصيب جَبهَةَ رأسِ امرأةٍ كانت تقضم أصابعها بِعُنف، تصيب حجارةٌ أخرى رجلًا يُحاوِلُ أن يقول شيئًا للآخرين بالزَّقزقة كالعصافير.

أمَّا الثالثة فتخطئ الهدف، وتسقط في مكانٍ ما بين المجانين، تتوقَّف المرأة عن قضم أصابعها وتصرخ في رُعبٍ، كذلك يتوقَّف الرجل المسِنُّ عن الزقزقة ويصرخ في وجه الحشد، ويهتاج باقي المجانين، ويشارك بعضُهم عواءَ الرَّجُل المسِنِّ في وجه الحشد، والبعض الآخر يركض في المكان، تتدحرج مجموعةٌ أخرى على الأرض، ويضحكُ أَحدُهم بصوتٍ يشبه صياح الطيور، ويخدش شخصٌ آخر نفسَه من رأسه إلى إصبع قدمه.

يثير هذا المشهدُ الجُموعَ المحتَشِدَة، الغضب المتلوِّي وأسى الجنون. يقف أحدُ المجانين باسِطًا ذراعيه إلى الأعلى ويتوسَّل إليهم أن يصلبوه، يصيح الحشد قائلًا: "اصلبوه! اصلبوه!". يصيح أحدُ المجانين قائلًا إنه إلهُ الشَّمس، وأن كلَّ ما يَتعيَّن عليه هو الانحناءُ لتنطفئ الشمس، فيصيح صوتٌ من الحشد يسأله: "هل بوسعِكَ أن تُطفِئَها بالتَّبوُّل عليها؟"، فيُنزِلُ الرَّجُلُ لِباسَه ويبول في الهواء باتجاه الشمس، يبولُ على نفسه، فيزأر الحشد ابتهاجًا.

تصرخ امرأةٌ من زُمرَةِ المجانين: "أين طفلي! أين طفلي!"، يُخبِرها بعضٌ من الحشد أنه مات أثناء الولادة، وآخرون يقولون لها إنها لم تَلِدْ من الأساس، وأنها زَيَّفَت حَمْلَها أمام الجميع. تنتحب المرأة "أين طفلي! أين طفلي!"، فيخلع أحدُ المبتهجين قميصه، ويُطوِّقه بسرعة، ثم يقذفه إليها ويقول: "ها هو طفلك!".

تصيح المرأة "طفلي! طفلي"، بينما تحتضن الصُّرَّةَ إلى صدرها وتُواصِلُ تعبيراتِها السعيدة: "عاد طفلي! عاد طفلي!".

الكل يستمتعون بالعرض: كبار الشخصيات والحِرفيُّون ورجال الدين والجنود، سيِّدات المجتمع والخادمات، الأطفال والكبار، الأطبَّاء والصيَّادون، الشُّرَفاءُ واللصوص، والآن حان وقت المرح، يبدأ الحُرَّاسُ في تطويح سِياطِهم، وكمن يسوق قطيعًا، يقودون المجانين نحو بوَّابات المدينة، ويتقدَّمهم الحَشدُ، يقوم شخصٌ من الحشد بالتقاط طوبةٍ ليلقيها على هؤلاء الذين يُجلَدون بالسِّياط، ومَن يصرخون من الضرب يحاولون الرَّكضَ، ويقومون بحركاتٍ بهلوانية من آلام السوط، وفي النهاية يَصِلون إلى المخرَجِ عبر الحواجر المحيطة بالمدينة.

تُفتح البَوَّابات، ويَجلِدُ الحُرَّاسُ جَلداتِهم الأخيرة، ثم يصيحون قائلين: "والآن أنتم أحرار!"، ويطلقونهم عبر البوَّابات، فيركضون غير عالِمين أنَّ بوابات المدينة سَتُغلَقُ وراءَهم، وسيُتركون وراء التَّحصينات، غيرَ عالِمين أن المدن تقوم كلَّ بِضعِ سنواتٍ بتسريح المجانين، بعضهم يَظلُّ يدور حول التحصينات لوقتٍ طويل، بعضهم حتى قد يتمكَّن من شَقِّ طريق العودة إلى المدينة مَرَّةً أخرى، لكن يَهيمُ آخرون في أراضٍ غير ممهَّدَة، عبر الحقول، بطول الأنهار.

ستتجمَّدُ المرأة التي تَقضمُ أصابعها بِنَهَمٍ حتى الموت، والرَّجُل المُسِنُّ الذي كان يُزَقزِقُ كالطائر سيُمزِّقه ذئبٌ، وسيصل ذلك الشابُّ الذي كان يخدش نفسه من رأسه حتى قَدَمِه -ولو مشيًا- إلى حواجز مدينة أخرى، وسَيَرغَبُ في الدخول، لكن سيقتله فارِسٌ فاز بحبيبته في سباقٍ للفرسان، وأهداها أُغنيَةً يعترف فيها لها بِحُبِّه. المرأة التي تَنشُدُ رَضيعَها سيغتَصِبُها قُطَّاعُ طريقٍ سيصطحبوها معهم ثم يتركونها، وستموت أثناء نومها بجوار شجرةٍ، بينما تحتضن صُرَّةً من الخِرَقِ البالية: طفلها.

***

دأبَ أبناءُ دورا على التَّواجُد معها في "العش"، واعتادت أن تحكي لهم القصصَ وتُطعِمَهم، وتَصطَحِبَهم للمَشي، وتُغنِّي لهم تهويدةً للنَّوم. كان أبناء دورا دائِمي التَّواجُد معها، على الرغم من أنها هي وحدها من كان بوسعها رؤيتهم.

طلَبَت مِنَّا على الطاولة في قاعة الطعام ألَّا نجلس على المقاعد المجاوِرَة لها لأنها تحتاج إليها لتُجلِسَ أبناءها، وقامت بإطعامهم بالفعل، غَرَفَت طعامًا وهميًّا، بملاعق وهميَّة، ثم قامت بإطعام أفواهٍ غير موجودة، وعَنَّفَت مَن رَفَضَ تَناوُلَ الطعام. وحين كُنَّا نمضي إلى الخارج كانت تُعلِّم أبناءها لعب الأطفال، وتلعب مع غير المرئيِّين حولها، تقذف لهم بالكُرَة، تلقي الحصى في دائرة.

في المكتبة كانت تفتح الكُتُبَ لغير المرئيِّين وتُعلِّمُهم القراءة. وقبل أن تضعهم في الفِراش تحكي لهم قصصًا للأطفال، وكانت توقِظُهم فور استيقاظها أيضًا. قال البعض أن دورا لم تُنجِب يومًا، لكن رغم ذلك كان أبناؤها معها على الدَّوام.

***

عندما جاءت أختي روزا لزيارتي للمرَّة الأولى جلسنا على الفراش بينما ظَلَّت تُمسِّد بطنَها المنتَفِخ وكأنها تُدلِّلها، "بعد شهرين"- هكذا أجابت حين سألتُها متى ستصبح أُمًّا.

***

على مدار الحياة تتشكَّل الـ "انا" بالتجارب، كما يُشكِّل البَحرُ الصُّخورَ على مدار القرون. تفصل الأنا بين المرء والعالم الخارجي، لكنها أيضًا حَلقَةُ الوَصلِ بينهما، الأنا هي مَركزُ الجاذبية لعالَم المرءِ الشَّخصي، إنها شعورُ المرء بذاته وبالعالم، وهناك أيضًا مَن لا تَملِكُ أناه ثِقَةً في النفس؛ لأنها اعتقَدَت في الماضي ألَّا حقَّ لها في الوجود.

ينظر المرء إلى نفسه في الهواء أو في المرآة حيث لا يمكنه التَّعرُّف على وجهه أو يصيح: "مَن أنا؟ مَن أنا؟ مَن أنا؟"- نفس السؤال يُردِّده شخصٌ آخر في مكان آخر، نفس السؤال يسأله شخصٌ ثالِثٌ في حقبَةٍ أخرى، عَدَدٌ لا حصر له من الناس سألوا هذا السؤال في أماكِنَ عِدَّة، وحُقَبٍ شتَّى.

ذهب خمسةُ أصدقاء إلى توبنجن وفي قلوبهم قَداسَةٌ، وكأنَّهم ذاهبون إلى حَجٍّ ما؛ لأن هناك في منزل النَّجَّار إرنست زيمر يعيش فريدريك هولدرلين. وإذ يقودهم إلى بقعته المفضَّلَة خلف بيته، تشرح لهم السيِّدة زيمر حالَة شاعِرِهم المفضَّل. ثم يلمح هؤلاء الذين يحملون في عقولهم صورة شاعرهم بوجهه الأشبه بالقدِّيسين، يلمحون رَجُلًا عجوزًا يتأرجح على شجرة طويلة.

تبقى السيدة زيمر بجوار المنزل، وتشرح لهم قائِلَةً إنه يتأرجح هكذا كل يوم، إذا كان لا يعزف على البيانو أو يساعد في أعمال النجارة، لكنَّ الشباب يتوه تركيزُهم عنها، يقتربون من الرَّجُل العجوز بملامحه الغاضبة؛ إذ يواصل التَّأرجُح، فيسألونه عن الشِّعر، عن الوزن والقافية وعن ديوتيما[1]، وفي لحظةٍ ما يلتفت إليهم غاضبًا ويطلُبُ منهم الرحيل. يخبره أحدُ الشباب: "لكننا جِئنا لرؤيتِكَ"، يُواصِل هولدرلن التَّأرجُحَ ويقول: "أصبحتُ شخصًا آخر الآن ولا يمكنني العودة لما كنتُ عليه"، لقد كَرَّر هذا الكلامَ عددٌ لا حَصرَ له من الناس في أماكِنَ وخُقَبٍ شَتَّى.

تقول امرأة: "أنا لستُ هنا! أنا لَستُ هنا! أنا لا وجودَ لي"، كَرَّر هذه المقولةَ عَددٌ لا حَصرَ له من الناس في أماكِنَ وأَزمِنَةٍ شَتَّى، فبالنسبة للبعض "الأنا" مادَّةٌ هَشَّة تآكَلَت بفعل مرارة الوجود.

---

(1) مُتنبِّئة وفيلسوفة إغريقية.

يحاول چون كلاير الخلودَ إلى النوم، ويُتَمتِمُ بعضَ الأبيات من أشعاره: "أنا"، يُتَمتِمُ أجزاء من هذه الأبيات على نحوٍ مَبتورٍ، وبدون ترتيب: "أنا، غير أنَّ ما أكونه لا يهتمُّ به أحدٌ ولا يعرفه، هَجَرَني أصدقائي كذاكِرةٍ مفقودة، فاجِعَتي تصعد وتتلاشى، كظلالٍ مُتحابَّة، ورغم ذلك أنا مَن أنا، في عَدَمٍ مُحتَقَرٍ ومُزعِج، حيث لا حِسَّ للحياة أو البهجة، وحيث أَحَبُّ الناس إليَّ غُرَباء، بل أكثر غُربَة من الغرباء، أتوق إلى الأماكن التي لم يَطَأها الإنسان يومًا، حيث لم تَنُحْ امرأةٌ أو تبتسم، حيث أخضع لخالقي، الله، وأنام نومَ الأطفال اللذيذ، حيث أستلقي غيرَ مُنزَعِجٍ وغير مزعج، أفترش العشبَ، وتعلوني سماءٌ مُقبَّبة".

ثم أشخاص شعروا أنَّ "أناهُم" لا تَستحِقُّ العَيشَ، والآن تتلوَّى أمام الواقع، وتحيد عنه، فيخلقون وهمًا، مَن يملكون هذا النوع من الأنا يعيشون ضمن الواقع، لكنهم يَرَون ويشعرون ويُفكِّرون في واقِعٍ آخر، خيالًا خاصًّا بهم.

وحين يواجههم الواقع، وقبل أن يستلموا علاماته ورسائله، يُحوِّلونها إلى علامات ورسائل أخرى، ينقسم المرء منهم إلى شخصيَّتَيْن، شَطرٌ من أناه هو ما يخلق عالَمَه الوهميَّ ويعيش فيه، بينما يَتَّصِلُ الشَّطرُ الآخر من أَناهُ بالواقع غير الموجود بالنسبة له، بل هو سِجنٌ أُجبِر على دخوله.

هناك مَن يعتقد أن أفكاره لا تنتمي له، قد يسأل أحدُهُم حالَه: "مَن ينسج هذه الأفكار؟"، بينما يعتقد شخصٌ آخر أنَّ كلَّ أفكاره وَضَعَها غَيرُه في رأسه. تعتقد إحدى الفتيات أن بعض أفكارها في الحقيقة دخيلةٌ عليها؛ ولهذا تتصرَّف عكسها، فإن فكَّرَت: "سأعبر هذا الشارع" تُخالِفُ نفسها على الفور، وتعبر من مكانٍ آخر، إذا حَدَّثَت نفسها قائلة: "يجب أن أتناول الطعام" تُقرِّر في اللحظة التالية أن

تتضوَّر جوعًا حتى اليوم التالي، إذا فكَّرَت أثناءَ شُربِها الماء: "حاذري ألَّا يَنزَلِقَ الكوبُ من يدك" تُلقي بالكوب أرضًا على الفور.

تتكرَّر المعتَقداتُ ذاتها في العديد من الناس في أماكن مختلفة على مَرِّ الزمان، كأن تَدفسَ امرأةٌ رَأسَها في دلو ماءٍ على أمل أن تغرق أَفكارُ غَيرِها التي تَسكُنُها، وتظهر مكانَها أفكارُها هي.

هناك أُناسٌ يعتقدون أن ما يحدث لهم ولِغَيرِهِم من الناس ما هو إلَّا نَسجُ خيالِهم، لكنَّهم يعتقدون بواقعيَّته، يُقدِّمون لأنفسهم ولمن يعيشون معهم -بل وحتى مَن يمرُّون على حياتهم مرورَ الكِرامِ- قصصَ حياةٍ مُوازِيَة.

البعض مُقتَنِعٌ بأن المرأة التي تنظر من خلال النافذة إلى الشارع الذي يمشون فيه في نفس اللحظة تُحضِّر لهم خُطَّةً خبيثة، بينما يعتقد البعض بأنها تشعر تجاهَهم بالحُبِّ يوميًّا. يصطدم الواقع بالخيال ويتحطَّم، لكنها تحاول أن تُثبِتَ زَيفَهما. ثَمَّة عامِلُ بريدٍ يؤمن أن ابنتَه لن تُسافِرَ لرؤية خَطيبها في المدينة المجاورة، لكنَّها بدلًا من ذلك ذَهَبَت إلى جزيرةٍ مُنعَزِلَة.

ألقت الخيَّاطةُ بالخطاب الذي تَلقَّته لتوِّها من أختها، والذي تقول فيه إنها ترغب في رؤيتها. لكن الخيَّاطة متأكِّدة أن أختها تُعلِمُها أن أباهما المتوفَّى منذ وقتٍ بعيد سيزورها عمَّا قريب. في نفس الوقت ينظر تلميذٌ إلى الكتاب الموضوع أمامه، بينما يقلِّب في أفكاره قصصًا لحيواتٍ لزملائه وأساتذته الملأى بأحداثٍ لم يَتخيَّلوا أبدًا أن تَحدُثَ لهم.

يستبدل أشخاصٌ آخرون أناهم بـ أنا أخرى تمامًا، بعضهم حتى حين ينظر في المرآة يُشاهِدُ انعكاسًا لوجهِ يسوع، أو نابليون، أو امبراطورة ما، في حين يبدو لهم مَن يحاول إقناعهم بحقيقة الأمر إمَّا

كائنات غَيورة، أو لا تُقدِّر أَهمِّيَتَهم، أو شخصًا أبلهَ يَعجَزُ عن رؤية الواقع.

ثمَّة أشخاصٌ يرون بعض الأشياء على غير حقيقتها، فهناك مَن يرى السحابة تمدُّ يدها إليه، وهناك امرأة تخشى الفتحات على جانب الطريق؛ لأنها تراها أفواهًا مفتوحة، وهناك فتاةٌ ترى لجارها رأسَ فأرٍ، ويتراءى الفراغُ لبعض الناس شكلًا تَخرُج منه الظِّلال والوحوش والناس، مناظر طبيعية خيالية تثير الوَجْدَ والوَجَل.

هناك أشخاص يسمعون ما لا يُمكِنُ للآخرين سَماعُه، بعضهم توقِظُه طَرْقاتٌ على الباب ليلًا، وآخرون لا يكفُّون عن الجدال مع مُتكلِّمٍ غير مَرئيٍّ، وهناك مجموعة ثالثة تَصمُّ آذانها لأنَّهم لا يحتملون الصراخ الشديد.

بالنسبة لبعض الناس تُعَدُّ الأنا مادَّةً هشَّةً مُثقَلَةً بمرارة الوجود، وفي النقطة التي تتعاظَمُ فيها تلك المرارة، ينفتح واقعٌ جديد.

"حتى في حالات الانفصال التام عن واقع العالم الخارجي، كأحد أعراض تشويش الهلوسة، يتعلَّم المرء من المريض بعد علاجه، أن ثمَّة شَخصٌ طبيعيٌّ يختبئ في رُكنٍ ما في عقلهم، مُشاهِد صامت ينظر إلى صَخَبِ المرض إذ يَعبُر أمامَه".

سيجموند فرويد، مدخل إلى التحليل النفسي.

هناك أشخاص شعَرَت أناهم في مرحلةٍ ما بأنها لا حَقَّ لها في الوجود، والآن حين تواجِهُ الواقعَ فإنها تتفكَّكُ وتَنحَلُّ، وتختبر العديدَ من الأشياء على أساس أنها بلا روح. هناك أيضًا مَن يَرَون أن الآخرين خيالٌ، إنهم يعتقدون أن الناس الذين يمرُّون بهم أو يلتقونهم أو يعيشون معهم جزءًا من حُلمٍ أو من خيالِ شخصٍ آخر، إنهم ببساطة بلا وجودٍ مَلموسٍ.

تكرَّرَت تلك المعتقداتُ بين كثيرٍ من الناس في أماكِنَ شَتَّى مَرَّاتٍ لا تُحصَى عبر الزمن.

ثمَّة أشخاصٌ يعتقدون بأنهم غير حقيقيِّين، يشعرون أنهم أمواتٌ كالجمادات، بعضهم يعتقد أنهم نَسْجُ حُلْمِ شَخصٍ آخر، وآخرون يعتقدون أنهم جُزءٌ من حلم أَحَدِهم، بينما تَظنُّ مجموعةٌ أخرى أنهم صُنِعوا كما تُصنَعُ الأدوات.

هناك أيضًا من لا يَسعَونَ لشرحِ عدم واقعيَّتِهم، تكرر فقدان الشعور بالنفس في العديد من الأماكن، وتكرر مرَّاتٍ لا حَصرَ لها عبر الأجيال، إنهم يرغبون بشدَّة في تجربة شيء حقيقي، أن يختبروا شعورًا حقيقيًّا، البعض يسعى لذلك من خلال الألم، يغرس شابٌّ ما الإبرةَ في أصابعه، أو ينتزع شعره أو يخدش وجنتيه، أو يخبط رأسه في الحائط، وحين يسأله أحدُهم عن سبب القيام بذلك يجيب: "لكي أشعر أني على قَيْدِ الحياة".

لكن ما من ألمٍ يكفي، حتى لو كان باقتلاع العينَيْن، حتى لو كان بتعريض المرء نفسه لأبشع أنواع الموت البطيء إيلامًا؛ لأن "أناه" ماتت منذ وقتٍ طويل، وإن كان يمكن لشيء أن يُحييَها فحتمًا لن يكون الألم.

"أوه يا ابنة الهواء تعالي!

من حدائق أبيكِ... وأرجوك ألَّا تأتي بروحٍ أرضيَّة

بل انهضي على الأقلِّ يا حبيبتي... بأي شكل آخر".

فريدرش هولدرلين

على مدار الحياة تتشكَّل الـ "أنا" بالتجارب كما يُشكِّل البَحرُ الصُّخورَ على مدار القرون. تفصل الأنا بين المرء والعالم الخارجي، لكنها أيضًا هي حلقة الوصل بينهما، الأنا هي مركز الجاذبية لعالم

المرء الشخصي، إنها شعور المرء بذاته وبالعالم، وتوجد هناك أيضًا من لا تملك أناه ثِقَةً في النفس؛ لأنها اعتقدت في الماضي أن لا حَقَّ لها في الوجود، وفي كل لحظة يمكن لباقي العالم الخارجي أن يقتحمه، وبالتالي لا حَدَّ يفصل بين أناهم وما خارجها.

يشعر كلُّ هؤلاء بالتهديد في علاقاتهم بالآخرين، إنهم يخشون أن يبتلع القُربُ من شخصٍ آخر ما تبقَّى منهم. وهذا الشعور بأن العالَمَ يمكن أن يُغرِقَ الأنا انتاب العديدَ من الناس في العديد من الأماكن على مَرِّ الزمان، مَرَّاتٍ لا تُحصى.

إنهم يشعرون أن نظرات الآخرين تُدمِّرُهم، ويختبرون وجود الآخرين على أنه تغييبٌ لوجودهم. يبدو لهم الأمرُ كما لو أن أحدهم لصق أنفه بعُنُقِه، أو كَمَّمَ فَمَه، وكأنَّ أحدًا قام بمسحهم من الزمان والمكان، أو حَكَمَ عليهم بالموت وتَرْكِ أجسادِهم سليمةً.

ولأن أناهم التي خَلَقَها خيالُهم لا تدخل في علاقات حقيقية مع الآخرين فإنها تشبه البُخار، لا يمكن الإمساكُ بها، وهو يتوافَقُ مع ما يريده هؤلاء الأشخاص تمامًا: ألَّا يلمسهم الآخرون، إنهم مُعرَّضون للاختفاء مع كُلِّ تَواصُلٍ مع الواقع؛ ولهذا يُخفي بعضُهم أناه الحقيقيَّةَ، ويُقدِّم أنا مختلِفَة، يعرضون وهمًا فيغذِّيهم بالثقة، الأمر سيَّان: سواء عُذِّبوا أو تَنعَّموا؛ لأنهم يشعرون أن ما يحدث يحدث لأناهم الخياليَّة، للوهم الذي قدَّموه إلى العالم بدلًا من أناهم الحقيقية التي تكتفي بالمشاهدة.

لكنَّهم أحيانًا يؤمنون أن حتى هذه الثقة وهميَّةٌ، وأنها ليست سوى انفصالٍ عن الواقع. فيقول الشخص الذي يشعر بانفصاله عن الواقع لنفسه ذات مساء: "أشعر أنني في زجاجة، أشعر بأن كل شيء خارجي ولا يُمكِنُه لَمسي، أثق ألَّا شيءَ يمكن أن يلمسني، كمركَبٍ في زجاجة، بمنأًى عن العاصفة لكن لا يمكنها الإبحار".

على مدار الحياة تتشكَّل الـ "أنا" بالتجارب كما يُشكِّل البحر الصخور على مدار القرون. تفصل الأنا بين المرء والعالم الخارجي، لكنها أيضًا هي حلقة الوصل بينهما، الأنا هي مركز الجاذبية لعالم المرء الشخصي، إنها شعور المرء بذاته وبالعالم.

ولامتلائها بهذا الشعور تجلب الأنا الشعورَ بتحقيق الذات، لكنْ هناك أشخاصٌ يشعرون بالخَواء، من النوع الذي لا يمكن مَلؤه بشيءٍ ما، إنهم يشعرون بالخواء كأنَّ بداخلهم أرضًا بوارًا لا ينمو فيها شيء. هذا الخواء يُعذِّبُهم، ويجرحهم، فيسعون بقوَّةٍ لسدِّه، لكن يُرعِبُهم بشدَّة الواقِعُ الذي قد يملأ هذا الخواء؛ إذ يشعرون أن هذا الواقع تهديدٌ بَشِعٌ يسعى لتدمير أناهم الخاوية.

يخوض هؤلاء الأشخاصُ في الحياة حامِلين في صدورهم أرضًا بَوَارًا ثلجيَّة، يمشون مُتعَبين من تجربتهم مع تلك الأرض البَشِعَة، لكن حين يشعرون أن بمقدورهم الحصول على الدفء والاكتمال يهربون ممَّا قد يجلب لهم هذا التغيرَ.

عندما يعجزون عن الهرب يفكِّرون فيمن بوسعه أن يَعمُرَ تلك الأرض البوار الثلجية بداخلهم ويبعث فيها الدفء على أنه أداة، وأن كل إنسان ما هو إلَّا آليَّات مُنضَبِطة ليست أكثر حياة من الساعة.

وكونهم بلا حياة فهُم غير قادرين على إبدال خَوائهم الميت. وحين يعجزون عن الهرب أو التأكيد لأنفسهم أن الآخرين ما هم إلا آليَّات مُنضَبِطَة يشعرون أن الشَّخصَ الآخر يُعَطِّل أناهم، وكأنه يجزر دواخلها، فيملؤهم هذا الشعورُ بالخوف والكراهية.

***

يُميِّز الإنسان دومًا بين نفسه والعالم الخارجي، فإمَّا يتفهَّمُهما أو ألَّا يُفكِّر فيهما على الإطلاق، لكن ألمي يخصُّني وحدي، كذلك

بهجتي، مهما تشارَكتُ مع الآخرين، ولا يمكن لآلامٍ أو أفراحِ الآخرين أن تَخُصَّني؛ فبالنسبة للبشر الأنا هي الأنا، ولا يمكن لأحدٍ أن يأخذ مكانَها، ولا يمكنني أن أحلَّ مكانَ "أنا" شخصٍ آخر. مثلما تظلُّ الرياح أمرًا مميَّزًا، حتى لو عَبَرَت من خلالي، حتى لو اخترقَت عظامي حين تشتدُّ، فستظلُّ الرياح رياحًا، وستبقى الأنا أنا.

لكن هناك مَن تهربُ منهم أفكارُهم ومَشاعِرُهم وتستقرُّ في شخصٍ أو شيء آخر، أو ربما تعلَّموا منذ زمن بعيدٍ أنَّهم سيشعرون بألمٍ أقلَّ إذا تحوَّل جزءٌ من أناهم (الجزء الذي يشعر بالأشياء) إلى شيء آخر، بدلًا من أن يبقى بداخلهم.

تسمع فتاةٌ ما صوتَ الرِّياح بينما تحاول النوم، فيُخيَّل إليها أنها هي مَن ينتحب لا أعماقها "يا له من أمرٍ حزين، كيف تعوي الرياح بهذا الحزن"، تستمع إلى الرياح ولا تسمَعُ نَحيبَها الداخلي، تظلُّ عاجِزَةً عن رؤية ما يئِنُّ بداخلها؛ لأنه في وقتٍ ما يؤلمها نحيبُها وكأنَّ شيئًا ما يُقتَلَع من جذورها والآن تستمتع إلى الرياح تعوي في حزنٍ.

***

الجنون في بعض الأحيان سَفَرٌ من الألم إلى الخَدَر، وأحيانًا يكون سَفَرًا من ألَمٍ إلى ألَمٍ أكبر.

***

أستطيع أن أشرح كيف يُفضي الألم العقليُّ الشديد والأحداث البَشِعَة المفاجئة إلى الجنون كما يلي: ترتبط كلُّ هذه المعاناة دومًا بالحاضر كحَدَثٍ حقيقيٍّ، وكذا تكون مُؤقَّتَةً، ولا تُشكِّل حملًا زائدًا، إنما تصبح شديدةً عندما يُصبِحُ الأملُ غيرَ مُحتَمَلٍ، لكن هذا لا يحدث إلَّا في الأفكار، وبالتالي لا تتأثَّر به سوى الذاكرة، عندما تصبح هذه الأحزان أو الأفكار المؤلمة أو الذكريات مُوجِعَة للغاية يستسلم المرء لها. يتحوَّل

الشخص الذي يعاني هذه الدَّرجَةَ من العذاب إلى مجنونٍ كملاذٍ أخير لإنقاذ حياته، العقل المُعذَّب سوف يُمزِّق خيوط ذاكِرَته، وسيملأ الفراغات بالخَيال، وكذا يلجأ إلى الجنون هربًا من الألم العقلي الذي يَقهَرُهم، تمامًا كما تُبْتَرُ الساقُ المصابَةُ بالغرغرينا وتُستبدل بواحدة خشبيَّة.

شوبنهاور- العالم إرادة وتَمَثُّلًا

***

ثمَّة أشخاصٌ لا يتحمَّلون واقعهم، فينزلقون إلى عالم خيالي تمامًا، يفقدون أنفسهم في حلمهم الداخلي، والذي لا يُعَدُّ فقط سِنَّ سكينٍ جَرَحَهم حَدَّ التَّبَلُّد، بل إن السِّنَّ قد ذاب تمامًا، يفقدون أنفسهم في حُلمٍ داخليٍّ، حيث يومِضُ إدراكهم لكلِّ أمنية، وتترسَّب أمانيهم عند نقطة واحدة: أن يظلُّوا في سلامٍ وبَرَكة.

كان هناك أشخاصٌ مثل هؤلاء في "العش"، يستلقون على أَسِرَّتهم بينما تُرسَم الابتسامةُ على شفاهم، بدوا وكأنهم مُنفصلون عن هذا العالم، وكأنهم سُمِح لهم لِتَوِّهم أن يدخلوا ويعبروا من باب الجنة أو أن يعودوا إلى أرحام أُمَّهاتهم.

***

راح چيرارد دي نيرڤال Gérard de Nerval يتذكَّر قصيدته:

نجمي الوحيد مَيِّتٌ، وخِلقتي الحادَّة تُكابِدُ شمسَ الجنون السَّوداء.

***

في الجنون لا يوجد فَرْقٌ بين ما بداخلي أو خارجي، ينطوي العالَمُ بأَسْرِه بداخلي، وفي الوقت نفسه تنفصل عنِّي أهمُّ أجزاء الأنا، إنها خارجي في مكانٍ ما، لم تَعُد ملكي، أو هي ملكي، لكن يُسَيطِرُ عليها آخرون.

في "العش" كانت هناك غرفٌ لا يتركها المجانين، غُرَفٌ طُرِحَت فيها عشراتُ الأبدان المخَدَّرَة، أو التي تُعافِرُ كالحيوانات للفكاكِ من أَشرِطَتِها وقيودها.

أُطلِق على تلك المجموعة الثانية "خَطِرون"، سمح لنا دكتور جوته أحيانًا بالذهاب إلى تلك الغُرَف، حيث يستلقي النُّزَلاءُ بلا حراكٍ، أو مُقيَّدين، نظرنا إلى تلك الرؤوس المتأمِّلة، المخيفة، المحمومة.

الرؤوس المضروبة بالرُّعب، نظروا إلينا بعيونهم المُتعَبة الفارغة إلَّا من الخوف، ونشوة المجنون، حُبًّا وكراهيةً لا أساس لهما، عيون ملأى بالاحتقار والبهجة، عضُّوا شفاهَهُم في صمتٍ، ودفعوها إلى الخارج في دهشة، ومن خلالهم يُصدِرون أصواتًا تكاد تكون مسموعةً، يباركون أو يَسبُّون، يصيحون في الألم والسَّعادة.

في الجنون يتمزَّق الرابط بين الأنا والواقع، وتخلق الأنا واقِعَها الخاص، بتأثيرٍ من سيول عقلها الباطن، أولَئِكَ الذين فقدوا التَّواصُلَ مع الواقع لا يعبؤون بمصيرهم، إنهم فقط يعيشونه، إنهم القَدَرُ نفسه، فأن تكونَ مجنونًا يعني أن تصير قَدَرَك ذاتَه، دون أن تختبر الشُّعورَ بنفسك كـ"أنا" مُنفَصِلَة.

***

أطلقنا على الغرفة التي يجلبون إليها النُّزلاءَ المشرفين على الموت "غرفة الموت". اصطحبتني كلارا ذات يوم إلى تلك الغرفة الطويلة المشبعة بنكهة الموت، رائحة سمكٍ نَيِّئٍ يتفسَّخ، رائحة الغائط، رائحة

عَرَقٍ، ووسط هذا أبدان نَتِنَة تتقلَّب عشيَّةَ الموت، وأبدان تنتظره في جمود.

يستلقي العديد ممَّن ينتظرون الموت فوق حَشايا على الأرض، مُتعذِّبين بنَفَسٍ آخر. كان الجوُّ باردًا لكنني شعرتُ بشيء ما يتبخَّر في تلك الغرفة المظلمة. حين نظرتُ إلى أولئك الذين يوشكون على الموت شعرت أنهم مختلفون ومُتَشابِهون في نفس الوقت، الجميع يطلقون أرواحَهم بالزَّفير، لكن كل شخص يزفر بطريقته.

قالت لي كلارا: "لن أنسى أبدًا أوَّلَ حالة مَوتٍ رأيتُها هنا، أثناء الغداء في قاعة الطعام، سقَطَت رأس ريچينا بجوار صحنٍ من الحساء وكأنها تسقط في النوم".

عندما كان يموت أحدٌ في "العش" ينتشر الخبر في كُلِّ أرجاء المستشفى، كل شخص كان يُمَرِّر الخبر بنبرته الخاصة، يُهَمهِمون أو يتحدَّثون بصوتٍ عالٍ، بهدوءٍ أو صراخ، بسرعة وكأنه يريد أن يتجاوز أفكاره، أو ببطء كأنه يرغب في تشتيتها.

ثمَّة أشخاصٌ لا يستطيعون التَّكيُّف مع الزمن، ففي عالَمِهم الداخلي تَمَّ اقتلاعُ بعض اللحظات والصور والأحداث، وفُقِدَ ترتيبها، حتى حاضرهم وماضيهم ومُستَقبَلِهم بُعثِر، ما حدث وما لم يحدث، يحاول بعضُ هؤلاء الناس تَسويةَ الوقت، وترتيبَ الأحداث، ما قبل وما بعد، ما يحدث وما حدث منذ زمنٍ بعيد، وما حدث مؤخَّرًا وما قد يحدث حاليًا، وما وقع بالفعل وما لم يقع، وخلال تلك المحاولات يشعرون أن ما بذلوه من جهدٍ يذهب هباءً، حتى يفقدوا الشعور بموقعهم الحقيقي من الزمن.

وهناك أشخاصٌ لم يَعُد بمقدورهم التَّأقلُمُ مع مبدأ المكان، بعضهم لا يُميِّز بين ما هو قريب وما هو بعيد، وآخرون لا يفرِّقون بين الخلف والأمام، اليمين من الشمال، ما هو فوق وما هو بالأسفل.

تشعر مجموعةٌ ثالثة بأن كل شيء حولهم يتمدَّد، فينقبضون إثرَ ذلك، هناك أيضًا مَن يشعرون أن كُلَّ شيء حولهم يختفي؛ لهذا يلمسون كل شيء قريبٍ منهم: الجدران والأشياء والأرضيات، ومع ذلك تبدو لهم أنها غير موجودة.

أحيانًا كانت تأتي والدة هينريك إلى "العش" في الوقت المخَصَّص للراحة خارج المستشفى، في هذا الوقت كان هنريك بالكاد يتحرَّك؛ لأن عقله يعجز عن توجيه أَمرِ الحركة لجسده. أمضى أيَّامًا في الفراش، عَدَا أيام الراحة، عندما تقوم الممرِّضات بضبط وضعيَّته ودفعه، فيبدأ في التَّحرُّك كأنه آلة، يخطو خطواتٍ ثقيلةً طالما كان يدفعه أحدهم؛ لذلك يدفعون به عبر الممَرِّ إلى المخْرَجِ، ثم إلى أحد المقاعد، ويَضغطون على كتفيه فيجلس.

كل شيء في حركته كان يعطي الشعور بأنه آلةٌ، حين جلس راح يُحَملِقُ في بؤرة واحدة وظَلَّ يُحدِّق فيها حتى بعد مجيء أمِّه التي كانت تجلس بجواره وتضع يدها على يده، وتتحدَّث معه بدفءٍ وهدوءٍ ينسى معهما المرء أنها تعي حالة ابنها.

كانت عينا المرأة المسِنَّة تُشِعُّ حيويَّةً مُذهِلَة، وكذلك شفتاها حين تشرع في الحديث، وفي حركة يديها اللتين لا تستقرَّان على يَدَيْ ابنها، بل تُلوِّح بهما في الهواء بِرِقَّةٍ وسعادة، تتبعها بترتيل كلماتها. نظَرَت إلى ابنها وكأنها تنظر إلى وجهٍ مرسومٍ طبقَ الأصل من وجهها.

لكن هنريك ظلَّ يُحدِّق دون أن يُحرِّك بُؤبُؤَيْ عينيه، وكأنَّ لا شيء حوله، وكأنه هو أيضًا لا وجود له.

لاحِقًا عندما حان وقتُ عودتنا إلى غُرَفنا أمسك الممرِّضون بهنريك من أسفل ذراعَيْه، فنهض بنفسه، ثم هزَّ ظهره وخَطَا بآليَّةٍ مُحرِّكًا ساقَيْه بصعوبة. نهَضَت أُمُّه حين اختفى ابنُها داخل المبنى، وقد تحوَّل وجهها تمامًا، وكأنَّ نحسًا ما قد وقع عليها، ليس نحسًا جديدًا

مفاجئًا، بل نحسًا طويلَ الأجل، لم يَعُد يثير الوَجَلَ، بل خضوعًا يحمل الشَّقاء بعيدًا. ثم شَقَّت طريقها خارج "العش" بعينَيْن مُتعَبَتَيْن وخطواتٍ ثقيلة.

وكأنَّها هاويَةٌ ما تتثاءب في وجه مَن يعتبرون أنفسهم أسوياءَ، ومَن يعتبِرُهم الأَسوياءُ في مصاف المجانين. فأولئك الذين يقفون على شاطئ الصَّواب يبدون غرباءَ بالنسبة لبعضهم البعض، لكنهم يعلمون أنهم يتشاركون الشاطئ نفسه والواقع ذاته.

أمَّا على الشاطئ الآخر فكل شخص يعيش في عالمه الخاص؛ لأن الجنون يضرب عندما تنفصل الأنا عن الواقع، وأثناء انفصالها تخلق وهمًا آخر لنفسها، لا جسورَ بين شاطئ العقل والجنون، أحيانًا ينظر أحد الواقفين على شاطئ الصَّواب إلى نفسه وإلى الهُوَّة الفاصلة بين الشَّاطِئَيْن حتى لا يكون بمقدوره سَحْبُ نظراته. تَسحَبُه نظراتُ المراقِبِ إلى شفا حافَّةٍ ثم يسقط، يسقط في الهاوية لكنه لا يختفي فيها، بل يَصِلُ إلى شاطئِ الجنون.

أحيانًا يَكفُّ أحد الواقفين على شاطئ الجنون عن التَّحديق اللانهائي إلى ذاته وإلى الهاوية، ثم بمعجزةٍ ما يظهر على الشاطئ المقابل، ولا توجد جسورٌ بين الشَّاطِئَيْن، لكن بعض الأشخاص يعبرون من شاطئ إلى الآخر، ورغم أنهم لا يفنون في الهاوية إلَّا أنهم يمرُّون بالموت، إن العبور من شاطئ العقل إلى شاطئ الجنون -أو العكس- كالانتقال من عالَمٍ لآخر.

"إن نظرتَ طويلًا إلى الهاوية فإنَّها ستنظر إليكَ".

نيتشه- ما وراء الخير والشر.

***

تمشي امرأة مُسِنَّةٌ وابنها في متنزَّه كاننفيلد في بازل، توحي ملامِحُ الابن أنَّ كُلَّ شيء بالنسبة له يبدو بعيدًا للغاية، وكأن الأشياء كلها تأتيه من عالَمٍ آخر، من حياةٍ غريبة: الكتب التي قرأها، المحادثات التي خاضها، حصيلةُ الأيَّام التي عاشها وليالي الأَرَق، كان يرى هذه الأمور وكأنه ينظر إليها عَبرَ زجاجٍ مُضبَّب، ربما يصبح بمقدوره أن يشعر بأنه عاش تلك الحياة من قبل، لكن بالنسبة له فإن هذا الماضي ظلامٌ دامس، أو أنه في لحظته الحالية في ظلامٍ دامِسٍ بالفعل، ولا يعينه الضَّوءُ الذي يبعثه له ماضيه على الرؤية الواضحة بل يَعميه.

يكاد الموت يُفرِّق بين الوجود الحالي والوجود السابق، ماسِحًا كلَّ ما طرأ في السابق، في لحظة واحدة، بينما يخطو الاثنان ببطءٍ في المتنزَّه يلمح الابن بستانيًّا يقطع بعض الأزهار، فيرتجف، يمتلئ وجهه -الذي كان خاليًا حتى تلك اللحظة- بمشاعِرَ شتَّى، وكأنَّ ما لمحه قد جذب خيطًا بداخله، خيطًا يقوده إلى كل شيء كان عليه في وقتٍ ما لكنه لم يَعُدْ يملكه الآن، لا يمكنه تَتَبُّع هذا الخيط إلى ما كان عليه، وكذلك لا يمكن لما كان عليه أن يتتبعه إلى ما أصبح عليه الآن.

شَدُّ الخيطِ فقط يُثير بعض المشاعر، ذكرياتٍ مُبهَمَةً، فيَشرَعُ في البكاء كطفلٍ صغير. تجذب أُمُّه منديلًا تمسح به دموعه وما سال من أنفه على شاربه الكبير.

تقول له: "لا تَبكِ يا فردريك... لا تَبكِ"، ثم تأخذه مرَّةً أخرى من يده وتقوده عبر المتنزَّه.

ساعة يغدو الهواءُ رائقًا نقيًّا

عندما يتراءى هلالُ القَمَر

شاحِبًا وحسودًا يتسلَّل عبر حُمرَة الشَّفَق

عَدوًّا للنَّهار

خُفيَةً يضرب بمنجَلِه مع كُلِّ خُطوَة
على أراجيح الورود
حاصِدًا إلى أن تهوي
ذاويةً تهوي في هاوية الليل
هكذا هَوَيتُ أيضًا ذاتَ يومٍ
من علياء جنوني المهووس بالحقيقة
من رغبات نهاري
مُتعَبًا من النهار، مُنهَكًا بالضَّوء
"شاقوليًّا" هَوَيتُ مُنحَدِرًا إلى قاع المساء إلى العَتَمَة
محترقًا بحقيقة واحدة
وظمآنَ
أَمَا زِلتَ تَذكُر؟ أتَذكُر أيُّها القَلبُ المتوقِّد
كيف كنت تحترق عطشًا آنذاك
لأنِّي منبوذٌ كنتُ من كُلِّ حقيقة
لا شيء سوى أحمقَ...
لا شيء سوى شاعِرٍ[1].

(1) فريدريك نيتشه: نشيد الكآبة، هكذا تَكَلَّم زرادشت. ترجَمَه عن الألمانية: علي مصباح.

ذات ظهيرةٍ كتب قِنسنت جوخ خطابًا لأخيه يشرح فيه مَصحَّ سان ريمي:

"أؤكِّد لكَ أنني بخير حالٍ هنا، وإنني لا أرى في الوقت الحالي ما يدعو للذهاب إلى باريس والاستقرار فيها أو في ضواحيها، لديَّ غرفةٌ صغيرة بستائِرَ رماديَّة تميل للأخضر، وستارَتان خَضراوان مرسومٌ عليهما أزهارٌ باهِتَةٌ للغاية، مُحدَّدتان بخَطٍّ رفيعٍ من الأحمر القاني.

يمرُّ بي الخوف من الجنون كلَّما رأيتُ عن قُربٍ هؤلاء الذين أُصيبوا به، والذي قد أُصابُ به بسهولة في المستقبل.

قبل أن يُساوِرَني أيُّ شعور بالمقْتِ تجاه تلك الكائنات، كان يُرهقني استيعابُ فِكرةِ أنَّ العديد ممَّن امتهنوا مِهنَتَنا انتهى بهم الحال هكذا. الآن لم أَعُدْ أخشى الأمرَ حين أفكِّر فيه، بل لم أَعُد أرى الأمر مُفجِعًا أكثرَ من موتهم بأي سببٍ آخر.

على الرغم من أن هناك مَن يعوي أو أحيانًا يهذي، لكنهم يُكِنُّون لبعضهم صداقةً حقيقيَّةً، يقولون إن على المرء أن يعاني لأجل الآخرين حتى يعاني الآخرون لأجلنا، وفي مُحيطنا نحن نفهم بعضنا البعض على أحسن وَجهٍ، يمكنني على سبيل المثال أن أخوضَ مُحادَثَةً مع شخصٍ لا يجيب إلَّا بهَمهَماتٍ.

إنْ واجه أحدُهم أزمةً يَرْعَهُ الآخرون، أو يتدخَّلوا ليمنعوه من إلحاق الأذى بنفسه، الأمر ذاته يحدث مع هؤلاء الذين يُصابون بالهَوَس فيهرع قُدامى الجنود لتفرِقَةِ المتعاركين إن كانت هناك معركة، صحيح أن هناك بعض الحالات الأكثر سوءًا، سواء كانوا قَذِرين أو خَطِرين، فإنَّهم في عَنبَر آخر في قسمٍ ثانٍ.

تُشبِه الغرفة التي نجلس فيها في الأيام المطيرة غرفةً ثلاثَ نجوم في قرية ساكِنة، وأكثر من ذلك مع وجود مجانين شرفاء يرتدون دومًا

القُبَّعات والنَّظَّارات وملابس السفر، ويحملون عِصيًّا، تمامًا كمصطافين على الشاطئ.

بالأمس رسمت عِثَّة ليليَّة كبيرة ونادرة تُدعى رأس الموت، برَزَت ألوانها بشكل مُبهِر: أسود ورمادي وأبيض، ومُظلَّلة بلمعانِ القُرمُزيِّ أو يميل بالكاد إلى الأخضر الزيتوني. إن حجمها كبيرٌ جدًّا على الرسم أردتُ أن أقتلها، لكن هذا كان ليبدو مؤسفًا؛ إذْ كانت حَشرةً جميلةً للغاية".

***

أحيانًا كان أخي يزورني في "العش"، كان دكتور جوته يَسعَدُ دائمًا بحضور زميله الدكتور فرويد؛ إذ ينخرطون في مُحادَثاتٍ طويلة، وغالبًا ما تَتحوَّل محادثاتهم إلى خلافات صغيرة.

لم أشارك في مُحادَثاتِهم، فقط كنت أسمع نَبرةَ أصواتهم وأدائهم، أراقب تعبيرات وجوههم وإيماءاتاهم وحركات أيديهم.

ذات مرَّة اقترح دكتور جوته أن نُقيم احتفالًا كبيرًا في "العش"، كان الهدفُ من الكرنفال هو أن يُبهِجَنا، وأن يجذب أيضًا أموالَ المتبرِّعين للمستشفى. استعددنا قبل أسابيع من الحدث الكبير، تَمَّ فقط استبعاد العنيفين، والمصابين بالهَوَس، والشهوانيِّين، وأولئك الذين يرقدون بلا حراكٍ في أَسِرَّتِهم.

اعترَضَت أوجوستينا قائلة: "لكن لماذا لا يُسمَح لي بالمشاركة في الكرنفال؟".

أجابها دكتور جوته: "لأننا قرَّرنا أن تَبقى الشَّهوانيَّات في غُرَفِهنَّ أثناء الكرنفال".

تَذمَّرَت أوجستينا قائِلَةً: "هذا ظُلمٌ هذا ظُلمٍ!".

استعدَّ كُلُّ مَن في "العش" -ما عدا المستبعدين للكرنفال-. كُنَّا ننتظره بفارغ الصَّبر، ليس باعتباره حَدَثًا سيستمرُّ لمساءٍ واحد وحَسبُ، بل وكأنه سيبدأ لنا وجودًا جديدًا. سمح لنا الأطباء أن نختار ما سنرتديه، وقُمنا بحياكته معًا، تحدَّثنا بشأن الأزياء، وحِكناها كما لو كُنَّا نصنع لأنفسنا أجسادًا جديدة.

قالت كلارا: "ها هي"- وأمسَكَت بالقُبَّعَة الكبيرة التي انتهت من حياكتها.

قال كارل الذي كان يتوهَّم أنه نابليون: "سوف أستعيد مملكتي مجدَّدًا".

قام كُلُّ شخص باختيار ملابسه بحسب ما يتخيَّل وجوده، فبالنسبة لمن يعتقد أنه شخصٌ آخر بخلاف ما يراه العالَمُ الخارجي، مثل توماس الذي طلب -بجانب الملابس المهَلهَلَة- أن يُسمَحَ له بحَمْلِ صليبٍ على ظهره، كما الحال مع يلريك التي طلبت ألماسًا حقيقيًّا لتاجها، كذلك يواقيم الذي أصرَّ على بِنطالَيْن باللَّون الأصفر، ومعطفٍ أزرقَ مثل فِرتر[1].

كانت مَلابِسُهم بدايةً لمعرفةٍ كامِلَةٍ بوجودهم القائم بالفعل في عالم الأزياء، وقد اعتمدوه من قبل في خيالهم.

أراد البعضُ أن يكونوا شخصيَّاتٍ من عالَمٍ آخر، فَصَّلوا لأنفسهم ملابِسَ تحميهم في هذا العالم، فَصمَّموا دروعًا من الأسلاك تُشبه الأقفاص، جَهَّزوا أزياء تُساعِدُهم على هزيمة هذا العالم، أزياء يمكنهم بها أن يتحوَّلوا إلى حيواناتٍ خَطِرَة، أو كائنات من قصص ما عن الحيوانات، وصمَّموا أزياء ليهربوا بها من هذا العالَم، وصنعوا أجنحةً

(1) آلام الشاب فِرتر (بالألمانية: Die Leiden des jungen Werthers): رواية رسائليّة للأديب الألماني يوهان ڤولڤجانج ڤون جوته.

لِيُحَلِّقوا بعيدًا، حاكوا ملابسَ ليست بملابسَ، بل نسيجًا يُغطّي حائطًا مُتحرّكًا، أو صندوقًا أو حَجَرًا.

كنتُ أذهب يوميًّا إلى الغرفة التي تُجهَّز فيها الملابس، ذات يومٍ حين شاهَدتُ الآخرين يقومون بالقياس والحياكة فسألني دكتور جوته: "لماذا لم تَستعدِّي للكرنڤال؟".

قلتُ له: "أنا فقط لا أعرف أيَّ شَكلٍ أتغيَّر إليه".

"آه! إن الكرنڤال ليس هدفه التغيير، بل التَّحوُّل، فليس السؤال: ماذا أرتدي من أجل الكرنڤال، بل ماذا أريد أن أصبح، ماذا أريد أن أكون، وليس ما لا أريد أن أكون، بل ما أكونه، هذا هو السؤال".

قلتُ: "ماذا أريد أن أكون"- ليس بصيغة السؤال، بل لسان حالي: "أنا لا أريد أن أكون أي شيء".

ثم رأيتُ قطعةً من النسيج مُلقاةً، لَفَفتُها ووَضَعتُها على نهدي الأيسر، ضَمَمتُها إلى ذراعي كَمَن يحمل رضيعًا، ثم قلتُ: "حَسَنًا، سأكون أُمًّا في الكرنڤال".

دُعِيَت المدينةُ بأسرها إلى الكرنڤال في "العش"، ولم تَكُن المساحاتُ الواسعة لتكفي الحضور.

قبل الحَدَث بأسبوعٍ قال دكتور جوته: "بيعَت كُلُّ التَّذاكر"، وراح يفرك يديه بسعادة، ثم أضاف مُوَجِّهًا كلامه إليَّ أنا وكلارا: "أخوتكما أيضًا سيحضرون".

قالت كلارا: "فليأتوا... سأبقى في غرفتي تلك الليلة".

في تلك الليلة اكتظَّت حديقةُ المستشفى، وقف الحشدُ في دائِرَةٍ واجتمعوا في النقطة المركزيَّة. تَدافَعوا لرؤية الأزياء المزَيَّنَة بالريش، أشخاصٌ بقُبَّعات مُهَرِّجين، أناسٌ يرتدون أزياء مُلوَّنة، وباللون الأحمر القاني، أناسٌ بأجنحةٍ، ملائِكةٌ وفَراشاتٌ وطيور، وهناك أشخاص

اختبؤوا داخل بيضةٍ بفتحاتٍ لعيونهم، أناس تحت غطاءٍ أزرقَ طويلٍ لأنهم كانوا فيما سبق أنهارًا، أناسٌ بأبواق يُعلِنون يومَ القيامة، أناسٌ تَدَحرَجوا في أغطيةٍ حمراءَ واحترقوا في الجحيم، وآخرون استلقوا على غطاءٍ أزرقَ يَتنعَّمون بسلامٍ في الجَنَّة، ورجل بصليبٍ على ظهره، راح ينظر إلى الظَّلام وصاح مُناديًا: "إلهي... إلهي... لماذا تركتني؟".

كانت المصابيح والمشاعِلُ تملأ المكان، بعض اللَّهَب كان يتصاعَدُ في السماء المظلِمَة. جُلتُ بعيني أبحث عن أخي، لكنَّني لم أعثر عليه، أحدُهُم جَذَبَني من أكمامي، التفتُّ فكان چوستاڤ، قلت له: "كلارا في غرفتها".

قال: "سأزورها فيما بَعدُ، أرغب الآن في إنهاء أمرٍ ما"، وغمز لي بينما يتَّجِه نحو الأجمة في نهاية المتنزَّه بصُحبَةِ امرأة شابَّةٍ، حتمًا التقاها هنا في الحشد.

واصَلتُ البحث عن أخي في الحشد، وعندما استسلمتُ واتَّجهتُ إلى الطاولات المرصوصة عند مدخل مبنى المستشفى، حيث كانت عِدَّةُ ممرِّضاتٍ يَبِعنَ المشروبات والأطعمة، رأيتُ سيجموند يضع كأسًا فارغًا ويقدِّم مالًا ليستلم كأسًا مليئًا، فمضيت نحوه.

قلتُ له: "يبدو أنَّك تستمتع وقتك"، فابتسم.

"هل ترغبين في بعض الشنابس؟"، وأشار إلى كأسه.

"الكحول مسموحٌ به للضيوف وليس لنا".

"يمكنني أن أجلبَ لنفسي واحدًا لتشربيه".

"أنتَ تعرف أنني لا أشرب الكحول".

"أنا لا أَشرَبُ أيضًا... لا أعرف لماذا الآن...".

مكتبة
t.me/t_pdf

صعدنا دَرجاتِ مَدخَلِ المستشفى، ومن هناك حَصَلنا على رؤيةٍ واضِحَةٍ لِمَا يحدث في النقطة المركزية من الملعب، حيث كان عددٌ

مـن النـاس يركبـون فـوق سـمكة ضخمَـةٍ حيكَـت مـن وسـائد تَـمَّ تخييطُها ببعضِهـا وراحـوا يصيحـون: "نحـن نطـير نطـير!".

رفَعَـت امـرأةٌ مُسِـنَّةٌ خُفَّهـا الزُّجاجـيَّ وقالـت: "والآن أيـن الأمـير لـيرى أن هـذا الخُـفَّ مُناسِـبٌ كأنَّـه مصنـوعٌ لقدمـي الصغـيرة؟".

وهنـاك رَجُـلٌ وامـرأةٌ مُسـنَّان بجناحَـيْ فراشـةٍ ضَخمَـةٍ يمشـيان عـلى سـاقٍ واحـدة، والآن يمشـيان عـلى السـاق الأخـرى.

"إنه عَرضٌ مسرحي"- قال أخي.

قلت: "أو سيرك".

"نعـم كـما في القـرون الوسـطى، عندمـا كان يُحشَـد المجانـين في المدينـة، كان رجـال البلديـة يجمعونهـم في الميـدان ليتـولَّى الحَشـدُ تحويلَهـم إلى مـا يُشـبِهُ اسـتعراضات السـيرك، ثـم يُدفَـعُ بهـم خـارجَ المدينـة فتُغلـق البوَّابـات المحصَّنـة خلفهـم".

"لا أظـن أن أغلـب مَـن في العـش سـيعارضون خروجهـم مـن العـش بعـد انتهـاء الكرنفـال، لـن يبقـى سـواي أنـا وكلارا وبعـض الآخريـن".

"وهو ما يُثبِتُ أنَّكِ لا تنتمين لهذا المكان".

"أو أنه المكان الوحيد لنا... لكن لِمَ أتيتَ هكذا؟".

"كيف؟".

"بلا قِناعٍ... أنتَ ترى أن حتى الضيوف يرتدون زيًّا تَنكُّريًّا".

"بعضهم وحَسب".

"لكنَّكَ تحتاج لتغيير ملابسكَ".

قال: "أنتِ تعلمين أنني لا أحبُّ هذه الأمور".

"وأنتَ لا تُحبُّ الكحول، لكنَّكَ شَربتَ رغم ذلك".

نـزل الـدَّرَجَ ومـضى ناحيـة الطـاولات، دفـع نقـودًا وأعطـى الـكأس الفارغـة لإحـدى الممرِّضـات التـي قامـت بمَلئِـه مـرَّةً أخـرى.

"تعال، تعال غيِّرْ ملابِسَكَ".

قُدتُـه إلى مدخـل مبنـى المستشـفى، قلـتُ للحُـرَّاس إن أخـي سـيُبَدِّل ملابسـه؛ فسـمحوا لنـا بالدخـول.

مضينـا إلى القاعـة الكبـيرة حيـث بُعـثِرَت الأزيـاء التَّنكُّريَّـة التـي أحضرناهـا مـن مـسرح بـورج[1]، والتـي لم يَتـمَّ اسـتخدامُها؛ لأن كُلَّ شـخص أراد أن يُصمِّـمَ لباسـه الخـاص.

قلتُ له: "هاكَ، هذه لَكَ".

قـال أخـي بينـما يمسـك الـزِّيَّ بـين يديـه: "أنـت تعرفـين أننـي لا أحـبُّ أن أبـدو أحمـقَ".

قلـتُ لـه: "أعـرف، ولهـذا تحديـدًا أنـا أُحَوِّلُـكَ إلى أحمـق، يمكنـك أن تَتخلَّى عـن قنـاع الجدِّيَّـة ولـو لليلَـةٍ واحـدة".

"فات الأوان الآن، لقد انطبع هذا القناع على وجهي منذ زمن طويل".

قلـتُ: "تعـالَ، بَـدِّلْ ملابِسَـكَ"، والتفـتُّ إلى الحائـط كي لا أرى دكتـور فرويـد في لباسـه الداخـلي.

بعد وقتٍ قصير قال: "أنا جاهز".

التفـتُّ إليـه وبـدأتُ في الضحـك؛ إذ كان الـسروالُ الزهـريُّ شـديدَ الضِّيـق عـلى سـاقَيْه، وكان القميـصُ مُبَهـرَجَ الألـوان، واسـتقرَّت فـوق هـذا الوجـه الجـاد باللِّحيَـةِ والنَّظَّـارة قُبَّعـةٌ بنُقطَتَـيْن برتقاليَّتَـيْن، تعلوهـما شَـدَّاتُ وَردٍ خـضراءُ.

"أنا أحمقُ فعلًا... ألستُ كذلك؟".

---

(1) المسرح الوطني في ڤيينا النمساوية.

لم أُجِبه، فَقَط ضَحكتُ.

"ماذا عنكِ؟ أنتِ لم تبدِّلي ملابِسَكِ".

قلتُ: "بالنسبة لي الأمرُ سَهلٌ"، وأخذتُ قميصًا من الملابس المبَعثَرَة، وطَوَيتُه فوق بَطني أسفلَ ملابسي، وضَعتُ يدي على ثوبي لأُدعِّم القميص المطويَّ أَسفَلَه، وقلتُ: "والآن كلانا أصبح ما يتمنَّاه".

نظر أخي إلى يديَّ اللتين أُمسِكُ بهما بطني. قلت له: "والآن سأُريك الغُرَفَ المشتركة في العش، هذه الغرفة هنا التي تُعتَبر الآن غُرفَة لتغيير ملابسنا، هي القاعة الكبرى، حيث يحاضرنا فيها أحيانًا دكتور جوته، يشرح لنا الجنون، يظنُّ أن هذا سيُساعِدنا على فَهْمِ أَنفُسِنا".

"أَما زال يستخدم كلمة جنون؟".

"نعم، إنه يقول إنها أفضل، وهو مُحِقٌّ في ذلك".

"لكنَّ الأخلاقيات الطِّبِّيَّة توصي منذ وقت طويل بالبحث عن مُفرَدَةٍ أخرى".

"دكتور جوته يقول إنه لو أَطلَقَ على الجنون "ذُهانًا"، لو أَطلَق علينا نحن المجانين "مرضى"، لو أَطلَق على مصحِّ المجانين "عيادة نفسية"، لو أَطلقَ على جنوننا وحماقاتِنا "أعراضًا"- فستُخلَق بينه وبيننا مسافة، ولا أعرف لماذا لا يريد هذه المسافة، لكنه أَمرٌ مُحبَّبٌ لنا، فعندما يغضب أحدنا من دكتور جوته يمكنه حتى أن يصيحَ في وجهه، ويهينه، لا يُعاقِبُنا دكتور جوته على هذا، نحن بمثابة أصدقائه".

"لستُم بحاجَةٍ لأن تكونوا أصدقاءَه، يجب أن تكون هناك مسافة، إنها أحدُ ركائِزِ العلاقة بين الطبيب والمريض، هذا شَرطٌ مُسبَقٌ للعلاج".

"لكن مَن قال أي شيء عن العلاج؟ ففي النهاية لا أحدَ مريضًا هنا، فكلُّ شخص هنا ببساطةٍ يعيش في عالمه الخاص"، وقمتُ بِضَبطِ وضعيَّة نَظَّارَتِه على أنفه التي أصابها بعضُ الاحمرار بسبب الكحول، "تعالَ لأريكَ باقي الغرف". غادرنا القاعة وهرعنا باتجاه الرُّواق.

"هذه هي المكتبة، كما ترى هي صغيرة لكن فيها كُتُبٌ جميلة"، ثم انطلقنا مرَّةً أخرى عبر الرواق وبلغنا قاعة الطعام "هنا نأكل"، ثم اصطَحَبتُه إلى غُرَف العمل، تحديدًا إلى تلك التي كانت بها المشغولات الخشبية، ثم إلى غرفة الخياطة، وغرفة النسيج، وغرفة الحياكة والتطريز، "قُمتُ أنا وكلارا بتعليم دكتور جوته التطريز".

"وهل يقوم بذلك؟".

"أحيانًا".

اصطحبتُه إلى آخر غُرفَةٍ أردتُ أن أُرِيَه إيَّاها، "وهنا يموت الناس"، وفتحت الباب، كان أخي يعرف ما سيراه؛ فلم يرغب في الدخول، "تفضَّل بالدخول، أنتَ مُرحَّبٌ بكَ هنا".

دَخلتُ أوَّلًا، ثم تَبِعَني هو، هناك -وكما العادة- انبعَثَت رائحة الموت، رائحة لحمٍ نَيِّئٍ يتحلَّل، رائحة غائِط، رائحة عَرَق، ووسط هذا النَّتَن ثَمَّة أبدان تتقلَّب عشيَّة الموت، وأبدان تنتظره في جمود. كان العديد ممَّن ينتظرون الموت يستلقون على المراتب الموضوعة أرضًا، مُعذَّبين بنَفَسٍ آخر، "في الحياة يختلف الأحياء من واحدٍ إلى الآخر، أمَّا في الموت فالكلُّ متشابهون رغم اختلافهم، الكل يتَخَلَّونَ عن أرواحهم عبر الزَّفير، لكن كل شخص يزفر طريقته الخاصة".

تَوسَّل إلينا رَجلٌ مُسِنٌّ يحتضر على المرتبة الموضوعة أرضًا أسفل النافذة قائِلًا: "ماء... قليل من الماء!"، كانت الممرِّضَة المكَلَّفَة بنوبة الليل تُقدِّم المشروبات في الكرنفال، فلم يكن هناك أحدٌ ليقدِّم الماء لهذا الميِّت.

انتزَعتُ يدي من القميص المكوَّم على بطني تحت ثوبي لكي أمسك بزجاجة الماء الموضوعة على الطاولة، وصبَبتُ بضع قطرات على الفم المتوسِّل. شكرني الرجل العجوز، وإذ أُعيد الزُّجاجَةَ على الطاولة، انزلق القميصُ من أسفل ثوبي فسقط على الأرض.

انحنيتُ وأمسَكتُ بالقَميصِ وطَوَيتُه مُجدَّدًا ووَضَعتُه على نهدي الأيسر، أُهَدهِدُه بين ذراعي كما يُمسك برضيع، بينما راح أخي يراقبني. قلت: "فلنذهبْ"، ومضينا خارِجَيْن من الغرفة المليئة برائحة الموت.

خرجنا من المستشفى ووَقَفنا على دَرَجِ المدخل ونظرنا إلى ملعب المستشفى، حيث اختلط نُزلاء وضيوف "العش" الذين اندمجوا في جلبةٍ شديدة من الرَّقص والغناء والملاحَقَة والأحاديث والجدال.

قال أخي: "أحيانًا أتذكَّر كلماتِكِ".

"أي كلمات؟".

"أن الجَمالَ عَزاؤنا الوحيد في هذا العالم".

"انظُرْ إلى كل هذا الجمال حولنا، وهو ما يعني أن ثمَّةَ الكثير من مصادر الرَّاحة، وكذا الكثير من مصادر الألم؛ لأن الراحة لها سَبَبٌ على الدَّوام".

"نعم... الكثير من الجمال"- قال أخي.

نَزَلنا الدَّرَج ومَضينا إلى الطاولات، كان أخي قد ثمِل بالفعل، أصاب وجَهَه الاحمرارُ، وصارت حرَكَتُه أسرعَ من المعتاد، وراح يتحدَّث بدفءٍ في صوته لم أشعر به منذ كان شابًّا وأنا طفلة.

قال: "لقد اكتفيتُ من الشُّرب"، ودفع لهم ليملؤوا له كأسه الفارغة، ثم خَطَا مبتعدًا عن طاولات الشرب، وقال: "أحيانًا أفكِّر فيكِ".

رددت قائِلَةً: "أحيانًا!".

"وهل تُفكِّرين أنتِ أيضًا؟".

"بماذا؟".

"في العالم خارج هذا المكان".

قلتُ: "لا، منذ وَصلتُ هنا وقد بدا لي ألَّا وجودَ لشيء خارج هذه الجدران".

تناوَلَ رَشفَةً، وارتجَفَت يداه وفمه فانسكب باقي الكأس أرضًا.

قال: "ها هنا سبب آخر لكأس جديدة"، ثم اتَّجه ناحيةَ طاولات الشُّرب، تَعثَّر في طريقه إليها، وأردتُ أن أَلحَقَ به، لكنَّه فيما يستعيد توازُنَه أومأ لي بإشارةٍ أن أبقى في مكاني وأنتظره. دفع وأعاد ملء كأسه ثم عاد إليَّ.

قال: "أَعِدُكِ أن هذه آخر كأس"؛ فابتسمتُ، وواصَلَ حديثه: "أريد أن أحكي لكِ الكثير من الأشياء، لكنني لا أعرف ما إذا كنتِ ترغبين في سَماعِها، ولا أعرف هل من سَبَبٍ لإخبارِكِ بها".

"أيَّة أشياء؟".

"عن أُمِّنا، وعنِّي أنا ومارتا، عن الأطفال وعن مينا، عن شقيقاتنا، عن المدينة، عن كُلِّ شيء، لقد مَرَّت سنواتٌ على وجودك هنا، هناك الكثير من الأمور التي أرغب في إخبارِكِ بها، لكنني لستُ أعلم ما إذا كنتِ ترغبين في سماعها أو إن كان ثَمَّة داعٍ لإخبارك بها".

تحدَّث وعيناه مُسمَّرتان أرضًا، ثم نظر مباشرَةً إلى عيني، "هل ترغبين في إخباري بشيء؟".

"لستُ أعلم ما إذا كنتَ تريدُني أن أُخبِرَكَ بأيِّ شيء، لا أعرف ماذا تريدني أن أُخبِرَكَ؟".

"كُلُّ شيء".

"كل شيء... لكن ما لديَّ لا تشرحه الكلماتُ، إنه موجودٌ على هيئة صُوَرٍ وحسب، وحتى هذه تتحوَّل من واحدة إلى الأخرى".

لم نَنطِقْ بشيء.

سألَني: "هل يؤلِمُكِ شيء؟"، لم أعتد سماع صوته المرتعش سوى بضع مرَّاتٍ في حياتي.

"وماذا قد يؤلمني؟".

"شيء من الماضي".

"لا، وكأنَّ الماضي لا وجودَ له، وكأنَّ الحياة بدأت فقط حين وَصَلتُ هنا، أو كأنها انتهت في هذه اللحظة".

قرَّب كأس الشنابس إلى فمه، لكن بدلًا من أن يضعه على شفتيه، وضع إبهامه أسفل أسنانه وعَضَّه، ثم جرع الشنابس.

وقع الكأس أرضًا، وارتجف جَسَدُه. أمسك يدي وقبَّل راحتي، ثم عانقني وضغط رأسي إلى صدره بيده وقال: "أختاه! أختاه!"، وكأنه بتصريحه عن قَرابتنا كان يؤكِّد القَدَرَ بأَسرِه، كل ما يعرفه وكل ما لا يعرفه، وبكى بين كُلِّ اعترافٍ بعلاقتنا، انتحب بينما يقول: "أختاه!"، وقبَّل جبهتي؛ فتذكَّرتُ كيف اعتاد سِرًّا أن يُقَبِّلَ جبهتي حين كُنَّا أطفالًا، في غياب أُمِّي؛ لأنها كانت تسخر من هذه الرِّقَّة.

شعرت أنني لا أتنفَّس، بدا لي أنني لا أشعر بشيء، فقط لمسة شفتَيْه على جبهة رأسي، دفء أنفاسه المشبعة بالكحول، وقبضة يده الحازمة تضغط رأسي إلى صدره.

فجأة سمعنا صوت أوجستينا بالقرب منا: "أوه يا لها من عاطفة!".

ارتَخَت يَدُ أخي. رفَعتُ رأسي وابتعدتُ عنه.

"سيِّدي: أنا أيضًا أرغب في بعض التدليل"- صاحت أوجستينا، بينما مسح أخي دموعه. "أعطني بعض الحنان أيضًا يا سيدي"- اقتربت منه وراحت تمسِكُه بين ساقَيْه.

قالت الممرِّضة هيلدا من مكانٍ ما: "ألم نَقُل إن الشَّهوانِيَّات سيبقين في غُرَفِهِنَّ ولن يُسمَحَ لهنَّ بالمشاركة في الكرنڤال؟".

دفع أخي أوجستينا بعيدًا، حتى جاءت الممرِّضات واقتادوها، قالت لهم هيلدا: "واحرِصْنَ على حبس باقي الشهوانيَّات!".

حولنا دائرةٌ يَرقُصُ بها أُناسٌ أولو أجنحة، وأناس برؤوس تنانين، وأناس بأزياء تشبه الأسماك، بدأ أخي يترنَّح، وتقيَّأ، رفَعتُ رأسه ووضَعتُ راحة يدي على جبهَتِه، قبل أن يظهر دكتور جوته من مكانٍ ما.

قال دكتور جوته: "عندما قلتُ إن الكحول سيُسمَح به للزُّوَّار لم أتصوَّر أن يشربوا أكثرَ من المدانين إن سُمِح لهم بالشرب".

مسح أخي أثرَ القيء بمنديل، وواصل دكتور جوته كلامه: "لا يسعني سوى أن أثني على اختيارك للزِّيِّ التَّنكُّري، يبدو مناسبًا تمامًا لمقاسِكَ، وأمسك بالورود التي تُزَيِّن القُبَّعةَ الموضوعة على رأس أخي، "لكن حان الوقت كي ترتدي ملابسك المزيَّفة وتعود إلى البيت".

ذهبنا إلى القاعة الرئيسية وشرع أخي يبدِّل ملابسه، التفتُّ إلى الحائط واستمعتُ إلى ما دار بين دكتور جوته ودكتور فرويد.

قال دكتور جوته: "أتعلم... أنا أُقدِّر مجهوداتِكَ من أجل الوصول إلى فَهمٍ جَديدٍ للبشر، لكنَّ الأسلوب نفسه الذي تَتَّبِعه، ذاك التحليل النفسي، أن تجعل مرضاكَ يرقدون على أريكةٍ بينما يثرثرون عن أمرٍ ما وأنتَ تُراقِبُهم، وهم لا يَرونَكَ، فهذا يُعتبَرُ تَزييفًا".

قال أخي بغضب: "ماذا تقصد بتزييف؟ إن مرضاي لا يثرثرون بينما يستلقون على أريكة في مكتبي، أنا أحثُّهم على التحدُّثِ عن مشاكلهم من خلال التداعي الحُرِّ، من خلال الحديث المتدفِّق؛ حتى أصل لما وراء أعراض مَرَضِهم، إلى صدمات الطفولة المدفونة جنبًا إلى جَنبٍ مع غرائزهم الأساسية، وهكذا أصل إلى فَهمٍ حقيقي لأمراضهم وسلوكيَّاتهم. وبفضل استماعي بشكل مُكثَّفٍ لمرضايَ فقد وَصلتُ إلى استنتاجاتٍ هامَّةٍ حول السلوك البشري. مع اكتشافي للعقل الباطن وتفسيري له بأنه ذلك الجزء الخفيُّ الذي يُحدِّد أفكارنا ومشاعرنا وأفعالنا- سأغيِّر العالم، ستكون هذه الثورة الثالثة الكبرى، بعد ثورتَيْ كوبرنيكس وداروِن، في فَهمِ البشر للعالَم ولأنفسهم. لقد أوضَحَ كوبرنيكس للبشرية أنهم ليسوا مركزَ الكَون، وأوضح داروِن أن الإنسان لم يأتِ من عند الله، بل ينحدر من القرد، وأنا أُوضِّح أن الإنسان ليس كما يظنُّ عن نفسه".

"أنت تكذب، إن أعظم ثورة أثَّرَت في البشرية أكثر من الثلاث التي ذَكَرتَهم هي اختراع المرحاض، فحتى عدَّة عقود مَضَت كان لدى الناس دِلاءٌ لقضاء الحاجة في بيوتهم، حيث يفرغون فيها محتويات أمعائِهم، ثم يلقون ببعض محتوياتها من النافذة، أحيانًا على رأس أحد المارَّة الذي يعبر بالمصادَفَة أسفل نافذتهم.

بعض أصحاب المنازل كان لديهم حمَّاماتٌ في أَفْنِيَتِهم، لكن في عام 1863 بعد عدَّة سنواتٍ من تصريحات داروِن للعالَمِ حول أصل الأنواع والانتخاب الطبيعي، حصل توماس كرابر على براءة اختراعٍ للمِرحاض، فماذا سيحدث لو عرفنا أن الأرض تدور حول الشمس وأننا لسنا مركزَ الكون، ماذا سيتغيَّر حين نعرف أننا ننحدر من القِرَدَة؟ ماذا لو أدركنا أننا غير مُدرِكين على الإطلاق؟ لن يُغيِّر أيٌّ من هذا في شيء، لكنَّ استبدال الدلاء بالمرحاض فمن الضروري أن أوضِّح لك كيف غَيَّر هذا حياةَ الناس".

"حتى لو كنتَ مُحقًّا بشأن اكتشافات دارون وكوبرنيكس، فمع اكتشافاتي ستختلف الأمور؛ لأن نظرياتي تَمَسُّ ما هو ضروريٌّ في الإنسان. نظرية كوبرنيكس شَرَحَت علاقة الإنسان بالكون، وشرَحَت نظريَّة دارون أصل الجنس البشري، لكن نظريتي تتحدَّث عن علاقة الإنسان بذاته وبالآخرين، وكذلك مَنبَع أفكار البشر ومشاعرهم؛ ولهذا ستصبح نظريَّاتي قابِلَةً للتطبيق خلافًا لنظريات دارون وكوبرنيكس".

قال دكتور جوته: "ما يُخيف أكثر هو ما سيحدث إن أساء الناس فهم نظرياتك، وتَبَنَّوها على النحو الخاطئ، وخُذْ في اعتبارِكَ أن ليست كُلُّ نظريَّاتك ستكون صحيحةً، ومع هذه الصيغة الخاطئة سيستخدمها الناس لمساعدة أنفسهم، صدِّقني يا دكتور فرويد: إن قاعدة المرحاض لهي أعظم اكتشاف منذ اختراع العَجَلَة".

تصوَّرتُ أن أخي قد بدَّل ملابسه بالفعل، لكن حين التفتُّ كان لا يزال مرتديًا الزِّيَّ التَّنكُّريَّ.

شرح أخي وقد بان عليه السُّكر: "ربما كان المرحاضُ هو أعظم اختراع بشري منذ العجلة، لكن فقط من وجهة نظر التكنولوچيا، إن التحليل النفسي أعظم وأكثر أهمِّيَّة، إن الأمر واضِحٌ من المفردة ذاتها، من النفس، الروح"، لكن دكتور جوته قاطَعَه مبتسمًا: "الدلو يُنظِّف الفضلات من المرحاض بكفاءَةٍ يا زميلي العزيز، لكنني لا أُصدِّق أن تحليلك النفسي ينظِّف فَضَلات النفس البشرية"، ثم مَدَّ يده ناحية سيجموند، "ما زالَت تلك القبعة على رأسك، إنها لا تُناسِبُ مَلابِسَكَ ولا عملك"، وأزال القُبَّعة المزَركَشة بالورود الخضراء عن رأس أخي، "والآن اذهب، سأراك في المنزل، وفي فِراشِ زواجِكَ ستحصل على أحلامٍ هانئة، سيَّان إن كانت واعِيةً أو من العقل الباطن".

التفتَ إليَّ بعدما نطق بهذه الكلمات وغمز لي قائلًا: "أتعلمين أن أخاك نشر مُؤخَّرًا كتابًا عن الأحلام؟ عن بعض التعقيدات الأوديبية،

عـن قتـل الأب واشـتهاء الأم، عـن الوعـي والعقـل الباطـن، لكنـه بالرغـم مـن ذلـك لا يتحمَّـل بضـع رشـفات مـن الكحـول".

اتَّجـه كِلا الطبيبـين إلى مَخـرَج المستشـفى، ومضيـت أنـا إلى غرفتـي حيـث كانـت كلارا تقـف بجـوار النافـذة تنظـر إلى ملعـب المستشـفى. وفـورَ سَـماعِها خطـواتي قالـت دون أن تلتفـت إليَّ: "كـم هـو أمـر مُبهِـج".

اسـتلقيتُ عـلى فـراشي، ووضعـتُ القميـص المطـويَّ عـلى هيئـة رَضيـعٍ بجـواري، ودَسَسـتُ رأسي في الوسـادة.

"سيبقى هذا الصَّخَبُ لبعض الوقت، لماذا غادرتِ؟".

لم أُجِبهـا، وسَـمِعتُها تمـشي باتجاهـي، وتجلـس بجـواري عـلى الفـراش، تدلـكُ رأسي لـتروِّحَ عنـي، لكننـي بكيـتُ بِحُرقَـةٍ في تلـك الليلـة المليئـة بالجـمال، لم أَبْكِ منـذ سـنوات، لم تسـقط مـن عينـي دمعـةٌ واحـدة منـذ انتزعـوا طفـلي مـن رَحِمـي، والآن أبـكي، وبِحُرقَـة.

اسـتلقَت كلارا عـلى الفِـراش بجـواري وعانَقَتنـي، شـعرتُ بنفـسي أتـوه في ألَـمٍ وحُلـم، أو لعلَّـه كان العقـل الباطـن. وسَـمِعتُ صـوت كلارا يواسـيني: "هـذا سـيمرُّ، سـيمرُّ".

***

في خطـابٍ مُـؤرَّخ بتاريـخ 21 إبريـل 1889 كتـب فنسـنت فـان جـوخ لأخيـه ثيـو بكامـل وعيـه:

"إني لأَجِـدُ طِيبَتَـكَ وعطفـك معـي يزيـدان يومًـا بعـد يـوم، لا يمكننـي أن أشرح لـك شـعوري بالتحديـد، لكنـي أؤكِّـد لـكَ أن الطِّيبـةَ آتَـت ثمارهـا، وإن لم تَـرَ النتائـج يـا أخـي العزيـز لا تحـزن؛ فسـتظلُّ مُحتَفِظًـا بطيبَتِـكَ. سـيُفرِحني أن أعـرف بعـض الأخبـار عـن أُمِّـي وأختـي وإن كانـوا بخـير. قُـل لهـم ألَّا يسـتقبلوا قِصَّتـي وحـالي بضيـقٍ؛ إذ إننـي قليـلُ الحَـظِّ، لكـن

على الرغم من كل هذا فربما تنتظرني بعض السنوات الطبيعية، إنه مَرَضٌ كأيِّ مرض".

وفي الخطاب نفسه يقول كنوع من الاعتذار: "بالنسبة لي، فستعلم أنني لم أَكُن لِأَختارَ الجنونَ تمامًا لو كان لي الخيرة في الأمر".

بعد أقل من شهر حين أودِع مصحَّة سان ريمي، كتب ڤنسنت إلى ثيو:

"أردتُ أن أُخبِرَكَ أنني أحسنتُ صُنعًا بمجيئي هنا؛ أولًا لأنني رأيت حقيقةَ الحياة لمختلف المجانين والمضطربين في حديقة المسوخ هذه، أنا أفقد شعوري الغامض بالخوف من الأمر، وبالتدريج صرتُ أعتبر الجنون مثله مثل باقي الأمراض".

وفي خطابٍ آخر كتبه في 22 أغسطس يقول إنه أحيانًا يستولي عليه الخوف مرَّةً أخرى: "اضطرَبتُ بشدَّة لأيَّامٍ عديدة، تمامًا كما اعتَدتُ أن أشعر في آرل وربما أسوأ، ومن الوارد أن تتكرَّر هذه المشاعر مستقبلًا... كم هي مقيتة".

وفي خطابٍ آخر كتب لأخيه: "أخي العزيز، ما زلتُ أكتب لكَ بين نوبات عملي، إنني أحرث كشخص ممسوسٍ؛ فربما يساعد ذلك على علاجي".

ولاحقًا في الشهر ذاته كتب: "إنني أحاول أن أتعافى كشخصٍ كاد يُقدِمُ على الانتحار، لكنه وجد الماء شديدَ البُرودَةِ فيحاول العودة إلى ضفَّة النَّهر مرَّةً أخرى".

لقد كان يعمل بالفعل كالممسوس، يُنهي يوميًّا رسمةً على الأقل، وحين فرغ من رسم "الغربان في حقول القمح" أمسك بالمسدَّس الذي يُخَبِّئه أسفل فراشه وأطلق رصاصة في بطنه.

وصل أخوه المصحَّة بينما كان ڤنسنت لم يزل حيًّا، وحاول أن يُرَوِّحَ عنه أو عن نفسه، أخبره أنه سينجو من الجروح، لكن ڤنسنت قال له: "لن يكون هذا مُجديًا؛ فسيستمرُّ الحزنُ للأبد".

***

زارني أخي مُجدَّدًا بعد الكرنڤال، جلسنا وجهًا لوجهٍ، بالكاد تَفوَّهنا بكلمة أو اثنتَيْن كالعادة. وحين زارني في غرفتي قبل أن يغادِر إلى البيت سألتُه: "هل تذكر حكاية الطائر التي اعتَدتَ أن تَحكيَها لي حين كُنَّا أطفالًا؟".

"أيَّة حكاية؟".

" الطائر الذي مَزَّق صدره ونقر قلبه بعدما طار العصفور الذي يُحبُّه بلا رجعة؟".

"لم أَحكِ لكِ مثل هذه الحكاية".

"حاوِلْ أن تتذكَّر... لقد قَصَصتَها عليَّ".

"لا وجود لهذه الحكاية".

"إنْ لم يَكُن لها وجودٌ فأنتَ اختَرَعتَها".

"لو كنتُ اختَرعتُها لكنتُ تَذكَّرتُها".

"لكنَّني أتذكَّر أنَّكَ حكَيتَ لي هذه الحكاية".

"لقد أَلَّفْتِ هذه الحكاية بنفسك، وقصصتِها على نَفسِكِ".

***

كلَّما رحل أخي بعد زياراته القصيرة أستلقي في فِراشي وأسحب البطَّانيَّة فوقي، أُمسِكُها بمسافَةِ قَدمٍ فوق رأسي، وأنظر إلى السماء البيضاء.

***

ثمَّـة لحظـاتٌ يَنفَصِـلُ فيهـا المجانـين عـن أوهامهـم، وفي هـذا التوقُّـفِ الطـارئ للزَّمـن يختـبرون واقعًـا أعظـم شـأنًا؛ حدسًـا بالأقـدار المتشـابِكَة التـي تُشَـكِّل كوكبـةَ الأرض، والتـي لا يمكـن رؤيَتُهـا إلَّا مـن مسـافة بعيـدة.

***

نَسَـجَت أقـدارُ البـشر في "العـش" شِـباكًا عجيبـةً وأحيانًـا غـير مرئيَّـة. أحيانًـا، في غرفـة الطعـام بالمستشـفى، تجلـس امـرأةٌ قامـت بتسـميم زوجهـا، بجـوار رجـل لَوَّحَـت زوجَتُـه في وجهـه بفـأسٍ، لكـن لم يُصِبْـه. قامَـت فتـاةٌ بقَطْـفِ عيـدان مـن العشـب بينـما كانـت تمـشي في حديقـة المستشـفى، ثـم نثَرَتهـا حولهـا. هنـاك امـرأة مُسِـنَّةٌ تتخيَّـل قبـل سـقوطها في النـوم أنهـا تقطـف الـزَّرعَ أمـام بيتهـا، وتنـثره.

هنـا يمكـث مَـن لا يسـتطيعون النـوم، ومَـن يرقـدون في سُـباتٍ أبـديٍّ، مَـن يخشـون النـوم ومَـن يخشـون الاسـتيقاظ، وهنـاك شـابٌّ أحـضروه إلى "العـش" لأنـه ظـلَّ يخـبر الجميـعَ بأنـه بـلا رأس، بينـما جـاء آخـر لأنـه حـاوَل أن يُقنِـعَ الآخريـن بأنهـم لا يملكـون رؤوسًـا.

في المكتبـة الصغـيرة اعتـاد رجـلٌ أن يقبـض عـلى رأسـه ويصيـح قائـلًا: "الكلـمات تطـير مـن الصفحـات! الكلـمات تطـير مـن الصفحـات"، كان يُكـرِّر صياحَـه حتـى أبـدى باقـي القُـرَّاء اعتراضَهـم واصطحبـه الممرِّضـون إلى غرفتـه. امـرأة تلتفـت دائمًـا يُمنَـةً ويسـارًا كلَّـما تحـدَّث إليهـا أحـد؛ لأنهـا بـدا لهـا أن الكلـمات تطـير نحوهـا وقـد تصطـدم بجبهَتِهـا.

كان هنـاك أشـخاصٌ يلـوون وجوهَهـم، ويغـيِّرون أصواتهـم، وقدَّمـوا أنفسـهم عـلى أنهـم شـياطين يعرضـون شراء الأرواح، ويعلنـون مجـيء القيامـة، هـدَّدوا بـأن مملكـة الظـلام أوشَـكَت عـلى النهـوض. هنـاك مَـن يلتمسـون الخَـلاصَ مـن قـوى الـشَّرِّ، ليـس كمـن يزعمـون اسـتحواذَهم عـلى هـذه القـوى، بـل مـن الشـياطين نفسـها غـير المرئيـة بالنسـبة لنـا.

إنهم يبصقون في الهواء، ويركضون من الهواء ويُهَدّدونه ويصرخون في فَزَعٍ بينما ينظرون إلى الفراغ.

كلّما أخبرنا الممرِّضون أن وقت التمشية في الحديقة انتهى وأن علينا العودة إلى غُرَفِنا في المستشفى تستلقي فتاةٌ أرضًا وتُعانِقُ أقربَ شجرةٍ، حتى يتمكّنوا من فَصْلِها عنها بعراكٍ كبير، تصرخ فيه: "أنا حُلمُ هذه الشجرة! لو انتزعمتوني من هذه الشجرة ستتوقّف عن حلمها بها وسينتهي وجودي!".

وأحيانًا تُكرِّر فتاةٌ أخرى: "أحلامي لها جذوع ولُحِيٌّ، أحلامي لها أزهارٌ وجذور، أحلامي أشجارٌ، أو ربما الأشجار هي أحلامي".

لقد نَسَجَت الأقدارُ البشريَّةُ في "العش" شِباكًا عجيبةً غيرَ مرئيّة.

***

لم تَكُن غرفتنا هادِئَةً أبدًا، في الغرفة التي تعلونا يتحرّك هانز وجوان، أحدهم يمشي بخطواتٍ بطيئة ثقيلة، والآخر يمشي بخطوات سريعة وحاسمة.

يتسرَّب إلينا من الغرفة المجاورة تأنيبٌ للذّات، ضحك محمومٌ، ضرب على الرأس، قبضات وركلات في الحائط، حتى حينما كانت الأصوات القريبة تَخفُت كانت جلبةُ الغُرَف المجاورة تصل إلينا.

أحيانًا كان يُوقِظني صوت كلارا في الليل قائِلةً: "استيقظي، المكان هادئ!".

وأحيانًا حين أستيقظ ولا أسمع صوتًا -وهو أمرٌ نادِر- أقول لكلارا: "استيقظي، المكان هادئ!"؛ إذ اتَّفقنا أن نوقِظَ بعضنا حين نسمع لحظة الصمت، ثم نرقد في الظلام، صامِتَتَيْن في حضرةِ الهدوء، لكن فور سماعنا أول ضجَّة أو أوَّل صياح؛ نغمض أعيننا مُجدَّدًا، ونحاول أن نخلد إلى النوم.

***

سُمِح لنا أنا وكلارا بمغادرة المستشفى وحديقتها مصحوبَتَيْن بالممرِّضين، أن نتجوَّل في المدينة، لكن على الرغم من ذلك لم ترغب أيٌّ مِنَّا في مغادرة "العش"؛ لذلك بقينا مع أولئك الممنوعين من مغادرة المصحِّ النفسي.

كان هناك مَن يتوسَّلون إلى الدكتور جوته حتى يسمح لهم بمغادرة "العش" لبعض دقائِقَ فحسب، فكانوا يشبكون أيديَهم ويجثون على رُكَبِهم أمامه. لكنه لم يَكُن يستسلم، رغم أن مَن يرغبون في الخروج كانوا مُسالمين، ولم يكن أَحدُهم ليوقِعَ أضرارًا خارج المشفى أو يهرب.

شرح لهم دكتور جوته أن الذهاب إلى المدينة قد يَضُرُّ بصحَّتِهم النفسية؛ لذلك وقفوا أمام باب "العش" في انتظار عودَةِ مَن سُمِحَ لهم بالتَّنزُّه، انتظروهم وعلى وجههم ملامِحُ مَن ينتظر أخبارًا من بلاد بعيدة، وراحوا يتوسَّلون إليهم أن يحكوا لهم عن المدينة والناس وكلِّ شيء حدث من لحظة نومهم.

***

كان چوستاف يزور كلارا أَوَّلَ كُلِّ أربعاء في الشهر، وفي أحد اللقاءات قال لها: "ماتَت ماما"، لم تنطق كلارا بكلمة: "هل ترغبين في العودة إلى البيت؟" لكن كلارا واصَلَت صَمتها، كرَّر چوستاف: "البيت؟". قالت كلارا: "لا".

***

عندما كانت تُدوِّي الصَّرخات الجُنونيَّةُ في "العش"، عندما كان مَن يصيحون على بعضهم يُشجِّع الواحد منهم الآخر، ويشدُّون من أَزْرِ بعضهم البعض، بدا لي أننا قد أُلقِيَ بنا إلى مجهول، إلى عالَمٍ مُرعِبٍ، لكن على الرغم من ذلك كان عالَمًا تحمينا فيه جدرانُ غُرَفِنا، أحيانًا عندما كانت الصرخات الجنونية تدوِّي في "العش"، عندما كان مَن

يصيحون على بعضهم يشجِّعون بعضهم البعض، ويَشدُّ كُلُّ واحد من أَزْرِ الآخر، تقول كلارا: "غرفتنا تُشبِهُ الرَّحِم".

في أول سَبتٍ من كُلِّ شهر يُلقي علينا دكتور جوته مُحاضراتٍ في القاعة الكبرى ليشرح لنا الجنون، آمن أنَّ محاضراته وسيلةٌ أخرى لتحفيز بعضنا على التغيير، لكنَّنا سَخِرنا منه، وأطلقنا باتجاهه أوراقًا مطويَّةً، صنعنا جَلَبةً لنُشَتِّتَه أثناء حديثه، لكنه واصَلَ شَرحَه للجنون.

سألَته كلارا في إحدى المحاضرات: "لكن ماذا يكون السَّواء؟".

قال دكتور جوته مُشوَّشًا بعض الشيء: "السَّواء؟"، ثم أكمل: "السَّواء هو أن نتصرَّف وفقًا لقوانين العالم الذي نحيا فيه".

"لكننا لو اتَّبعنا المنطق الذي تتحدَّث به عن الجنون يمكننا أن نقول إن السواء ما هو إلا احترام القوانين السارية".

قبل أن نخلد إلى النوم سألت كلارا: "لكن ماذا يكون الجنون؟".

إذا سألتُ أخي فسيخبرني أن الجنون يَنشَأُ عندما تَخلقُ الأنا البشريَّةُ في العقل الباطن -تِباعًا- عالَمًا داخليًّا وخارجيًّا، وهذا العالَمُ الجديد يُشيَّد وفقًا لرغبات العقل الباطن؛ ولهذا يُعَدُّ الانفصال عن العالم الخارجي هو مُناظَرة جادَّة وغير مُحتَمَلَة بين واقع الفرد ورغباته الشخصية.

لم تَقُلْ كلارا شيئًا، في اليوم التالي عرَضَت على دكتور جوته أن نقوم كُلَّ سبتٍ بالتحدُّث عن أمراضنا بدلًا من تقديم محاضراتٍ حولها. وبعد عدَّة محاضرات اجتمعنا في القاعة الرئيسية بالعش، وسألنا دكتور جوته ماذا يمثِّل لنا الجنونُ، وتحدَّثنا.

قلنا: "أن تكون مجنونًا كأن تكون في خَطَرٍ مُحدِق؛ إذْ تحاول أن تستنجد طالِبًا المساعدَةَ، لكنَّ الكلماتِ لا تخرج من فَمِكَ، ينقبض حَلقُكَ، وكذلك لِسانُكَ، وشفتاكَ، يفقد كُلُّ شيء فيكَ وظيفته. يحيط

أناسٌ بالشَّخص الواقع في الخَطَرِ، لكنهم يديرون ظهورهم ولا يدركون ما يحدث؛ لأنهم ينظرون إلى زاويةٍ أخرى غير تلك التي ينظر إليها، ينظرون إلى مَشاهِدَ أخرى، وسماءٍ أخرى، نعم، نحن ننظر إلى سماء أخرى".

"الجنون مجدافٌ يضرب الجدار بدلًا من الماء، ويظلُّ يضرب، ويضرب، ويضرب...".

"الجنون نقطةٌ تجري، لكنَّها لا تبرح مَكانَها مع ذلك".

"الجنون باب بدون مقبَض".

"الجنون هو حين ترى شيئًا لونه أخضر، بينما يؤكِّد لك الجميع أن لونه أحمر".

"الجنون هو حين ينتظر منكَ الجميع أن تتحدَّث، ويُطالِبونَكَ بذلِكَ، فتشرع في الحديث وتظلُّ تتحدَّث، وتتحدَّث وتتحدَّث... لكنْ لا أحدَ يسمعكَ، فَمُكَ لا يُطاوِعُكَ، ينغلق أثناء حديثِكَ، فتواصل الحديث حتى يحسبَكَ الناسُ مجنونًا؛ لأنهم يطلبون منكَ التَّحدُّث... التحدُّث... التحدُّث- لكنَّك لا تقول شيئًا، وتظلُّ صامِتًا... صامِتًا... صامِتًا؛ فلا يسمعونك تتحدَّث... تتحدَّث... تتحدَّث".

"عروسٌ شبه حيَّة".

"حلمٌ يدنو إلى عينيك... عينان تَسقُطان في حلم".

ظلَّ دكتور جوته يُردِّد: "ما تقوله إنْ هو إلَّا حماقة طبيعيَّة".

ذات مرَّةٍ قالت له كلار: "المجانين منَّا يَتفوَّهون بحماقاتٍ لا حصرَ لها، خيطٌ لا نهاية له من الأمور المبَعثَرَة غير المترابِطَة ولا معنى لها، وفي وسطها نضعُ بعض الأمور الأكثرِ أَهمِّيَّةً بالنسبة لنا، ونرى ما إذا كان أحدهم سيلحظ الفَرقَ".

***

"يجب أن نتخلَّى عن فكرة وضع خُطَّةٍ لعلاج الذُّهانِيِّين، أن نتخلَّى عنها ربَّما إلى الأبد، أو ربَّما مُؤَقَّتًا، ريثما نعثر على خُطَّةٍ أفضلَ تُناسِبهم".

سيجموند فرويد- مدخلٌ إلى التحليل النفسي.

***

بعضنا كان يحضر تلك الاجتماعات في القاعة الكبرى بالعش، وحدنا اجتمعنا، مَن كانوا يشعرون دائمًا أو في بعض الأحيان بجنونٍ قهريٍّ لنناقش أمورًا فلسفيَّةً. في تلك الاجتماعات كنَّا نبدو مُتعطِّشين للحديث، وفي الوقت ذاته مُكرَهين عليه، وكأنَّ قوًى ما بداخلنا تُعانِدُنا وتأبى أن تمنحنا السَّلامَ، وأرادَت أن تَطرُدَه منَّا بالكلمات. كثيرًا ما كُنَّا نتناقش بشأنِ الجنون، والسَّواء؛ بوصفهم عالَمَيْن مختَلِفَيْن تمامًا.

قال دكتور جوته ذات مرَّة: "إنَّ ما يفصل بين الجنون والسواء هو سوءُ التَّفاهُم، إن الجنون لا يفهم السَّواء، وكذلك السَّواءُ لا يفهم الجنون".

قالت كلارا: "لا، إن الجنون لا يفهم ذاتَه، وما يفصل الجنونَ عن السَّواء هو الخوف، السواء يخشى الجنونَ، والجنونُ يخشى السواء، لو قَبِلَ الجنونُ بواقِعِ السواء فسيُدرِكُ الأوهام الذي خَلَقَها، وحينها ستختفي، وباختفائها يتلاشى الجنونُ نفسه.لو نظر السَّواءُ بعنايةٍ إلى الجنون فسيدرك حقائِقَ غيرَ مُحتَمَلة، ليس عن الجنون فحسب، بل عن نفسه أيضًا، وحينها ستتصدَّع الواجهة، وسيختفي درعه، وستخرج كلُّ الأمور غير الطبيعية التي يحملها بداخله ما يُطلَق عليه السَّواء، وبدلًا من ذلك يُدمَّر السَّواء، وحينها يحكُمُ الجنون. إن المواجهة بين الجنون والسَّواء تعني الموت، وأن يتحوَّل المرء إلى نقيض الشخص ونَفيِه في آنٍ واحد".

***

"يمكِنُنا أن نعتبر الأحلام جنونًا وجيزًا، وأن الجنون حلمٌ طويل".

آرثر شوبنهاور - مقال عن رؤية الأطياف وأمور متعلِّقة.

***

كان ثَمَّة فتاة تُدعَى "الروح الطيبة"؛ لأنها كانت دائمًا تسأل الجميع حين كُنَّا نمشي في الحديقة: "هل ينقصك شيء؟".

كانت تجمع الأزهار أو تقطع عيدان العشب أو غصون الشجر، ثم تمضي باحِثَةً عن العابسين، وتذهب إليهم لتعطيهم ورودًا، وعيدان العشب وأغصان الشجر.

***

عندما جاءت أختي روزا لزيارتي بعد موت زوجها جلسنا لوقتٍ طويل على الفِراش، بينما تحمل في يدها صورةً لطفلَيْها: هيرمان وسيسيليا.

ردَدتُ أثناء حديثنا كلَّما وقعت أنظارُها على الصورة: "لا أعيش لغيرهم الآن".

***

كانت إريكا مُخلِصَةً لعائلتها، كلَّما ذهَبَت كانت تصطحب معها أقربَ أفراد عائلتها معها. أحيانًا كانت إريكا تتوسَّل للمُمرِّضات أن يسمحوا لها بمغادرة غرفتها حتى تأتي إلى الغرفة التي نعيش فيها أنا وكلارا. وفور دخولها تجلس على أحد الأسِرَّة، وتُخرِجُ من جيبها قطعةً من القماش وتضعها على رُكبَتَيْها، وقد تبسط قِطعةَ القماش وتكشف لنا ما بداخلها، عدَّة أغصان صغيرة، تُخرِجُها وتُمرِّر عليها أصابِعَها وكأنها تُمشِّدها.

قالت -إذ تفصل بين الأغصان-: "هذه عائلتي، هذه أمي، هذا أخي، هذا زوجي، وهؤلاء أطفالي... نحن عائلة سعيدة".

حرَّكَتهم الواحِدَ تلو الآخر، ووضَعَتهم على القماش لوقتٍ أطول، ثم طَوَتهم وأعادت عائِلَتَها إلى جيبها. حمَلَت معها القماشة على الدوام، ودائمًا أثناء الوجبات، وفي أوقات الراحة على العشب أو أثناء الشغل في غرفة الحياكة.

كانت تُخرِجُ الشَّعرَ المستعار من جيبها وتُرتِّبه، ذات يوم لم يَكُن بحَوزَتِها قطعةُ القماش؛ إمَّا فقَدَتها، أو سَرَقها منها أَحَدُهم. أصابها الحزنُ الشديد على أغصانها، ربَطَ الأطبَّاءُ بضعَةَ أغصانٍ في قطعة قماش وأعطوها لها، فتَحَتها ومَرَّرَت أصابعها على الأغصان قائِلَةً: "هذه ليست عائلتي".

***

أحيانًا، أثناء تمشِّينا في الحديقة كانت كريستا تقترب من دكتور جوته وتقول له: "أريد أن أعود إلى البيت".

أراد دكتور جوته أن يُشَتِّتَها؛ فسألها: "أين البيت؟".

"البيت هو البيت".

"البيت هنا".

"لا... البيت هو حيث توجَدُ ابنتي الصَّغيرة".

لم يُجِب دكتور جوته بشيءٍ؛ فواصَلَت: "أريد البقاءَ مع ابنتي".

"حسنًا، سنسمح لكِ، فقط واصِلي السَّيرَ في الحديقة وسنتركُكِ تَرحلين".

تبعث هذه الإجابَةُ الرَّاحَةَ في نفس كريستا، فتظلُّ هادِئَةً ليومٍ أو اثنين، ثم تعود لطلب العودة إلى البيت.

أحيانًا كانت عائلة كريستا تزورها، وفي هذا الوقت كانت تختفي، حين كانوا يبقون بجانبها لم تكن تتمكَّن من الحديث أو الرؤية، تُسَمِّرُ نظراتِها في نقطةٍ مُحدَّدة، وكأنَّ هناك شيئًا ما لا يتحرَّك، وكأنه يبتلع روحها. حاوَلَ والداها مُناداتَها لكنَّها ظَلَّت تُحدِّق في هذه النقطة حيث اختفت أناها.

عادةً ما كان يُحضِر والدا كريستا ابنتَها مَعَهم إلى "العش"، وجَلَبَت الفتاةُ الصغيرة معها مُذكِّراتٍ من المدرسة، ورَسمةً أو اثنتين، فَرَشَتهم أمامها لتخبر أُمَّها ماذا تحوي الرَّسمَةُ أو تقرأ لها من مُذكِّراتها.

لكن كريستا يبتلعها هذا الشيءُ الذي يجذب نظراتِها والذي لا يراه غيرها. تَركَنُ ابنتُها الصغيرة إلى الصمت، تجمع رُسوماتها وتُغلِقُ مُذكِّراتها، تنظر إلى الخلف والأمام، إلى جَدَّتِها وجَدِّها وأُمِّها، ولا ينطق أحدٌ بكلمة. من حينٍ لآخر تنظر ابنة كريستا إلى حيث تُحدِّق الأخيرة، إنها تعلم أن أُمَّها ترى ما لا يمكن لسواها أن يراه، لكنهم يتخيَّلونه، يشعرون بما تراه ويَشفُطُ نَظَراتِها.

وقف كُلٌّ من جَدِّها وجَدَّتِها قائِلَين: "فلنذهب". أثناء وداعهم لمس والدا كريستا يدَها، لفَّت ابنتُها يديها حول رقبتها، لكنَّ أُمَّها ظَلَّت مُتجمِّدَةً في مكانها، ثم رحلوا.

بعد هذه الزيارات تتيبَّس كريستا في مكانها لوقتٍ طويل، ثم تعود فجأةً إلى العالم بالطريقة ذاتها: تتقلَّب في الفِراش وتتذمَّر، وتَخبطُ الحائطَ بيَدَيْها. اعتاد المرِّضون أفعالها في نهاية كل زيارة، وحتى بعد استعادتها لِوَعيِها كانوا يُقيِّدونها، ثم تصيح قائِلَةً: "أريد أن أعود إلى البيت، أريد أن أعود إلى ابنتي، هل تسمعونني؟ أريد أن أعود إلى البيت، دعوني أَعُدْ إلى البيت!".

امتدَّ صَدى نحيبها في المداخل. ذات مرَّةٍ سألَت كلارا دكتورَ جوته: "لماذا لا تسمحون لها بالعودة إلى البيت؟".

"إنَّ حالتها تسوءُ فقط عندما تأتي ابنتُها هنا، يجب أن تختفي الصغيرة عنها، تختفي للأبد".

كَفَّت ابنةُ كريستا عن المجيء، حتمًا طلب دكتور جوته ذلك من والِدَيْها، بينما تَكاسَلَ كبارُ السِّنِّ عن المجيء.

أحيانًا تُوقِف كريستا كلارا بالخارج.

قالت لها كريستا ذات مرَّةٍ: "سأخبِرُكِ بسرٍّ، لكن لا تُخبري أحدًا".

وَعَدَتها كلارا: "لن أُخبِرَ أحدًا".

"سيسمحون لي بالعودة للمنزل إلى الأبد".

قالت لها كلار بنبرةِ صوتها الواثقة المعتادة: "سيَدَعونَكِ ترحلين".

رَدَّدت، فيما يُشبِهُ أسى الطِّفل الذي يُردِّد كِذبَةً لا لكي يُصدِّقَها؛ إنما لكي لا يُفكِّر في الحقيقة: "سيَدَعونني أرحل بالفعل".

***

هزَّت امرأةٌ شابَّةٌ لا أعرف اسمها كتِفَيْها، ولوَّحَت بذراعَيْها كأنَّهما أجنحة، وراحت تُحدِّق في سطح المستشفى، رَدَّدَت قائِلَةً: "هذا هو بيتي، هذا هو عُشِّي".

مَرَرنا بها وكأننا لم نلحظها؛ لأننا أَلِفنا مُحاوَلاتِها اليومية وكَلِماتها، فقد كانت تحاول يوميًّا الوصول إلى بيتها، إلى عشِّها.

***

طالَب الكثيرُ مِمَّن أُجبروا على المجيء إلى "العش" بالإفراج عنهم، بعضهم كان يتوسَّل في هدوءٍ، يَضمُّون أيديهم أمام الأطبَّاء، أو يجثون أمامهم، والبعض الآخر يصرخ متضرِّعًا، والبعض هَدَّد: "سأُرسِلُكم جميعًا إلى الجحيم"، هكذا صاح مَن حَسِبوا أنفُسَهم آلِهَةً هبَطَت

إلى الأرض لبعض الوقت، وهَدَّد أولئك الذين حَسِبوا أنفسهم مُحاربين عُظماءَ حَسِبَهم أعداؤهم بأنهم سينتقمون فور استعادتهم للسُّلطَة إذا لم يُفرَج عنهم بصحَّةٍ جيِّدة.

وهناك مَن هَدَّدوا بأمورٍ بسيطةٍ كأن يكسروا رِقابَ الأطبَّاء، أو يطعنوا أجسادهم بسكِّين.

بعضهم كان يكذب على نفسه وعلى الآخرين قائلًا: "نحن عابرون، سنبقى في هذا الفندق اليوم وحسبُ، لكن غدًا..."، ثم يلوِّحون بأيديهم نحو وجهةٍ ما.

كانت الالتماساتُ التي تُقدَّم أثناءَ ساعات العمل حادَّةً للغاية، ففي الوقت الذي يشتغل فيه الأطبَّاءُ معنا -في الغزل والحياكة والتطريز والمصنوعات الخشبية- تَصدَحُ الغرفة بالعديد من الأصوات كأوركسترا، يتوسَّل أصحابها مُطالِبين بمغادَرة "العش". مزيجٌ من الأصوات والالتماسات والتأكيدات تَرِنُّ بين الجدران. تداخَلَت مَصادِرُ هذه الأصوات لتنسج إيقاعاتٍ مُتعدِّدَةً، ونغمات وسرعات.

وتتسرَّب بين الكلمات الواضحة أيضًا غمغماتٌ غامضة، وصرخات، واصطكاكُ أسنانٍ ببعضها، ومحاكاةٌ لأصواتٍ لا تُسمَع إلَّا في الأحلام والكوابيس، وكان بمقدور المرءِ أنْ يَسمَعَ أقدارَ مَن تحدَّثوا وناحوا وطَنُّوا، وطَقْطَقوا، وغَمْغَموا وصاحوا.

سألَت كلارا دكتور جوته ذاتَ ظهيرةٍ في غرفة الحياكة عن سبب بقاء المجانين هنا وليس في الخارج. فأجاب: "لأن مكانَهنَّ هنا وليس هناك".

"وكيف تعرف أن مكانهم هنا وليس هناك؟".

"لأن القانون يَنُصُّ على ضرورة حماية المجانين من جنونهم، وعلى حماية الناس الطبيعيِّين من المجانين".

قالت كلارا: "إذا لم يُخالفوا القانونَ ويريدوا أن يخرجوا من هذا المكان فلهم الحَقُّ في ذلك... أم يكون الجنونُ نفسه مخالِفًا للقانون؟".

"الجنون نفسه يسمح لارتكاب أفعال مخالفة للقانون".

"كل إنسان قادِرٌ على مخالفة القانون، لماذا لا نودع الجنسَ البشريَّ بأسْرِه في السُّجون والمصحَّات؟".

"أحيانًا أُفكِّر أنك أحدُ القلائل الذين لم يُفكِّروا في مغادرة المكان لأنك تستمتعين بالملاحظات ومراقبة الهَفَوات، إن الهفوات موجودَةٌ في كُلِّ مكان، يجب أن تظلَّ موجودةً فلا يوجد نظامٌ بلا عيوب، لكن هذا النظام الذي يعتني بمرضى الاضطرابات العقلية هو أفضل وسيلة مُمكِنة".

"لا، إن الحرية هي أولى صُوَر الاعتناء بأيِّ شخصٍ، لكنَّ أغلَبَنا هنا يشعر أنه مسجون".

"يجب أن تفهمي أن المجانين يشعرون أنهم سُجناءُ في أيِّ مكان، فربما تكون أولى خطوات الجنون هي الشعور بأن العالم سجنٌ، إنه يختبر العالم بقوانينه -ولا أعني القوانين المجتمعيَّة فحسب، بل الطبيعية أيضًا- على أنه سجن، ربما يُعَدُّ هذا هو السبب الرئيسي لخلق الشخص عالَمَه الخاصَّ، بقوانينه الخاصَّة، لكن الشعور بالسجن يَظَلُّ إلى الأبد".

تَدَحرَجَت كُرَةُ الصُّوف من حِجر دكتور جوته، وسقَطَت على الأرض، نهض مجتازًا نصف المسافة واستعادَ الكرة، وواصل الحياكة والتَّحدُّثَ أيضًا: "أمَّا بالنسبة لك ولصديقَتِكِ"- وأشار إليَّ، "الأمر سهل بالنسبة لكما؛ فأنتما تبدوان نِصفَ مجانين، نِصفَ عُقَلاء، فما تُطلقين عليه سجنًا هو في الواقع يُحَرِّرُكِ من السجن الذي شعرتِ به في الخارج، لقد أدركتُ هذا على الفور، أنتما هنا كما لو كنتما في إجازة طويلة، هذا رائعٌ، حقًّا رائع، أخواكما يدفعان ثمن إقامتكما وأنتما تستمتعان

بحريَّتِكُما في هذا السجن كما تُطلقين على المستشفى، حيث لا وجودَ للقيود والضغوطات التي شَعرتِ بها في الخارج، والتي يختلف شعورُ المرضى الحقيقيين بها هنا، ومع هذا فقيودكما وضغوطاتكما يمكن إرجاعُها إلى مشاكل عائلية وليس بسبب صراعات داخلية، نعم كلاكما هنا كما لو كنتما في إجازة طويلة، وأنا أُقدِّر هذا وأحترم قرارَكما، لكن لي رجاء، احترما عَمَلي ولا تتدخَّلا فيه"، ثم واصل دكتور جوته حياكَةَ شالٍ أسودَ كبير.

***

أحد وسائل العلاج التي اعتمدها دكتور جوته كانت كالدَّقِّ على رأس الجنون؛ إذ يجمع عشرين مريضًا في إحدى الغرف الكبيرة بالمستشفى، ويبدأ لُعبةً مع أحد المرضى فيَصِفُ جنونه بالسَّخافة، أحيانًا كانت اللعبة تبدو مزاحًا هادئًا، مثلما سأل شخصًا يتوهَّم أنه كازانوفا عن غراميَّاته، أو حين سأل مَن يتوهَّم أنَّه نابليون عن حَمَلاتِه العسكرية. أحيانًا كانت تبدو تلك الألعاب تعذيبًا، كأن ينفي دكتور جوته ادِّعاءاتِ المرضى الذين تحدَّثوا بهَوَسٍ عن أعزَّاءَ ماتوا، أو حين يسألُ هانز الذي يخبط رأسه في الحائط كُلَّما سمع كلمة "لماذا": "لماذا تخبط رأسك بالحائط؟"، وحين تتحوَّل اللعبة إلى تعذيبٍ تسأل كلارا دكتورَ جوته: "لماذا تفعل ذلك؟".

قام دكتور جوته من باب التوضيح بمَدِّ ذراعه أمام مريضةٍ تَذرَعُ الغرفة بلا هدفٍ ودون تَوقُّفٍ؛ ليسدَّ عليها الطريق؛ فانحَنَت لتتفادى هذا العائِقَ، وواصَلَت المشيَ بسُرعَةٍ بلا هَدَف، ودون تَوقُّف عبر الغُرفَة.

"كان هدفي ألَّا أُرغِمَ أحدًا أن يسأل نفسه لماذا أقوم بذلك، بل لماذا تتصرَّف المريضةُ على هذا الحال".

"وكيف يتعيَّن عليها أن تتصرَّف؟".

"يجب أن تتوقَّف حين أَسُدُّ عليها الطريق، وألَّا تَحشُرَ نفسها تحت ذراعي، كان عليكِ أن تلحظي ذلك، هذا هو الهدف: أن يَشعُرَ بعضُ الحاضرين هنا أن سلوكها يشوبه خَطبٌ ما".

قالت كلارا: "الأمر الوحيد الذي لاحَظتُه هو أنَّك كنتَ عنيفًا معها".

"لا إنَّني لا أتخيَّل ذلك كغُرفَةِ تعذيبٍ، بل مَسرَح".

"مسرح؟".

"نعم، مسرح، مَن يُدرِك أنها تتصرَّف على نحوٍ غير صائب سيستمتع بالأمر باعتباره تَنفيسًا؛ وهو ما قد يُساعِدُهم على التغَلُّب على موقفهم. لا ينطبق هذا عليكما، أنتما في وضعٍ مُمتاز. لقد أدركت منذ وقتٍ طويلٍ أنَّكما هنا في إجازَةٍ طويلة، لكنني كنت أُفكِّر في الآخرين"، وأشار دكتور جوته ناحيةَ المرضى في الغرفة، "نعم، إدراكهم لوجود خَطبٍ ما في سُلوكِهم سيُطَهِّرُهُم".

قالت كلارا: "كُلُّنا فَهِمنا أنَّك تتصرف على نحو غير صحيح لكن هذا لا يثير فينا شعور بالتنفيس".

"ذلك لأن فَهمَكِ غيرَ صحيح"- قال دكتور جوته بينما يمدُّ ذراعه مرَّةً أخرى أمام الفتاة التي كانت تذرع الغرفة بسرعة، وواصَلَ: "إحدى أبرز صفات المجانين أن أفعالهم ونواياهم وتعبيراتِهم توضِّح أنهم يعيشون وجودًا بلا معنى، لكنهم لا يدركون ذلك، لو أحاطوا علمًا بذلك فمن الوارد جدًّا أن يتحرَّروا من وجودهم المحشور في فَخِّ اللامعنى، وحينها سيعودون إلى الوجود المحسوس".

سألَته كلار: "أليست هذه الأفعال والنوايا والتعبيرات اللاشعوريَّة التي لا معنى لها، هي نتيجة فَهمِ هؤلاء المجانين لهذا الوجود، سواء

كان منطقيًّا أو غيرَ منطقيٍّ، باعتباره تافِهًا بلا معنى، وقرَّروا أن يُعبِّروا عن هذه التفاهة بسلوكٍ غير منطقيٍّ أُطلِق عليه جنون".

قال دكتور جوته: "لا أملك إجابةً على مثل هذه الأسئلة، اسألِيني سؤالًا بسيطًا"، واتَّجه إلى امرأةٍ شابَّةٍ تقف في ركن الغرفة، لم يكن أَحدٌ يعرف اسمها؛ فَكُنَّا نطلق عليها "روح طيِّبة"، "والآن هذه المرأة الشابَّة لا تُقاوِمُ الاعتداءَ أبدًا". أخرج دكتور جوته من جيبه إبرةً ووَخَزَ بها جبهةَ رأسِها، لكنها ظلَّت هادِئةً، لم تتحرَّك حتى حين اقترب دكتور جوته بالإبرة ووخز بها رأسها، "ها أنا أجرحها، ولكنها لا تدافع عن نفسها، إنها حتى لا تتفادى الألَمَ، أتَفهمين؟ إنها تتصرَّف بلا منطق".

"إن "روح طيِّبة" لا تتصرَّف بمنطقٍ تجاهَ أفعالِكِ، بل إن أفعالَكِ في الواقع هي غير المنطقية"- واصَلَت كلارا جدالَها مع دكتور جوته، وخلال ذلك انفصل ماكس عن مجموعة المرضى الواقفين بجوار النافذة، ومضى نحو روحٍ طيِّبة، وانتزع من رأسها الإبرة.

"يحب أن نتخلَّى عن فكرة وضعِ خُطَّةٍ لعلاج الذُّهانيِّين، أن نتخلَّى عنها ربما إلى الأبد، أو مؤقَّتًا، ريثما نعثر على خُطَّةٍ أفضلَ تُناسِبُهم".

سيجموند فرويد- مدخل إلى علم النفس.

***

بدأ الحُبُّ بين "روح طيِّبة" وماكس في اللحظة التي مَدَّ فيها يدَه إلى جبهتها ينتزع منها الإبرةَ التي غُرِزَت فيها. حُبُّهما لم يكن حُبًّا بالمعنى المتعارَف عليه؛ فالحُبُّ ليس سوى ما يشعر به المغرَمون، لكن "روح طيِّبة" وماكس لم يهتمَّا بتسميةِ ما شَعَرَا به.

أمضى ماكس جُلَّ وقته في ورشة النجارة في "العش"، بينما ظلَّت "روح طيِّبة" في غرفة الحياكة، وحين يلتقيان في أوقات الراحة بالحديقة، تُخرِجُ منديلًا صغيرًا، وقطعةَ قُماشٍ، ومِئزَرًا، تدفِسُهم في

حَمَّالَةِ صَدرِها قُربَ قلبها، في حين يعطيها هو حصانًا صغيرًا، أو وردةً، أو ملاكًا خشبيًّا.

لقد رتَّب ما أعطته إيَّاه على وسادته ونام عليهم، بينما رتَّبَت "روح طيبة" الحصانَ الخشبيَّ والوردة والملاك على منضدةِ فِراشِها، ثم، وبحسب ما قاله الناس، فإن "روح طيبة" بدَأَت تهمِسُ باسمِه في نَومِها، بينما حاوَلَ ماكس أن يَعرِفَ اسمها، لكنَّ أحدًا لم يكن يعرف اسمها، لقد كانت "روح طيِّبة" منذ جاءت إلى "العش".

ظلَّ التقارُب بين "روح طيبة" وماكس كامتزاج السماء والأرض عند نقطة بعيدة، لم يتَّحِدا إلَّا في عينَيْ من يراقبهم في الأفق، وعلى الرغم من ذلك فبالنسبة لهم ليس ثمَّةَ انفصالٌ أو اتِّحاد. في ذلك الربيع كانت هناك لحظاتٌ نسينا فيها جُنونَنا في "العش" ونَسِيَنا جنونُنا أيضًا، ورُحنا نُفكِّر بشأن "روح طيبة" وماكس، وكثيرًا ما كُنَّا نُتَمتِمُ بكلمة "الحب".

قال دكتور جوته: "لا يمكن للحب أن يبدأ هنا".

سألَته كلارا: "ماذا ينقص هذا المكانُ كي لا ينمو فيه الحب؟".

"لم أكن أُفكِّر في المكان، إن إدراك الحب غيرُ واردٍ بين المجانين، لكن الجنون يخشى الحبَّ خَشيةَ الموت، في الجنون يُعَدُّ حُبُّ الآخرين أو كراهيتهم مساويًا في الخطر، كُلٌّ من الحب والكراهية يُهدِّد بتدمير أنا الشخص المجنون".

قالت كلارا: "لكن أليس هذا الأبشع على الإطلاق؟ فالأنا بالكاد تومض وتصبو بشكل مؤلم إلى الشعور بالحب، شيء ما داخل الشخص الذي انتُزِعَت أناه -رغم تَعنُّتِه في الاعتراف بذلك- يؤكِّد له حتمًا أن الحُبَّ وحده هو ما يُمكِنُه أن يُنقِذَ أناه، لكنَّ الخوف من الحب أقوى من وَعْيِه؛ ولهذا يُلقي بهذه الفكرة إلى النسيان أو يُهَيمِنُ عليها بخوفٍ أكبر".

"في الجنون لا ينمو الحبُّ إلا تِجاهَ أشخاصٍ خياليِّين، أمَّا أن ينمو حُبٌّ تجاهَ شخصٍ حقيقي -وهذا يعني حبًّا حقيقيًّا وواقعيًّا- فهذا مستحيل؛ فلِكَي يشعر الطرفُ الآخَرُ بالحب يعني أنَّ على المجنون الاتحادَ بالآخر، ولكن هذا يعني أن يخسر المرءُ أناه؛ لهذا يتخيَّل البعضُ "آخر" ما، وهو انعكاسٌ لشظايا صغيرة لهذه الأنا المهشَّمة. إن الشعور بالحب أو إعطاءه أكثرَ خطرًا على الجنون من أن يشعر بكراهية مُميتَةٍ أو أن يتعرَّض لها".

سألت: "لكن ألَا يشعر بعض المجانين بحاجة مُلِحَّة للحُبِّ؟ وألَا تُعَدُّ هذه الرغبة قويَّةً للغاية كالحياة والموت، إنها رَغبَةٌ للحَفْرِ والخروج من الجنون والعودة إلى الحياة".

استمرَّ ذلك الربيعُ بالنسبة لـ "روح طيبة" وماكس أبدًا، فحافَظَ على نار الحبِّ الهادئة التي أشاعت في قلبَيْهما الدفءَ. وَعَدَ ماكس "روح طيِّبة" بما أراد الحياة أن تَعِدَه به، وَعَدَها بأبسط الأمور التي لا يَعِدُ النَّاسُ بها عادَةً لأنها أمورٌ مُسَلَّمٌ بها في وجودهم؛ وعليه فهم ليسوا بحاجَةٍ لاشتهائها.

لا توجد أحوالٌ سابقة لاشتياقهم؛ لأن مثل هذا الاشتياق لا يولد إلَّا حين يكون المرغوبُ فيه صعبَ المنال. استمعنا إلى ماكس إذ يَعِدُ "روح طيبة" بفِراشٍ يُشارِكُها فيه، داخل غرفة تُطِلُّ نافذتها على شارِعٍ مزدَحِمٍ بجلبة الناس، (كم كان التشابُه والاختلاف بين هذه الغرفة والغرف التي تُطِلُّ على حديقة المستشفى حيث يتجوَّل الأطبَّاءُ والمرضى)، وَعَدَها بأيَّامٍ يُعلِّمون فيها أولادَهم كيف يعيشون سعداء، وعدها بالتحامِ جَسَدَيْهِما قبل أن يَخلُدَا إلى النوم، وَعَدَها بأبسط الأمور، أبسط الأمور لدرجةِ أنَّ الناس لا يُفكِّرون في أن يَعِدُوا بها بعضهم البعض.

استمرَّ ربيعُ "روح طيبة" وماكس معنا في "العش" زَمَنًا؛ فحَمِيَت نار الحب الهادئة التي أشاعت في قلبيهما الدفء، وبدا كأننا شعرنا جميعًا به، وبعد العصور الجليدية تنعَّمَت أرواحُنا بالدفء مُجدَّدًا، بينما نشاهدهما بالخارج ونستمع إلى محادثاتهما إذ نتحدَّث مع بعضنا البعض، وحين فكَّرنا فيما يمكن أن يحدث لهما، نسينا جنوننا، فنَسِيَنا هو أيضًا.

ذات ظهيرة غائمةٍ في ذلك الربيع، حين كنَّا نتوقَّع هطول الأمطار، استلقينا في أَسِرَّتنا، وجاء أشِقَّاءُ "روح طيبة" إلى "العش"، أخبرهم البعضُ أمورًا غير صحيحة عن شقيقتهم، ووصفوا النارَ الهادئة بينها وبين ماكس بخلاف حقيقَتِها.

أوَّلُ شيء قالوه حين دخلوا مكتب دكتور جوته إنهم لم يجلبوا أختهم إلى "العش" حتى تَتَقاحَبَ؛ بل لكي تتعالَجَ، وطالبوه بأن يصطحبوهم إليهما. وبعدها مضوا إلى الغرفة الكبيرة التي اصطفَّ فيها صَفَّان طويلان من النِّيامِ على خمسين فِراشًا.

أخبرها أشقَّاءَها أنهم سيعيدونها إلى البيت على الرغم من أن دكتور جوته تَوسَّل إليهم ألَّا يقولوا ذلك بل أنْ يقولوا لها إنهم سيصطحبونها في نزهة.

قالت "روح طيبة" بينما تنكمش على نفسها في الفراش: "أريد أن أبقى هنا".

صاح فيها أحدُ أشقَّائِها قائلًا: "لم يَعُد هذا مَكانَكِ"، وجَذَبها من كتفها، وسحبها من الفِراش، "سنُعيدُكِ إلى البيتِ للأبد".

مَدَّت "روح طيبة" يدها تجاه منضدة فراشها، أمسكت ببضع أَحصِنَةٍ خشبيَّة صغيرة وأزهار وملائكة، وتمكَّنَت من وضعهم في جيب قميص نَومِها قبل أن يسحبها إخوتها خارج الغرفة. قامت واحدَةٌ من النِّسوة داخل غرفة "روح طيِّبة" بفتح الباب وصاحت: "أيُّها الناس:

إنَّهم يأخذون روح طيبة! فليخرج الجميعُ ليودِّعَ "روح طيِّبة"! ستُغادِرُ "روح طيِّبة"، ستُغادِر إلى الأبد!".

انفتحت نوافذ "العش"، وقفنا أمام قضبانها إذ نُشاهِدُ بوَّابَةَ المستشفى تُفتح، ويقود الرَّجُلان القويَّان شقيقَتَهم إلى الخارج، كانت ترتدي ثوبَ النوم وتنتعل الخُفَّ، تقع من جيبها أحصِنَةٌ خشبيَّةٌ صغيرةٌ، وأزهارٌ، وملائكة، بينما تحاول دَفْعَ أَخَوَيْها بعيدًا.

ثم سمعنا نحيب ماكس طويلًا ومُعذَّبًا مثل نواحٍ في ضوء القمر. توقَّف شقيقا "روح طيبة" وتوقَّفَت بينهما، والتفَتَت إلى الخلف ناحيةَ المكان الذي كانت تبتعد عنه، فتوقَّف نحيب ماكس. شاهدنا في صمتٍ خلفَ قضبان نوافذنا كيف ابتعدَت "روح طيبة" على مَهلٍ، إذ تنظر إلى تلك القضبان التي يقف خلفها ماكس. عاوَدَت المشيَ والتَفَتَت إلى الناحية الأخرى، تمضي ساقاها إلى جانب من العالم، بينما تنظر عيناها إلى جانب آخر.

وحين بلَغَت المخْرَجَ، وقبل أن تعبر بوَّابة "العش"، سَحَبَت يَدًا من قبضة أخيها ورَفَعَتها مُلَوِّحَةً، لوَّحَت وكأنها تُلوِّح للمرة الأولى، لَوَّحَت كما يُلوِّح الناس للمرَّة الأخيرة. سحبها أخوها من يدها وقادها إلى الخارج فاختفى جسدها عن أنظارنا.

غرق كُلُّ شيء في صَمتٍ مُريب في تلك الظهيرة.

***

رُحنا نتحدَّث عن "روح طيِّبة" لأيامٍ، تَمَنَّينا ظهورها، ثم نسينا أمرَها، لم نَكُن نتذكَّرها إلَّا عندما نرى وجه ماكس، لكننا لم نَعُد نراه إلَّا قليلًا، مكث في فِراشه وظَلَّ بلا حراكٍ لساعاتٍ وأيَّامٍ وأسابيعَ، يعضُّ المناديل والمآزِرَ والملابس التي جمعها تحت وسادته.

***

سمِعَت صوت كلارا في الليل: "استيقظي... إنه السُّكون".

كان هـذا هـو اتِّفاقَنـا منـذ أوَّلِ يَـومٍ لي في "العـش": إنْ اسـتيقظ أَحدُنـا يوقـظ الآخـر. اسـتيقَظتُ ومَضيـتُ إلى كلارا، وقفنـا بجـوار النافـذة ورُحنـا ننظـر إلى الظَّـلام الـذي يغطِّـي الحديقـة بالخـارج، كانـت ليلـةً صيفيَّـةً يُرَفـرِفُ حولنـا فيهـا صَمـتٌ دافِـئ.

التفـتُّ إلى كلارا وكانـت قـد أغمَضَـت عينيهـا، فعَلـتُ مثلهـا، أغمضـتُ عينـي ورُحـتُ أَتنفَّـس في السـكون. سُـمِعَت صَرخَـةٌ مـن غرفـة بعيـدة، خَفَتَـت في المسـاحة حتـى تلاشَـت تمامًـا، ثـم سَـمِعنا أصـواتَ ضحـكٍ مَحمـومٍ، متبوعًـا بنحيـبٍ جـافٍّ، خطـوات ثقيلـة كأنهـا لحوافِـرَ بـدَأَت تتحـرَّكُ عـلى سـطح الغرفـة التـي تعلونـا، وسـمعنا مـن الغرفـة الواقعـة بجوارنـا خَبطـاتٍ في الحائـط، ومـن الناحيـة الأخـرى تَذَمُّـرٌ مـا بكلـماتٍ غـير مفهومـة تطلـب العَـونَ، كلـمات شـاكِرَة حينًـا وغاضِبَـة أحيانًـا، كلمات تتوسَّـل إلى الحريـة، ومـن مـكانٍ آخـر كانـت هنـاك أصـواتٌ تُشـبِهُ غَرغَـرَةَ المـاء، أو كزئـير حيـوان، أو نـداء طائـر، أصـوات تُشـبِهُ الرِّيـاح التـي تَهـبُّ بـين الغصـون، وأصـواتٌ تُشـبِهُ ضَربَ الحَجَـرِ بالحَجَـر.

ثـم فجـأةً عـاد الصَّمـتُ مـرَّةً أخـرى، وكأن شـيئًا مـا يخنـق كلَّ هـذه الحلـوق المفتوحـة، سـكونٌ ثُـمَّ رعـدت الأصـوات كُلُّهـا مَـرَّةً أخـرى، يبكـون ويضحكـون في صَيحـاتٍ وزَمجَـرَةٍ وغَرغَـرَةٍ وطَنـين، والتماسـات ونـواح شـكرٍ ولَعَنـات.

أغلَقَـت كلارا النَّافِـذَة وقالـت: "إن الأسـوياء متشـابهون، أمَّـا كُلُّ مجنونٍ فَلَـهُ جنونُـه الخاص".

***

ظلَّـت كلارا تُـرَدِّدُ بجـوار النافـذة قائِلَـةً: "إن الأسـوياء متشـابهون، أمَّـا كُلُّ مجنـونٍ فلـه جنونُـه الخـاصُّ"، كنـتُ قـد غَطسـتُ بالفِعـلِ أَسـفلَ البطانيـة أُصـارِعُ مـن أجـل النَّـوم.

"ما هذا الشيء هناك؟".

"أيُّ شيء؟".

"هـذا الـشيء فـوق الشـجرة"- قالـت كلارا؛ فوقَفـتُ، اقتربـتُ مـن النافـذة، وكانـت كلارا تُشـير إلى أشـجار حديقـة المستشـفى.

قلتُ: "الظَّلام شديد، لا أرى شيئًا".

"هناك شيء ما مُعلَّقٌ على الشجرة، شيء ما... أو شخص ما".

وقفنـا خلـف النافـذة نحـدِّق في الظـلام الـذي بـدأ يتفتَّـت ويَنحَـلُّ حتـى اكتسـب لونًـا ورديًّـا شـاحِبًا.

قلتُ: "ثَمَّةَ شخصٌ مُعلَّقٌ هناك".

في ذلـك الصبـاح أنزلـوا ماكـس مـن فـرع شـجرَةِ صنوبـر، لم يعـرف أحـدٌ كيـف تَسـلَّل مـن غرفتـه، أو كيـف انسـلَّ خارجًـا مـن المبنـى دون أن يلاحظـه أحـد، ثـم تَسـلَّق الشـجرةَ وعَلَّـق الحبـلَ حـول رقَبَتِـه.

في ذلـك اليـوم أخَـذَت كلارا مـن منضـدة فراشـها القُصاصَـةَ الورقيَّـةَ التـي رسـم عليهـا أخوهـا امـرأةً تُديـر ظهرهـا وتنظـر إلى هاويـةٍ مـا.

قالـت لي كلارا: "أريـد أن أغـادر هـذا المـكان، عندمـا يـأتي چوسـتاف سـأرحل وسـترحلين أنـتِ أيضًـا".

***

منـذ تلـك اللحظـة صـار حديثُهـا أَقَـلَّ، أصبحـت صَموتًـا كمَـن ينتظـر شـيئًا مـا في تَوَتُّـر. لم تُكـرِّر كلـمات الـوداع، لكـن مـع وصـول أخيهـا عَلِمـتُ مـن صَمتِهـا أنهـا كانـت تُخـزِّن هـذه "الـوَداع"، وهـذا مـا حـدث عندمـا ظهـر أخوهـا:

قالت له: "أريد أن أرحل من هنا".

سألها چوستاف: "أتريدين العودة إلى البيت؟".

ردَّت: "أريد أن أرحل من هنا".

قال: "حسنًا".

قالت كلارا: "أدولفينا أيضًا سترحل".

حزمنا بعضَ ما امتلكناه، وَضَعتُ أَمتِعَتي في حقيبةٍ صغيرة، تلك التي احتفظتُ فيها يومًا ما بملابسَ لطفلي الذي لم أَلِدْه قَطُّ، ووَضَعَت كلارا أمتعتها في حقيبةٍ صغيرةٍ، ثم غادرنا "العش". كان "العش" يبعد نصفَ ساعَةٍ عن البيت الذي ترغب كلارا في العودة إليه، وكذلك يَبعُدُ البيت الذي أريد العودة إليه.

عانَقنا بعضنا البعض ثم افترقنا، وواصَلتُ طريقي حتى بَلغتُ المبنى الذي تَرَكتُه منذ سنوات، صعدت الدَّرَج وأخرجتُ المفاتيح من حقيبتي، لم يتغيَّر القُفلُ، أَدَرتُه مَرَّتَيْن، فتحتُ الباب ودَخلتُ، وَقفتُ في الرَّدهة وكانت الرائحة هي ذاتها كما تركتها، الرائحة التي جلبناها معنا إلى المبنى حين انتقلنا إليه وأنا في الحادية عشرة من عمري، والتي لم تتغيَّر حتى بعد انتقال سيجموند، وأتمَمتُ أنا الحادية والعشرين، أو بعد زواج شقيقاتي وتَركِهِنَّ للمنزل، وبعد أن غادر ألكسندر من بيتٍ إلى الآخر، ظلَّت رائحة شَقَّتِنا كما هي حتى بعد مَوتِ أبينا حين كنتُ في الرابعة والثلاثين من عمري، قبل عامٍ من ذهابي إلى "العش".

ظلَّت الرَّائِحةُ كما هي حتى أثناء غيابي طيلةَ هذه السنوات السَّبع.

تحرَّكتُ ببطءٍ بين الغُرَف، ثم دخلتُ أخيرًا غرفتي، حيث رأيتُ على الحائط بجوار فراشي آثارَ طفلي الذي لم يولَد، انحنيتُ إلى الحائط وفَرَكتُ خَدِّي على بقايا الدَّمِ الباهتة، لو كان بمقدروي البكاء لتلطَّخَت هذه البقايا بالدُّموع، لكنني مضيتُ إلى المطبخ.

كان صندوق الفضيات على الطاولة، فأخَذتُ أُنظِّف الملاعِقَ والشَّوكات والسكاكين بقطعة قماش، ثم سمعتُ الباب يُفتَح، أمسكتُ بالسِّكِّين وانفتح الباب.

"عُدتِ؟"، سمعتُ صوتَ أُمِّي يتَساءل ويُحقِّق في الوقت ذاته.

"عدتُ"، ورحت أُمَرِّر القماش على السِّكِّين.

جلَسَت أُمِّي بجواري، وأخَذَت الشمعة من حامل الشَّمع المثبَّت وسط الطاولة، وراحت تُمَرِّر الشَّمعةَ بين أصابعها، كشخصٍ ليس لديه ما يقوله، أو لديها الكثير لكنها لا تعرف من أين تبدأ. وضَعتُ السكِّين جانبًا بعد تنظيفها، وأخرَجتُ واحدةً أُخرى من الصُّندوق، ومَرَّرتُ القُماشَةَ على حدِّها.

قالت أمي: "في النهاية يجب أن نتعلَّم كيف نتبادل الحديثَ مع بعضنا البعض".

واصَلتُ فَرْكَ السِّكِّين رغم أنها كانت قد نُظِّفَت تمامًا، استَرقتُ نظرةً إلى أصابع أُمِّي التي ما زالت تُمَرِّرها على الشَّمعة، انزلَقَت القماشةُ، وبدلًا من أن أُمرِّرَها على الشَّفرَةِ مَرَّرتُها على أصابعي، انتَفَضَت أُمِّي وأحضَرَت بعضَ الكحولِ، وضِمادَةً وقُطنًا، وضَمَّدَت أصابعي، ثم عاوَدَت الجلوسَ على الطاولة.

قالت أُمِّي: "علينا أن نتعلَّم كيف نتحدَّث إلى بعضنا"، ثم عاوَدَت الإمساكَ بالشَّمعة، وغَرَزَت أظافرها فيها وراحت تقشرها، فسقَطَت قِطَعٌ صغيرة من الشَّمع على الأرض، نظَرتُ إلى وجهها، نظرتُ إلى هذا الوجه وكأنِّي أراه للمرَّة الأولى، رفَعَت بَصرَها وتَبادَلنا النَّظرات، أَرخَيتُ نظراتي على أصابعي المضمَّدة، وهَبَطَت نظراتُ أمي على الشَّمع المتساقط أرضًا.

سألتُها: "كيف حال آنا؟".

"بخير"، ضَبَطَت أُمِّي جلستَها على الطاولة، "وكذلك صغار سيجموند".

هكذا تُطلِقُ على أحفادها من سيجموند: "صغاره"، وحينها فقط تُطلِقُ عليه اسم "سيجموند"، وليس "صغيري سيجي". نَظَرَت إلى قطعةٍ من الشَّمع في راحَةِ يَدِها، وسألت: "أترغبين في رؤيتهم؟".

"نعم".

لم تَكُن الظهيرة انقَضَت بعد حين انطلقنا إلى بيغجاس 19. شعرتُ للمَرَّة الأولى كم تغيَّرتُ في السنوات السابقة التي أمضَيتُها في "العش"، في الطريقة التي نمشي فيها بجوار بعضنا، في سكوتنا، وكيف نقطع الصَّمتَ ببضع كلمات من حين لآخر. شعرتُ أيضًا كم تغيَّرَت أُمِّي، وكأنَّ هاويةً ما فصَلَت بين حياتَيْنا السَّابِقَة والحالية، هاوِيَة تَصالَحَ فيها الماضي والحاضر، لتبتلع المرارةَ والكراهية، تارِكَةً فقط تصالُحًا باردًا وصَمتًا ثقيلًا.

في منزل أخي رَحَّبَت بنا مارتا، وظَهَرَت آنا من خلف الباب.

قالت لها أُمُّها: "عَمَّتُكِ جاءت لرؤيَتِكِ". مَضيتُ نحوها، عانَقتُها، وقَبَّلتُ جَبينَها، لكنَّها ابتعَدَت عنِّي ومَسَحَت أثر بَلَلِ شَفَتيَّ على رأسها، ورَكَضَت إلى غُرفَتِها.

التفتُّ إلى مارتا وسألتها: "أين سيجموند؟".

قالت: "في البندقيَّة، مع أختي".

في السنوات التي قضيتُها بمصحِّ المجانين، حيث كان وجودي هروبًا من الواقع، كنت قد نسيتُ حُلمَ شبابي بالعَيشِ مع رايِنر في البندقية، فضلًا عن عدم مُغادَرتي ڤيينا يومًا.

قالت مارتا: "كانا هناك منذ عدَّة سنواتٍ أيضًا"، تذكَّرتُ أن هذا كان يومَ انتُزِع منِّي وليدي. أضافت: "لا يمكنني السفر بسبب الأطفال؛

ولهذا سافرت معه أختي هذه المرَّةَ كما فَعَلَت سابقًا... هل ستبقين من أجل الغداء؟".

قلت: "كَلَّا، أشكُرُكِ".

أثناء عودتنا أنا وأمي إلى بيتنا تذكَّرتُ الأيام التي انفَصَلتُ فيها عن سيجموند واكتفيتُ بالخروج معها، كُنَّا نمشي جنبًا إلى جنبٍ باتجاه الأسواق أو إلى متجر أبي، وشيءٌ ما في عودتي للمنزل هذه المرة ذكَّرني بتلك التَّمشيات الأولى.

قالت أمي أثناء تخطِّينا العتبة: "أعدَدتُ وَجبةَ لَحمِ العِجلِ هذا الصباحَ، فلنأكل غَداءنا".

قلتُ: "إن هذا سيكفيكِ فحسب".

"سنتقاسم نصيبي".

قلتُ: "أريد أن أستريحَ قليلًا".

مضينا إلى غرفتي، واتَّجهَت أمي لتُسدِلَ السَّتائر.

قالت: "كنت أُغيِّر الشَّراشِفَ والملاءات دائمًا... ظَننتُ أنَّكِ ستعودين في أيِّ يومٍ؛ لذا تَركتُ كُلَّ الأشياء كما كانت قبل رحيلِكِ".

نظَرَت إلى أثر بُقعَة الدَّم الدَّاكنة على الحائط، ثم غادَرَت الغرفة. بعدما أغلَقَت البابَ اتَّجهتُ إلى الخزانة، حيث جمعتُ منذ سنواتٍ الملابِسَ لطفلي الذي حَمَلتُه في رَحِمي. فتَحتُ الخزانة فرأيتُ الحَفَّاضات، والأَحذيةَ الصغيرة في حَجمِ الإصبع، وغطاء رأسٍ منسوجًا، وطاقِيَّةَ أطفالٍ. حَملتُهم، فكان حَجمُهم شديدَ الخِفَّة، تمامًا كما خَفَّت روحي في السنوات الأخيرة من بؤسها.

رفَعتُهم أمامَ عيني الواحِدِ تِلوَ الآخر، لقد أكَلَهم العُثُّ، بَدُوا كشِباكِ عَنكبوتٍ، أخَذتُ غطاء الرأس الصغير ودخلتُ إلى الفراش.

ظَلَلتُ أنظر لوقتٍ طويل إلى الخيوط المتهرِّئة، نَظَرتُ إلى النسيج الذي أَكَلَه العُثُّ، ثم نِمتُ.

عاد كُلٌّ من أخي ومينا بعد عدَّة أيام. وأثناء عشاء يوم أحدٍ حَكيَا بشكلٍ مُفَصَّلٍ عن رحلتهما، قاطعتهما بملاحَظَةٍ مُبتَذَلة: "إذن هي جميلة فعلًا كما يقول الجميع".

قالت مينا: "إنها كذلك بالفعل، لكنني لا أستطيع أن أَصِفَها لَكِ، عليكِ أن تُشاهديها بنَفسِكِ".

"ثمَّة أشياءُ يجب أن تُرَى في الوقت المناسب، ليس مُبَكِّرًا... ليس مُتأخِّرًا، إن رأيتِها قبل اللحظة المناسبة أو بعدها فذلك أسوأ من عدم رُؤيَتِكِ لها على الإطلاق، فأنتِ حتى لو لم تَرَيْها فإنَّ فِكرتها تحيا بداخلك، يُساعدها على ذلك خيالُكِ، أو ربَّما تحلمين بها أولًا ثم يمنَحُها الحياةَ بداخلك، وإذا رأيتِها مُبَكِّرًا أو متأخِّرًا فكأنَّكِ تَقتُلين شيئًا ما بداخلك، شيئًا كان حيًّا حتى تلك اللحظة، أو وُلِدَ أولًا بداخلك".

قالت مينا: "ما زالَت أفكارُكِ مُتشائِمَةً، قاتِلَة، كما كانت قبل دخولك العيادة النفسية".

قلتُ: "مهما كانت أفكاري، تأخُّر الوقت كثيرًا على انتقالي إلى البندقية".

"لم أَقُل انتقالًا، بل أن تزوريها وحسب".

"آه... لكنَّني في وقتٍ ما حلمتُ بالعيش في البندقية".

ثم انحرف الحديثُ إلى وجهةٍ أخرى، حاوَلَت مينا أن تُطلِعَني على النجاح الذي حقَّقه أخي أثناء غيابي، وهو ما لم يذكُره عندما زارني في "العش". راحَت تَتحدَّث عن كُتُبِه التي غَيَّرَت مفهومَ الناس عن الجنس البشري للأبد، عن عمله مع المرضى، عن تدريسه الجامعي،

عـن تمويلـه لجمعيَّـة التحليـل النفسي.أَصغَيـتُ لحديـث مينـا واندمـجَ الباقـي في تنـاوُلِ الطَّعـام.

واظـب أخـي رغـم مسـؤولياته عـلى زيـارة أُمِّنـا صبـاح كُلِّ أَحَـد، وواصَلنـا الذهـاب إلى بيتـه في عشـاء كُلِّ أحـد. اعتـدتُ أن أَهبِـطَ الـدَّرَج كُلَّ صبـاح إلى مَخـرَجِ عِمارَتِنـا، أمـشي إلى آخـر الشَّـارع ثـم أعـود إلى البيـت، في كُلِّ مـرَّةٍ أخـرج أبتعـد أكـثر مـن ذي قبـل، سِرتُ عـلى غـير هُـدى، وكأني أقطـع مسـافةً بـلا هـدف، حيـث لا أتوقَّـع شـيئًا ولا شيءَ يتَوقَّعنـي، مجـرَّد مسـاحة يجـب قَطْعُهـا.

أَلفَيـتُ دكتـور جوتـه أثنـاءَ واحِـدَةٍ مـن تلـك التَّمشـيات، سـأَلَني كيـف أتعايَـشُ بعـد مُغـادَرتي "العـش".

قلتُ له: "بخير... أمشي".

سَـألتُه عـن الحيـاة في "العـش"، أخـبَرَني أن أشـقَّاء "روح طيبـة" أعادوهـا إلى العـش فـور سـماعِهِم بمـوت ماكـس، لم يَكُـن بوسـعها أو بإرادتهـا أن تُصَـدِّقَ مَوتَـه، ولم تَكُـفَّ عـن التحـدُّث معـه قَـطُّ، بـل إنهـا أصبحـت بالكاد تَلحَـظُ وجـودَ الآخريـن، وأصبَحَـت نـادرًا مـا تسـألهم سـؤالها: "أيحتـاج أحدُكُـم إلى أي شيء؟"، أصبَحَـت تنظـر إلى الفـراغ وتُوَجِّـه لـه أسـئلتها وإجاباتهـا، وكان ماكـس حـاضرًا في كل هـذا الغيـاب الـذي يُحاصِرهـا.

كنـتُ عـلى يقـينٍ مـن أن صراع "روح طيبـة" مـع العَبَـث، بمسـاعَدَةِ أكـثر الأشـياء عَبثيَّـة -وهـو التحـدُّث إلى هـذا العبـث- كان يعنـي لهـا أن تُضفـي المعنـى عـلى عَبَـث، رغـم أن العـالم يَعِجُّ بمـن ينظـرون إلى بعضهـم ويخوضـون أحاديـثَ لا معنـى لهـا.

عندمـا التقيـتُ كلارا شَـعرتُ أنَّ الحيـاة يمكـن أن تكتَسِـبَ معنًـى. فبعدمـا غـادرَت العـش تعهَّـدَت برعايـة أربعـة عـشر طفـلًا؛ إذ أصبـح أخاهـا أبًـا عـدَّةَ مَـرَّاتٍ في الفـترة التـي أمضتهـا في "العـش"، تَناسَـلَ مـع نِسـاءٍ بَـدَونَ أكـبرَ مـن سِـنِّهم الحقيقـي بعـشر سـنوات، كانـوا يُنظِّفـون

مَرسَمَه، أو كُنَّ نسوةً شابَّاتٍ يستعرضن من أجل رسوماته، عامِلاتٍ التقاهُنَّ في وقتٍ متأخِّرٍ من الظهيرة بعد عودتهنَّ مُرهقاتٍ من المصانع.

كان أطفال چوستاڤ بالنسبة له ثَمَرَةَ فَصلٍ قصير انتهى تمامًا بلا رَجعَة، قال لكلارا متحدِّثًا عن لوحاته: "لستُ نادِمًا حتى على ما خَلَقتُه عن وعيٍ، فما بالُكِ بما لم أَكُن حتى أُفكِّر فيه حين خَلَقتُه، بل كنتُ أفعل شيئًا مختلفًا تمامًا". بدا أن أطفاله لم يكن لهم أبٌ، لكن كان لهم أُمَّان؛ إذ اعتنت بهم كلارا كما لو كانوا أبناءها، كان جميعهم ذكورًا بكُنياتٍ مختلفة، الأسماء الأخيرة لأُمَّهاتهم، أمَّا أسماؤهم فكانت واحِدَة: چوستاڤ، اعتادت كلارا أن تشير إليهم بقولها: "چوستاڤاتي الأربعة عشر الصغار".

كانت تهرع من أقصى المدينة لأقصاها لمساعدة أُمَّهاتِهم، وكانت تَصطَحِبُ چوستاڤ كثيرَ المرض ابن إلسا الخيَّاطة من طبيبٍ إلى الآخر، واعتنت بچوستاڤ الآخر ابن هانا الموظَّفة المريضة. وكانت تُهرَعُ إلى سجن ڤيينا المركزي تتوسَّل إليهم ليُفرِجوا عن الچوستاڤ الأكبر بين الأربعة عشر، بعدما تَورَّط في عراكٍ مع أحد الصِّبيَة في سِنِّه وجَرَحَه بسكِّين.

كانت تأخذ مالًا من أخيها مرَّةً كُلَّ شهر لترعى أبناءه وتُعطيه لأُمَّهاتهم، كانت تمضي بصحبة الچوستاڤات إلى ڤيينا ثلاثَ مرَّاتٍ سنويًّا لتشتري لهم الملابس.

قَلَّ حديث كلارا، لم تَعُد تَذكُر الچوستاڤات إلَّا حين أسألها، وبعد أن تسألني عن أحوالي، لكن عندما كنتُ أسألها عن أحوالهم كانت تجيب بفرحٍ وبِفَخرٍ مُستَتِر، وقليل من عدم الراحة، وكأنَّها تعتَذِرُ عمَّا تقوله، ثم تتحدَّث عن الأمور الأخرى التي تثير سعادتها.

سألتني إنْ كُنتُ سَمِعتُ أنَّ الزوجات لا يَحِقُّ لهنَّ طَلَبُ الطَّلاق أو امتلاك شيء في زواجِهنَّ. هل عَلِمَت فيما بعدُ أن النساء أصبح يحقُّ لَهنَّ التصويت؟ هل عَلِمَت أنه أصبح بمقدور العُمَّال الآن تنظيم صفوفهم للصراع من أجل حقوقهم؟.

لم أَعُد أراها كثيرًا، مع كل طفل جديدٍ لأخيها يَقِلُّ وقتها المتاح، ويَقِلُّ خروجها من المنزل. ومع مرور السَّنوات اقتصَرَت لقاءاتنا على التَّلويح بالأيدي كُلَّما رأيتُها تُجاهِدُ في الشارع مع عَدَدٍ من چوستاڤاتها الأربعة عشر.

في صيف 1914 اندلَعَت الحربُ الكُبرى، وعَمَّت أوروبا بأَسْرِها. جُنِّد الشبابُ ونُقِلوا، أُرسِلَ ابن أختي روزا إلى الخطوط في سبتمبر من العام ذاته، وبعد عِدَّة شهور أُرسِل أبناء سيجموند.

حارَبَ مارتن في روسيا، وحارب إرنست في إيطاليا، وكان أوليڤر عُضوًا في شركةٍ هندسيَّةٍ عسكريَّةٍ، يحفر أنفاقًا، ويُشيِّد ثكناتٍ عسكريَّةً في جِبال الكاربات. عُلِّقَت أسماء من استُشهدوا حديثًا في المعارك في مداخل المباني. والتقينا في الشوارع مُصابي الحرب الذين أصيبوا بعاهاتٍ مستديمة.

جلبت الحربُ فقرًا، لم يكن لدينا وَقودٌ أو دقيقٌ أو خُبز، كُنَّا نأكل على الأغلب الأُرزَ والبطاطس، ومَن أرادوا تَذوُّقَ اللحم خلال تلك السنوات يصطادوا السَّناجِبَ في المتنزَّهات أو يُرَبُّوا الأرانب في شُقَقِهم، لم يَكُن لدينا فحمٌ أو خَشبٌ لنشعل نارًا، وفي الشتاء كُنَّا نجلس مُتلَحِّفين البطَّانِيَّة، بقُبَّعاتٍ على رؤوسنا وقُفَّازات على أيدينا.

أذكر أن أحد فصول ذلك الشتاء كان الأكثرَ برودةً، حتى أننا لم نستَطِعْ النَّومَ ليلًا؛ لذا بقينا أنا وأمي في ظلامِ غرفة المعيشة، نطبع بأقدامنا على الأرض ونَفرُكُ أيدينا ببعضها لنحصل على الدفء. تَبادَلنا

بعضَ الحديث، وبعد انجلاءِ اللَّيل والصَّباح شارَفَت الظَّهيرةُ لِتُقَلِّلَ من برودة الجو؛ فمضى كلٌّ مِنَّا إلى غرفته.

أحيانًا كانت بعض الأخبار تُبهِجُنا، كبرقيَّةٍ تُخبرنا أن صوفي، التي تَزوَّجَت من المصوِّر ماكس هالبرستاد قبل ثلاثِ سنواتٍ، وانتَقَلَت للعَيش معه في هامبورج- قد أنجَبَت صَبيًّا، كان هذا هو أوَّلَ أحفاد أخي، وقد أسموه إرنست.

ذات مساءٍ بعد عدَّة أيام أخبرنا سيجموند أن هيركان ابن شقيقتنا روزا لَقِيَ حَتفَه مع مئات الجنود؛ إذ أُلقِيَت على خندقهم عَددٌ من القنابل؛ فانفجروا، تمزَّقَت أجسادهم، واختلطت الجُثَثُ ببعضها، أذرع وأرجل ورؤوس مَقطوعَة، وبدلًا من أن يُدفَنوا في مقبرةٍ تُركوا هكذا في الخندق.

عندما ذَهَبتُ إلى روزا في اليوم التالي كانت مُتَكوِّمَةً في الفِراش، أَرخَت رأسها على كتف ابنَتِها سيسيليا، بدا أنَّها في أَقَلَّ من يَومٍ تَقلَّصَت، وكأنَّ كُلَّ الطاقة التي احتاجَتها لتعتني بابنها قد تَرَكَت جسدها بموته. قالت: "الآن أنا لا أعيش إلَّا من أجل سيسيليا، لولاها ما كنت لأعيش دقيقةً بَعدُ"، ثم راحت تنتحب من جديد كأنها تُمزِّق نسيجًا قديمًا.

خلال سنوات الحرب تلك كنت كثيرًا ما أَبيتُ عند روزا، أحيانًا كنَّا نَتمشَّى في الشقة بينما نتحدَّث وندور في الغرف والطرقة والشرفات. في هذه التمشيات الطويلة داخل الأماكن المغلَقَة كانت الغرفة الوحيدة التي لم نَدخُلها هي غرفة هيرمان، حيث كان ينام حتى ذهب إلى الحرب.

لم تَفتَح روزا باب الغرفة سوى مرَّةٍ واحدة، وقبل أن تُغلِقَه قالت: "لطالما شعرتُ أنه سيعود؛ ولهذا أحتفظ بملابسه وأترُك أغراضه كما رَتَّبها قبل رحيله. عندما أجلس بجوار النافذة ليلًا أسمع وَقْعَ أقدامٍ،

وأُميِّز فيها صوتَ خُطواتِه، أنهض لأفتح النافذة لكني لا أعثر على أحدٍ في الشارع، أحيانًا توقظني ضحكاتُه من النوم فأذهب لأفتح غرفته فتكون خاليَةً، لكنَّ رائِحَتَها كما كانت بعدما حَمَّمتُه للمرَّة الأولى. عندما أتناول الطعام أشعر أنه جوعان، لو كانوا أعادوا جسده لاختلف كُلُّ شيء، كيف أُصدِّق أنه مات في الخندق مع باقي الجنود؟".

في نهاية الحرب أثناء إحدى تجمُّعاتنا العائلية في منزل سيجموند، قرأ بصوتٍ عالٍ برقيَّةً تقول إن أبناءه سيعودون قريبًا من الجبهة؛ ففكَّرتُ في روزا، لكنني لم أَجرُؤ على النظر إليها، فكَّرتُ فيها كثيرًا حين كنتُ أرى الأُمَّهات يُعانِقن أبناءَهنَّ العائدين من الجبهة في صفوف.

في أول ربيع بعد الحرب التقيت چوانا كليمنت، قبلَها بعامٍ عَلِمتُ أن چوستاف مات، لكنني لم أذهب إلى الجنازة، لم أذهب إلى كلارا ولم أَسعَ للتَّواصل معها.

قالت چوانا: "بعدما أُصيبَ بالجَلطَةِ استلقى أخي بلا حراكٍ لمدَّةِ شهرٍ كاملٍ قبل موته... أمضَت كلارا تلك الأيامَ الثلاثين بجواره، ثم بَعدَ عدَّة أسابيع من موته مات ابناه البكريَّان، واحدًا تلو الآخر. بعد هذا اكتَفَت كلارا بالجلوس في ركن الغرفة، لا تقول شيئًا، وإذا سألناها لم تَكُن تجيب، أحضَرتُ لها الچوستاڤات لأنها كانت توليهم رعايةً خاصَّةً، وفكَّرَت أن مثل هذا الاهتمام بشخصٍ ما قد يُعيدها إلى العالم، لكنَّها ظَلَّت في عالَمٍ آخر؛ لهذا قَرَّرتُ أن أعيدها إلى العيادة النفسية، وأعتني الآن بالچوستاڤات، أزور بيوتهم حيث يعيشون مع أُمَّهاتِهم، وحين يمرضون أَصطَحِبُهم إلى الطبيب، أجلب لهم مالًا من عزبة أبيهم، لكنني أعرف أنني لا أستطيع رعايَتَهم كما كانت تفعل كلارا.

قالت أُمَّهات الچوستاڤات: "أختُكُم كانت أَفضَلَ أُمٍّ في العالم"، فيُتمِّم الچوستاڤات على كلامهم. كانوا يتوسَّلون إليَّ على الدَّوام لأصطحبهم إلى

عَمَّتِهم في العش، لكنني كنت أرفض مُتَعلِّلَةً بأن "ليس هذا مكانًا مناسبًا للأطفال"".

مَضَت چوانا إلى بيتها، وفَعلتُ أنا كذلك، لكنَّني تَراجَعتُ ومَضيتُ إلى "العش"، وفي طريقي إلى هناك تخيَّلتُ چوستاف مُستَلقيًا على الفراش بعد جَلطَتِه، فاقِدًا للوعي، بينما تجلس كلارا بجواره، إنها تعرف إلى أين سيذهب، ولأوَّل مرَّةٍ تنظر إليه خلافًا لنظرة الأخت الحامية، بل كمن تنظر إلى طفلها، وتحاول أن تُوقِظَه ممَّا يغشاه بلا رجعة، تتحدَّث إليه فلا يكون صوتها هو ذاته صوتَ أخته التي توسَّلَت إليه ليدافع عنها من أُمِّهما، بل أصبح الآن صوتَ أُمٍّ تسعى لمواساة ابنها في ألمه الصَّامِت، صوت مختَلِف عن صوتِ أُمِّهما، صوت كلارا كان يؤكِّد لها أن كل شيء سيكون بخير، بأن هذا سيمرُّ، مُتناسِيَةً أنها هكذا تُطَمئِنُ نَفسَها، ثم حين عَلِمَت بموت الولَدَيْن الكبيرين لم تَعُد قادِرَةً على طمأنَةِ نَفسِها.

سألني دكتور جوته حين دخَلتُ مكتبه في العش: "أتريدين رؤية كلارا الآن؟".

قلتُ: "سأراها عندما أحضر معي چوستافاتها".

بعد أسبوعٍ ذَهَبتُ بصحبة الاثني عشر چوستاف، لكن دكتور جوته قال لي إن كلارا نُقِلَت إلى غرفة أخرى.

سألت دكتور جوته: "لماذا لا تسكن كلارا الغرفة التي أمضينا فيها سنواتٍ؟"، لكنه لم يُجِب، واكتفى بالتلويح بِيَدِه.

سِرنا في الممرَّات، خرَجَت الرؤوسُ من بعض الغُرَف، وجوهٌ مُروِّعة، وجوهٌ مَسعورَة، وجوهٌ سارِحَة، وجوه مُفزِعة.

راحوا ينظرون إلينا بعيونهم المرهَقَة، والفارغة والملأى بالخوف وبهجة المجانين، وكراهية وحُبٍّ بلا منطق، عيون ملأى بالاشمئزاز

والانبساط، ضغطوا على شِفاهِهم في صَمتٍ، ثم أفلتوها في دَهشَةٍ، ومن خلالها أصدروا أصواتًا بالكاد كانت مَسموعَةً، باركوا أو لعنوا، صاحوا في ألمٍ وبهجة.

شعر عَددٌ من الچوستاڤات بالخوف، أمسك الچوستاڤ الأصغر ذوو السنوات الأربعة بيدي بينما نمشي.

في الغرفة التي أَدخَلَنا إليها دكتور جوته استَلقَت عشر نساء على الأسِرَّة، بَعضهنَّ كُنَّ لا يَتحرَّكن، وبعض آخر كُنَّ يَتقلَّبن في الفراش ويُتَمتِمنَ بأشياء ما، واحدة من النسوة كانت ذراعاها وساقاها مضمومة. في نهاية الغرفة استلقت كلارا على فِراشها في ثوبِ نَومٍ أبيض، تكوَّمَت على نفسها، ضَمَّت ساقيها إلى ذقنها، وعَقَدَت ذراعيها إلى صدرها، وراحت تُحدِّق في الحائط، وقفتُ أنا والچوستاڤات الاثنا عشر بجوار فِراشها، ثم جلس أكبرهم بجوارها.

قال چوستاڤ الأكبر ذو السبعة عشر عامًا: "عَمَّتي كلارا".

لم يُحرِّكها لا الاسم ولا الصَّوتُ المألوف، واصَلَت التَّنفُّسَ غير المنتظم، وظَلَّت تُحدِّق في الحائط.

قال: "جئنا لرؤيَتِكِ... كُلُّنا هنا".

مكتبة
t.me/t_pdf

لم تتحرَّك كلارا.

اقترب الچوساڤ الأصغر من عَمَّته وراح يُمشِّد شَعرَها، كان أقصرَ من أن يَرى وَجهَها الملتَفِتَ تجاه الحائط، بينما وضع چوستاڤ الأَكبرُ يَدَه على يدها، كانت يداها مضمومتين في قَبضَةٍ.

صرَخت امرأةٌ تستلقي في الجانب الآخر من الغرفة، ودفع هذا باقي النساء للعُواءِ والضحك والبكاء، هَدَّدَت إحداهُنَّ أن تُشعِلَ النار في الجميع، وحدها كلارا مَن لازَمَت الصمت، وكان صَمتُها أعلى من كل الصياح المحيط.

التفت أكبرُ الإخوة إلى دكتور جوته: "أليس هذا المكان مُزعِجًا لها؟ الكُلُّ هنا يصرخون"، لكنه لَزِمَ الصَّمت.

رسم دكتور جوته علامة "لا" في الهواء بإبهامه، ورَدَّد هذه الـ "لا" عِدَّة مَرَّاتٍ بصوتٍ عالٍ، ثم واصل: "لقد كانت وحيدةً في إحدى الغُرَف حتى وقتٍ قريب، في الغرفة ذاتها التي أَمضَت فيها سابقًا سنواتٍ عديدةً، لكنها بعدما أُودِعَت في تلك الغرفة قبل عِدَّة أشهر لم تَنطِقْ بكلمَةٍ؛ لذلك أحضرناها هنا الأسبوعَ الماضي، كان الصَّمتُ في الغرفة السابقة بلا شَكٍّ يقتلها أكثر، إنها بحاجة لوسيلة تحفيز، نعتقد أن هذه الصيحات ستدفعها للتحدُّث".

قال الچوستاف الأكبر: "ستدفعها هذه الصيحات لصمتٍ أبديٍّ".

قال دكتور جوته: "أنت مُخطِئ".

"ليس مُهِمًّا إن كُنتُ مُخطِئًا، المهم أن تَكُفَّ عن تعذيبها بإبقائها هنا وسط هذا الصراخ".

"لا أظنُّ أنها تتعذَّب هنا، انظُرْ إلى وجهها، عندما أحضرناها إلى هنا من غرفتها الهانئة كان هذا الوجه مُتَوتِّرًا، في تلك الغرفة كانت كلارا صامِتَةً، ولا تُبدي حراكًا كما هي الآن، لكنَّ وَجهَها كان عابسًا على نحوٍ لا يوصَف، والآن يُشِعُّ سكينةً".

صحيحٌ، كان وجه كلارا كوجه جُثَّةٍ ماتَت منذ زمن. نظر أبناء چوستاف إلى عَمَّتِهم إذ تستلقي هناك هكذا، مُتكَوِّمَةً على بعضها كالجنين، وجهها بلا تعبيرات. مضى أصغر الچوستافات إلى قَدَمِها ولمس كاحِلَها، وضَعتْ راحَةَ يدي بجوار يده على كاحِلَيْ كلارا، كانتا بارِدَتَيْن كجثَّة، واصلت التَّحديقَ في الحائط الأبيض إذ تتنفَّس بانتظام.

قلت: "ماذا لو كان ذلك تخديرًا ذاتيًّا، ماذا لو كانت تَقتُل نَفسَها لتهرب من هذه الصيحات؟".

قال دكتور جوته: "أنتِ تتحدَّثين عن أشياء لا تفهمينها"، ثم التفت إلى الچوستافات وقال: "والآن اذهبوا أيُّها الأطفال لقد رأيتم عَمَّتَكم، هيَّا، حان وقت العودة إلى البيت".

اتَّجهنا ناحية مَخرَجِ الغرفة، تركت الچوستافات الاثنَي عشر يَسبقونني عبر الرواق، وقبل أن أخرج استدار الچوستاف الأصغر، مضى إلى فراش كلارا، وانحنى مقتربًا من رأسها، وحضَّر شَفَتَيْه ليَطبَعَ قُبلَةً، لكنَّها كانت تلتَفِتُ إلى الحائط، وكان الفِراشُ عاليًا جدًّا؛ لذا لم يتمكَّن من الوصول لوجهها، ثم مضى إلى الجهة الأخرى من الفِراش، وقبَّل كاحِلَيْها، ثم خرج من الغرفة.

في اليوم التالي ذهبت لزيارة سيجموند وأَلحَحتُ عليه أن يعيد دكتور جوته كلارا إلى غرفتها، وبعد ذلك بوقتٍ قليل أخبرني أن زميله وافق على مُقتَرَحِه. في هذا الوقت حين استيقظتُ حاوَلتُ أن أُقنِعَ نفسي بأن عليَّ زيارة كلارا مرَّةً أخرى، لكنني سرعان ما عَثرتُ على مُبرِّرٍ لعدم القيام بذلك، تفشَّى وباء الالتهاب الرئوي والانفلونزا الأسبانية في ڤيينا، مات مئات الأشخاص يوميًّا، أُغلِقَت المدارس والمسارح ودور الأوبرا وقاعات السينما، وأُمِر الناس بعدم مغادرة منازلهم إلَّا في حالات الضرورة القصوى.

في ذلك العام 1919 فور انتهاء الوباء الذي استشرى بعد الحرب، انهارَت الامبراطورية النمساوية المجَريَّة، بعد أن استنزفتها الحرب، وبقينا في الشطر الذي أُطلِقَ عليه النِّمسا.

في ظهيرة يوم أحدٍ قال لنا سيجموند إن صوفي أَطلَعَته على نبأ حملها بطفلها الثَّالث. منذ زواجها الذي مرَّت عليه سِتُّ سنواتٍ لم تأتِ إلى ڤيينا، خلال هذا الوقت لم يَزُر سيجموند ومارتا هامبورج سوى مرَّتَيْن، أصبح السَّفرُ مُستحيلًا مع اندلاع الحرب الكبرى، ثم في نهاية قُطِعَت خطوط القطارات بين النمسا وألمانيا.

تواصل أخي مع صوفي يوميًّا بالتليفون خلال تلك الشهور. قالت له قبل الولادة بشهر إنها تشعر بتعبٍ شديد، في اليوم التالي أخبره زوجُ ابنته ماكس هالبرستاد إن عملية صوفي حدث بها مضاعَفاتٌ وتمَّ نَقلُها إلى المستشفى، وبعد يومٍ اتَّصل ماكس مرَّةً أخرى وقال له إن صوفي ماتت.

عندما رأيتُ أخي للمرة الأولى بعد موت صوفي جلس بلا حراك ونظراته مُثبَّتة على مكانٍ ما وسط الطاولة، وحين سمع أننا على وشك البدء في التحدُّث عن صوفي قال: "ليس ثمَّة مأساة أفدح من أن يفقد الإنسانُ طِفلَه".

"موت" و"طفل"... منذ زمنٍ بعيد عندما كنت أسمع هاتين الكلمتين أشعر بشيء ما يطعن رَحِمي.

كرَّرَت أختي روزا: "ليس ثمَّة مأساةٌ أفدَحُ من أن يفقد الإنسانُ طفلَه".

تسرَّب نحيب مارتا الهادئ ممزوجًا بصوت الشَّوكة والسكين اللتين اهتزَّتا بين يديها المرتَعِشَتَيْن، وراحتا يخبطان في صَحنِها.

في خريف ذلك العام وصَلَت أختي ماري من برلين، بعد عِدَّة أيام من انتحار ابنتها مارتا بإلقاء نفسها من جسرٍ في نهر مُتدفِّق حيث غرق أيضًا ابنها ثيودور قبل عِدَّة سنوات، وكان زوجها قد مات منذ سنواتٍ عديدة، مَكَثَت معنا حتى بداية الشتاء، وكلَّما انتهت مُحادَثَةٌ بين ثلاثتنا أنا وهي أمي؛ غادَرَت ماري الغرفةَ في جَلبةٍ وعادت بعينين حمراوَيْن، ثم رجعت إلى برلين في نهاية ذلك الشتاء وقتَ ذوبان الثلوج.

في صيف 1922 ذهبت كُلٌّ من ماما وروزا وكُلُّ مَن كان في بيت سجموند في إجازة إلى غابات ڤيينا. كان صيفًا رطبًا وحارًّا، كل شيء كان ضبابيًّا، والتَمَعَت المدينةُ أمام أعيننا وكأنها تستعدُّ للذَّوَبان في الحرارة.

في الصباح حيث ما زال الخروج مُمكِنًا، مَشيتُ إلى المبنى الذي عاش فيه كُلٌّ من سيجموند وروزا، أحيانًا كنت أَقرَعُ جرس شَقَّةِ أختي حتى أوقِظَ سيسيليا ابنتَها، كانت في الثالثة والعشرين من عمرها، وجميلة، كما كانت روزا أيضًا جميلة، بل الأجمل بيننا نحن الخمسة.

ذات صباحٍ رأيتُ أن سيسيليا فتحت كُلَّ النوافذ، كان أحد أيام الصيف النادرة التي تهبُّ فيه الرياح حتى رفرَفَت الستائِرُ كأجنحةٍ بيضاء تمتدُّ ناحية الشارع. دخلتُ المبنى وصعدت إلى طابقهم، قرعت الجرس وانتظرتُ ثم قَرَعتُه مرَّةً أخرى، وحين وَضعتُ يدي على مقبض الباب أدركت أنه مفتوحٌ، دخلتُ الشَّقَّة وكانت كل الأبواب والنوافذ مفتوحةً، ولم يَكُن ثَمَّة صوتٌ في الشقة إلَّا صوت النسيم.

مضيتُ إلى غرفة سيسيليا فكانت تستلقي على الفِراش وبجوارها خِطابٌ، وعُلبَةُ أدوية فارِغَة على منضدة الفراش، استلقت في سلامٍ وكأنَّها نائمة، فكان جَسَدُها ما زال دافئًا. نظَرتُ إليها وفكَّرتُ في أختي روزا. جلستُ على الفراش بجوار الجُثَّة التي ترتدي ثيابَ نَومٍ بيضاء.

أمسَكتُ بالخطاب الذي شَرَحَت فيه لماذا أقدَمَت على فِعلَتِها هذه، لقد أَحبَّت ضابِطًا مُتزوِّجًا وحَمَلَت منه، قال لها إنه لن يتزوَّجَها، كتَبَت: "أعرف أنه لا يمكن مساواة ألم العار بألم الفقد، لكن العار كان سيقتلني على أيَّة حال، ولم أكن لأتمكَّن من إعطاء طفلي الذي أحمله حياةً حقيقية، لم أَكُن لأستطع الاعتناءَ به كما فعلتِ مع هيرمان ومعي، لم أكن لأستطيع أن أحبَّه كما أحبَبتِنا، أو أُضحِّي من أجله كما فَعلتِ من أجلنا، وبما أنني لن أتمكَّن من منحها تلك الحياة التي يستحقُّها، الحياة التي يَجِبُ أن أَهَبَها له كما مُنِحَت لي من قبل، فمن الأفضل ألَّا أعطيه حياةً، وأن آخُذَ حياتي أيضًا، أعرف أنه لا مجالَ للمقارنة بين ألم الفقد وألمِ العار، وأنا عاجِزَة عن أن أُسامِحَ نفسي؛ إذ

إنني لكي أنقذ نفسي من رُعب عَارِي أُعرِّضُكِ لرُعبَيْن: العار والفقد، لكنَّني أعرف أن بمقدورِكِ أن تغفري لي، وأتوسَّل إليكِ أن تفعلي".

كان خَطُّها هادئًا ثابتًا كما لو كانت تكتب خطابًا عاديًا تخبرنا فيه أنها خرَجَت وستعود قريبًا، ثم مساحة بيضاء، وبعدها يختلف الخطُّ تمامًا، حيث تتذبذب الحروف؛ حتمًا كُتِبَت حين شعرت أنها تغطس ببطءٍ في ما يُشبِه النَّوم، "كوني قويَّةً كما كنتِ دائمًا".

وضَعتُ الخطاب على الوسادة، ومَرَّرتُ يدي على شَعر سيسيليا الأسود الطويل، أرخَته على الوسادة فوق أوراقها التي كَتَبَت عليها خطابها. فكَّرتُ في روزا، وتذكَّرتُ كلماتها بعد موت زوجها، عندما كان أطفالها صغارًا: "الآن أنا أعيش لأبنائي فحسب، لولاهم كنتُ انتحرت"، تذكَّرتُ الكلمات التي قالتها أيضًا بعد مَقتَلِ ابنها: "الآن أنا أعيشُ من أجل سيسيليا لولاها لَما عِشتُ للَحظَةٍ واحِدَة".

وَضَعتُ يدي على بطن سيسيليا، حياة أخرى انتهت، فشعرتُ بألمٍ في رَحِمي، أمسكتُ ببطن سيسيليا كما لو أنِّي أُمسِكُ بشيء حَيٍّ، شيء يجب إنقاذه من التَّحلُّل، وظَلَّ رَحِمي يُؤلِمُني حتى انحنَيتُ وقَبَّلتُ جَبهة رأسها.

عادت أختي إلى ڤيينا في المساء ذاته، أمضت تلك الليلة على الفِراش تحتَضِنُ جُثَّةَ ابنَتِها، جلَستُ أنا وسيجموند في الرُّكن الأخير من الغرفة، بين الحين والآخر ينهض أَحدُنا مُحاوِلًا إقناع روزا بأن تنال قسطًا من الرَّاحة، لكنَّها لم تستمع إلينا، وظَلَّت مُستَلقِيَةً هناك، تُداعِبُ وتُعانِق جُثَّة ابنَتِها، وتهمس بشيءٍ غير مَسموعٍ، كُنَّا نفهم فقط من نَبرَةِ صَوتِها متى تستفهم ومتى تقترب من ابنتها أو ترجوها أمرًا، أو تَلعَنُها.

"والآن لم يَبقَ لي مَن أعيش من أجله"- كانت هذه هي الكلمات الوحيدة التي ظلَّت روزا تُرَدِّدها بعد دَفنِ ابنَتِها، ظَلَّت الأفكارُ بين

غَداةٍ ورَواحٍ، حتى تلك الأمور التي نُكرِّرها يوميًّا بحُكمِ العادة بدا أنَّها لن تعود إلى فَمِها مرَّةً أخرى بعدما نطقت بها، ظلَّت تلك الفكرة وحدها تعود مرَّةً بعد الأخرى، وكأنها تُقنِعُ بها جَسدَها بأن عليه أن ينتهي.

أصبح جَسدُها أضعفَ اليومَ تلوَ الآخر، ونَصَحَها الأطبَّاءُ أن تَذهبَ إلى مكانٍ ما لتستعيدَ عافِيَتَها. ذهَبَت مع ماما إلى باد جاستين وعادتا بعد نصف العام. في أول مساء لها بعد عودتها لم تَشَأ أختي أن تنام وحدَها في الشَّقَّة؛ لذلك أمضيتُ الليلة معها في بيتها، وقبل أن نستلقي استعدادًا للنوم قالت لي روزا: "أسأل نفسي باستمرار: هل كُنتُ أمًّا صالِحة؟ هل مَنَحتُ أطفالي كلَّ ما يحتاجونه؟ هل أطلَعتُهم على كُلِّ ما يحتاجون لمعرفته، هل أَكثرتُ من ترديد كلمة بعَينِها أم أمسكتُ عن تكرار أخرى؟ أشعر أنني قلتُ بعض الأمور التي كان من الواجب عدم البَوحِ بها، وكَتمتُ كلماتٍ كان يجب أن يسمعوها، لكن من العَبَث أن أُفكِّر هكذا الآن؛ لأن حياتهم انقضت الآن، وكذلك حياتي".

أخرَجَت صورتَيْن: واحدة لابنتها، والأخرى لابنها، ولمَستهما بإصبع مُبللَّةٍ بالدُّموع والعَرَق.

في ذلك الوقتِ انتبه أخي لكُتلَةٍ ما ظهرت في فمه، وصارت تُضايقُه حين يأكل. أخبره الأطباء أن سَبَب ذلك هو التَّدخينُ الشَّرِه. ظنَّ أنه ما من داعٍ لإطلاع أُسرَتِه على العملية الجراحية؛ فكل الأمور ستجري بعد الظُّهر، وسيعود إلى المنزل مساءَ اليوم ذاته.

فقد الكثير من الدماء أثناء العملية، واتَّصلَت المستشفى بمارتا وآنا ليأتِيَا له باللوازم الأساسية التي سيحتاجها، لكنه في اليوم التالي أَصرَّ على العودة إلى المنزل. ذهَبتُ إلى رؤيته وكان الجُرحُ في فمه لا يزال مفتوحًا، لم يكن بمقدروه أن يتكلَّم؛ فكتب أسئلته وإجاباته على ورقة.

في اليوم التالي هاتَفَه زوج ابنته ماكس هلبرستاد. تحدَّث مع آنا وسأل ما إذا كان بمقدور هنريل الذي استأصل اللوزتين لتوِّه الذهاب إلى فيينا لبعض الوقت. لقد كان مريضًا جدًّا، فحصه الأطباء ولم يتوصَّلوا لأي شيء آخر غير اللَّوزَتَيْن، مُرجِّحين أن يكون مناخ هامبورج لم يكن مُناسبًا له.

منذ اللحظة الأولى التي رأيناه فيها كان واضحًا أنه لن يعيش كثيرًا، وأخفى الجميعُ شعورَه هذا عن بعضهم البعض، كانت الفكرة تظهر فقط عندما ننظر إليه، اعتاد أن يبتسم وحَسبُ حين يَلحَظُ تعبيراتنا الملتوية مُصوَّبَةً إلى وجهه، كان ثمَّةَ أمرٌ قديم في ابتسامته هذه، لم يكن يبتسم لنا طِفلٌ في الرابعة من عمره، بل كأنَّه رَجُلٌ كبير، خَبِر الحياةَ وتَحرَّر من خَشيَتِها، ويهزأ في وجه الموت.

عهد جَدُّه سيجموند برعايته إلى ابنته ماتيلدا في بيتها، مُتَعلِّلًا بالعملية الجراحية الأخيرة، ومرضاه الكثيرين، وكتابات أعماله، وكانت ماتيلدا سعيدةً بهذا القرار؛ إذ خضعت لعملية جراحيَّةٍ في شبابها المبكِّر حالت بينها وبين الإنجاب، كان سوءَ حَظٍّ حياتها، والآن أصبحَت سعيدةً أن تحلَّ مَحلَّ أُختِها المتوفَّاة، وتُوفِّر الرعاية الأموميَّة لهذا الصغير.

قالت إنها في المساء تسمع من الغرفة التي ينام فيها هنريل ما يُشبِهُ الهمسَ والغناء، أو تتنهَّد، وحين تذهب إلى غرفته ترى شفتَيْه تتحرَّكان ببُطءٍ، وتُصدِران أصواتًا بالكاد مَسموعَة، وكأنه يُغنِّي شيئًا غير مفهوم، كان يغني ويهمس في نومه كل ليلة.

لم يتذكَّر هنريل أُمَّه، لقد ماتت صوفي فرويد هالبرستاد حين كان يبلغ ثلاثة عشر شهرًا، كان يعرف وجهها من الصور التي التقطها لها والِدُه، وسمع عنها من أخيه إرنست الأكبر منه ببضع سنوات. عندما

رأى صورتها في إطارٍ بمنزل جَدِه تَعرَّف عليها، وقال إن أخاه أخبره أنها ترقد في الأرض الآن. نادرًا ما كانوا يحضرونه إلى سيجموند.

قال لماتليدا عندما جاء إلى منزلنا: "ربما يريدني جَدِّي أن أزوره؟".

"بالطبع يريد أن يراكَ، لكنَّه لا يستطيع استقبال زُوَّار... لقد خضع لعمليَّةٍ جراحية منذ أسبوعين".

في الحقيقة كان فقط مشغولًا؛ إذ لم يَكُفَّ عن استقبال مرضاه، وفي المساء يكتب.

قال هنريل: "أنا أيضًا خَضَعتُ لجراحةٍ منذ أسبوعَيْن".

كُنَّا نعرف ذلك، لكن لم يسأله أحدٌ مِنَّا عَمَّا جرى له، أو ما إذا كان حَلقُه يُؤلِمُه عند البَلْع، كُنَّا ننسى يوميًّا قياسَ درجة حرارته، رغم أن أباه قال لنا إن الأطباء أوصوا بمتابعة ذلك. شُغِلنا جميعًا بسيجموند، كانت آنا قَلِقَةً من عدم التئام الجرح الناتج عن العملية بشكلٍ صحيح، وكانت أمي قَلِقَةً من أنه ربما كان مرضًا أكثرَ جدِّيَّةً من مجرَّد كتلة عادية، وحَرَصَت مينا أن يحصل على الهدوء والسلام حتى يَهَبَ وَقتَه للكتابة، بينما لم تسمح له مارتا بأن يُهلِكَ نفسه تمامًا مع مرضاه، وواظَبَت ماتيلدا على إحضار الأدوية الجديدة، وأنا فعلتُ ما بوسعي كي لا يكونَ إصراري على زيارته بصُحبَةِ أُمِّي واضِحًا.

وهكذا تجاهَلنا نحافةَ هنريل التي تزيد اليومَ تلوَ الآخر، وأن كُلَّ ما تبقَّى على رأسه الصغير بضعُ شعرات صفراء اللون تُومِضُ أسفلها عيناه المنتفختان، وأصبح لونُ جِلدِه المائل للأخضر داكِنًا، لم يُفكِّر أحدٌ أنه كان بحاجة للتحدُّث عندما سَمِعناه يهمس لنفسه أثناء كُنَّا نتحدَّث بشأن سيجموند، ولا سألناه عَمَّا يخشاه حين خاف من الزُّجاجِ المقلوب على الطَّاولة.

ذات يومٍ بعد الظهر في أوائل يونيو، تركته ماتيلدا في رعايتي بينما ذهَبَت هي إلى ڤيينا لشراء الأدوية لسيجموند، قال لي هنريل إنَّ الجَوَّ الآن حتمًا جميلٌ في المتنزَّهات، فأومَأتُ برأسي بينما واصَلَ هو: "والورود كذلك حتمًا ستكون رائِحَتُها مُذهِلَة". تَمتَمتُ ما مفادُه مُوافَقة على ما يقول، فأضاف إن الطيور أيضًا حتمًا تُغرِّد الآن أجمل من ذي قبل، وراح يصفِّر مَرَّتَيْن مُقلِّدًا أصوات العصافير.

لم أكن ألتقيه كثيرًا، لكنني استنتجتُ من هذه اللقاءات القصيرة من أنه لم يطلب لنفسه شيئًا على الإطلاق، كانت رغباته دائمًا مختَبِئَةً بين الكلمات التي تعبِّر عمَّا يراه، ويُبهِجُه ويثير رفضه. نظر إليَّ في حالة تَوقُّع أن أَفهمَ أُمنِيَتَه، تعرَّفتُ عليها وظَلَلتُ صامِتَةً. شَعرَ هنريل بهذا الصمت وهرب منه بأن تحوَّل نظره إلى الذُّباب الذي حلَّق في الغرفة.

"هل صحيح أن هناك ذباب يعيش ليومٍ واحد؟".

"نعم، إنه يدعى ذباب مايو".

"لو كنتِ ستعيشين ليومٍ واحد فقط، هل تذهبين إلى المتنزَّه تَشُمِّين الورود وتشاهدين الطيور أم تلزمين البيت؟".

قلت: "لا أعرف".

"هل يخشى ذباب مايو الموتَ؟".

"لا يمكنهم أن يخافوا منه لأنهم لا يعرفونه".

"هل من الأفضل ألَّا يعرف المرء عن الموت فلا يخشاه، أم يعرف ويخشاه؟".

"من الأفضل أن يعرف عنه فلا يخشاه".

قال: "لكن هذا مستحيل".

كذَبتُ قائِلَةً: "بلى، مُمكِن".

فكَّر هُنَيهَةً ثم سأل: "لكن ماذا عساكِ تفعلين لو كنتِ تَخشَين الموت؟".

شعرتُ في صوته بنفس خوف طفولتي.

قلت له: "إننا لا نختفي بعد موتنا، إن الأمر مثل يدٍ تُحرِّك دُميَةً، عندما يولد المرء يَنسلُّ إلى الجسد كما تَنسلُّ اليَدُ في الدُّمية، وعندما يموت الجَسَدُ يخرج المرءُ منه كما تخرج اليَدُ من الدُّميَة".

"لم يَسبِق أن كان لي دمية أَنسلُّ إليها".

تذكَّرتُ أنه لا يطلب أبدًا ما يشتهيه، فقلتُ له: "سأصنع لك يومًا ما دُميَةً كهذه".

"سأنتظر، أنا لستُ ذباب مايو، ما زال لديَّ وقت".

عندما وصلت ماتيلدا إلى بيتنا واستعدَّت لتعود إلى البيت مع هنريل اصطدمَ شَيءٌ ما بالنافذة وأثار فَزَعَنا، قال هنريل: "كانت هذه عصفورةً، ربما حَسِبَت النافذة سماءً أخرى"، تجاهَلَ كلانا سماعَه حين قال: "أحبُّ جدًّا أن أذهب إلى المتنزَّه اليوم وأشاهد الطيور".

كُلُّنا كنَّا نعلم أنه لا يطلب أيَّ شيء، كانت رغباته دائمًا مختبئة بين الكلمات التي تُعبِّر عَمَّا يراه، ويُبهِجُه ويثير رَفضَه. نَظر إلينا على أمل أن نفهم أُمنيَتَه، فهمناها لكننا واصَلنا الصَّمتَ، فَهِمَ هنريل صَمتَنا وهرب منه بأن حوَّل نظراته إلى بُقعَةٍ على الحائط، وناحية الذباب الذي يُحلِّق في الغرفة وتجاه النافذة.

تركته ماتيلدا وحده في البيت وأكثرت من الذهاب لشراء الأدوية لسيجموند، وكانت تخبرنا أنها حين تعود إلى الشقَّة تجد هنريل جالسًا على الأرض وقد فتح أمامه رُقعَةَ شطرنج، يمسك بالقطع ويتحدَّث معها.

في التحليل عثر الأطباء على كُتلَةٍ جديدة في فم سيجموند. زاد قلقنا على صِحَّته يومًا بعد يوم، ولم نلحظ أن صِحَّة هنريل تتدهور يومًا بعد يوم. حسبنا أن ارتفاع درجة حرارة رأسه هو جزءٌ من ابتهاجه بسبب تغيير المكان، وأن سُعالَه بسبب شعوره بالبرد.

حتى الصباح حين لم يَعُد بإمكانه مُغادَرَة الفِراش، وبعد عِدَّة أيام شخَّص الأطِبَّاءُ حالته بأنها السُّل، أُودِعَ في جناح الأطفال بمستشفى ڤيينا العمومي، وأمضيتُ أنا وماتيلدا عدَّةَ أيَّامٍ في غرفته نَعتَني به، وعندما قال الأطبَّاء إن حالته تأخذ منحنًى سيِّئًا لا رَجعَةَ فيه جاء أبوه من هامبروج إلى ڤيينَّا على أمل أن يلقاه حيًّا.

جلست بجوار فراش هنريل وحاوَلتُ أن أصرف انتباهه بعيدًا عن أوجاع جسده. كان تَنَفُّسُه ثقيلًا يقطعه سعالٌ شديد يُمزِّق صدره، ومن وقتٍ لآخر كان يمسح يديه المتَعرِّقَتَيْن في مَنامَتِه.

سأل: "أين جَدِّي؟".

قلتُ: "إنَّه مريضٌ، لا يمكنه الحضور"، كان سيجموند يَستَعدُّ من أجل عمليته الثانية، العائلة كلها كانت تستعدُّ من أجلها.

أراد أن يقول شيئًا، لكن كلماته انتهت بسُعال، مسَحتُ له فَمَه، ومَسَحتُ يَدَيه المتَعرِّقَتَيْن في منامته، ثم فَرَكتُ جبهة رأسه بيدَيْه، ومُجدَّدًا مسحت العَرَقَ على منامته.

قال لي: "لقد وَعَدتِني ذات مَرَّةٍ أن تصنعي لي دُميَة"، بدا هذا لذاكرتي، ومن بين كل ما قاله، أقرب ما يكون لطلب.

"سأصنع لك واحدة".

"متى؟".

"وقتما تريد".

"هل يمكنُكِ أن تصنعيها الآن؟"، حاول أن يضبط وضعيَّته على الوسادة، لكنه لم يستَطِع؛ فظلَّ مُستلقيًا، ضَبطتُ وضعيَّة الوسادة وأرخَيْتُها نصفيًا على الحائط حتى يتمكَّن من رفع رأسه قليلًا أثناء استلقائه.

"لا أعرف ما إذا كنتُ سأعثر على كل ما سأريده هنا"، وفتَّشتُ حولي عن نسيجٍ يُمكنني أن أصنع به الدُّميَة. كل الأشياء كان لونُها أبيضَ، ومُرتَّبة بمعدَّات المستشفى. قلت: "سأصنع لكَ دُميَةً وأجلبها لكَ غدًا".

"أرجوكِ"- لم يسبق له أن توسَّل من قبل، وكأنه شعر أن توسُّلاته هذه طَلَبٌ كبير، "الآن"، وبلَّل شَفَتيْه الجافَّتَيْن بلسانه.

أخذت واحِدةً من القُماشَتَيْن البيضاوَيْن على مسند الفِراش، سحَبتُ منها خيطًا وربطتها حول موقع الرَّقَبة، وأخرجتُ من حقيبتي قلم حبر وخرمتُ عينين زرقاوين داكِنَتَيْن في رأس الدُّمية.

ناوَلتُه قطعةَ القُماش وقلت له: "هاك... عندما نعثر على باقي الأشياء سنصنع لها شَعرًا وفمًا وأنفًا".

شَكَرني، وساعَدتُه على وضع يده داخل الدُّميَة.

"ماذا ستسمِّيها؟".

قال هنريل: "هذه الدُّمية هي أنا، ألم تقولي إن الإنسان حين يموت يَخرُجُ من جسده كما تخرج اليد من الدُّميَة؟".

"هكذا يتمُّ الأمر".

سعل هنريل ومدَّ يده التي يلبس عليها الدُّميَةَ قرب فَمِه، وعندما أبعدها كان وجهُ الدُّميَة قد غَطَّته الدِّماء. زاغ بَصرُ هنريل وفَقَدَ الوعي.

أخذتُ ملابِسَ مُبلَّلةً من منضدة الفراش بجوار فراشه الصغير ومَرَّرتها على جبهة رأسه؛ فاستعاد هنريل وعيه، نظر إلى الدُّميَةِ في يده، ثم التفت إليَّ، حاول أن يقول شيئًا، لكنَّ صوته الواهن كان قد جَفَّ تمامًا، واتَّجهَت نظراته إلى بُقَعِ الدِّماء على وجه الدُّميَة قبل أن تذبل ببطءٍ، وتسقط يده على الفراش.

أغلَقتُ له جفنَيْه، وأخرجتُ يَدَه من الدُّميَة.

أفزَعَني صوتُ ارتطامٍ ما بالزُّجاج الخارجيِّ للنافذة، التفتُّ لكنني لم أرَ شيئًا، حتمًا اصطدمت عصفورة بالزُّجاج، "ظنَّت أنها سماءٌ أخرى" كما اعتاد هنريل أن يقول.

وصل أبوه في المساء، وفي اليوم التالي استقلَّ القطار إلى هامبورج حامِلًا معه ابنَه في كَفَنٍ صغير.

في تلك الظهيرة خضع سيجموند لعمليَّته الجراحية الثانية، وبعد عِدَّة أيَّامٍ خالَفَ نصيحة الأطباء وغادر في رحلةٍ إلى روما بصحبة آنا. في ثاني أيام رحلتهما تمزَّقَت قِشرَةٌ من جُرحِه الذي لم يبرأ بعدُ، وأصبح من المستحيل وقفُ تَدفُّق الدماء التي ملأت فمه.

عندما عاد إلى ڤيينا شُخِّص بالسرطان، في أكتوبر من ذلك العام خضع لعمليَّتَيْن جراحيَّتَيْن، وفي نوڤمبر أزال غُدَدًا أخرى أسفل الجزء العلوي من فكِّه، وأزال عَظمَةَ الفَكِّ العُلويَّة والحَنَكَ، وأُدخِلت بدلًا منها قسطرةٌ كبيرة لتفصل بين تجاويف الأنف والفَمِ حتَّى يتمكَّنَ من الأكل والشُّرب.

عندما تناوَلنا الغداء معًا للمرة الأولى بعد تركيبه القسطرة، تذكَّرنا هنريل وكيف كان يتحدَّث مع نفسه، ثم تحدَّثنا عن أمورٍ أخرى بينما نستمع للآخرين يتحدَّثون. فتَّشتُ عِدَّة مرَّاتٍ في جيب ثوبي حيث احتفظت بقطعة القماش التي بالكاد صَنعتُ منها دُميَةً وجهُها مُبقَّعٌ بالدِّماء.

احتَفظتُ بقطعةِ القُماش تلك لسنواتٍ في الدُّرج مع ألبوم الصور، في خزانة ملابسي، وأحيانًا كنت أحملها معي.

ذات مرَّةٍ حين كنتُ أنقلها من مكانٍ لآخر تركتها في مكانٍ ما بالشقة، لاحِقًا أمسَكَت بها أُمِّي وهي تنظر إلى آثار الدماء.

قالت لي عندما رأتني أدخل الغرفة: "لا بُدَّ أن هذه دماء".

"لا، إنها ليست دماءً، الدَّمُ لونُه أحمر، وهذا يميل إلى البُنِّيِّ".

"إذن فقد مَرَّ وقتٌ طويل على هذا النزيف حتى يتحوَّل لَونُه إلى البُنِّيِّ"، ثم فتحت النافذة وقالت: "سأترُكُها تُحلِّق بعيدًا" وألقت بقطعة القماش من النافذة.

في سنواتها الأخيرة، أصبحت أمي فجأةً ضعيفةً، قبل ذلك كانت تمشي كما امرأة شابَّة، كانت تمشي يوميًّا للقاء صديقاتها ولعب الورق مَعهنَّ، كانت أكبرَ من بعضهم بنصفِ قرنٍ. كانت تذهب إلى السينما مرَّةً في الأسبوع، ولم تُفوِّت عرضًا افتتاحيًّا أبدًا. وعندما انطلَقَت السيارات في ڤيينا قالت لأخي الذي كان يتعلَّم القيادة، بلهجةٍ جادَّةٍ ومازِحَة في الوقت نفسه: "صغيري سيجي الذَّهبي: اشترِ لي سيارة، سأتعلَّم القيادة".

كانت كما لو أن سِنَّها توقَّف في التاسعة عشرة، ثم بدأت تشيخ مقابل كُلِّ سَنَةٍ توقَّف فيها الزَّمن، ولم تَبْقَ سوى ملامح وجهها كما هي، وكأنها مَنقوشَةٌ على الحجر، فلم تَعُد ترغب في لقاء أحد من خارج العائلة، صارت تترنَّح في مشيَتِها، ولم تَعُد تغادر البيت بدون مُرافَقَة، وحتى هذه التمشيات كانت قصيرةً؛ إذ كانت تقف وتقول إنها لم تَعُد تعرف المدينة، ثم تلتفت عائِدَةً إلى البيت.

لم تَعُد تتعرَّف على بعض صديقاتها اللاتي تلتقيهنَّ صُدفةً أثناء تمشياتها، وحين يُقبِلن نحوها تداري تَشوُّشَها بأن تسأل أسئلةً عامَّةً

كي لا يلاحظوا أنها لا تعرف مع مَن تَتحدَّث. بعد ذلك فقَدَت قُدرَتَها على التمييز بين الأشياء، فعلى سبيل المثال: أخرَجَت ذات مرة سِكِّينًا من الخزانة لتقطع خبزًا، لكنها حسِبَتها شَمعَةً، وطلَبَت منِّي أن أجلب لها قُماشَةً لتُصلِحَها، وقامت بترتيب البطاطس في خِزانَةِ الأحذية، وماذا عن تلك الدُّمية القُماشيَّة بِبُقَعِ الدِّماء؟ من المرجَّح أنها تحوَّلَت إلى طائرٍ لحظةَ أن أمسَكَت بها، وأطلَقَته ليُحلِّقَ بعيدًا.

في أغسطس لم يَعُد بمقدور أُمِّي تركُ البيت، في كلِّ ظهيرة كانت تَتَّكِئ عليَّ ونمضي إلى الشُّرفة، كنا نجلس فيها لفتراتٍ طويلة نشاهد الشارع من بين قضبان سور الشرفة. ذات مَرَّة علَّقَت أمي على كل عابر في الشارع، والآن أصبَحَت تنظر نظراتٍ غائِبةً ولا تقول شيئًا.

على مدار ذلك الصيف، تهدَّلَت فجأةً ملامِحُ وجهها الذي تمكَّنَت من الحفاظ على حِدَّتِه طوال حياتها. صارت نظراتُها الآن رقيقةً ومُرتَبِكَة، خلافًا لنظراتها القويَّة السابقة، وفقَدَت شَفَتاها إطباقَهما على بعضهما وارتختا وذَبُلَتا، لم تَعُدْ تشبه نفسها.

ذات ظهيرةٍ، وبينما نجلس في الشُّرفَةِ سألَتني: "هل سيأتي؟".

"مَن؟".

"سيجموند".

"سيأتي... إنه دائمًا يعود إلى ڤيينا في نهاية سبتمبر".

"سيحتاج لأن يأتي مبكِّرًا هذا المرَّة".

أمضى سيجموند النصفَ الأول من الصيف في إيطاليا أو اليونان أو في مُنتَجَعٍ صِحِّيٍّ، وأمضى النِّصفَ الثاني من الصيف في كوخه بغابات ڤيينا، ذهَبَت أُمِّي وروزا إلى غابات ڤيينا بصُحبَةِ أسرة فرويد، وأحيانًا كانوا يذهبون معه إلى المسبَح.

صيف 1930 كان آخِرَ صَيفٍ في حياتها، بقيَت معي أمي في ڤيينا، شعرَت أنها لن ترى المنتجعات الصِّحِّيَّة أو الغابات مرَّةً أخرى، وكذا راحت تَتذكَّر أثناء حديثنا رحلاتِها السَّابقةَ، ماذا حدث، متى وأين، أحداثٌ مع أحفادها، مُحادثاتٌ مع سيجموند وروزا ومارتا ومينا، ثم تَغيَّر صوتُها فجأة وقالت: "لكنَّكِ وحيدةٌ في فصول الصيف هذه".

في إحدى تلك الأيام بعد الظُّهر بعد أن أخرَجتُ الكراسي إلى الشرفة وساعَدتُ أُمِّي في الجلوس على واحدٍ منها، لمحتُ طائِرَ سنونو ميِّتًا على سور الشُّرفَة، عندما رأتني أُمِّي أَضَعُه في صندوقٍ سألَتني: "ما هذا؟".

مكتبة
t.me/t_pdf

"إنه طائر سنونو"- وأنا أُغلِقُ الصُّندوق.

"هل ستُغلقين عليه هكذا؟".

"إنه ميِّت... سوف ألقي به بعيدًا".

قالت: "ميِّت... لِتُلقي به بعيدًا..."، ووَضَعَت يدها على مسند الكرسي كما لو كانت تريد أن تَنهَضَ بنفسها، ثم التفتَت ناحيتي وسألت: "هل سيأتي سيجموند؟".

"سيأتي... إنه يعود دومًا بعد إجازته في نهاية سبتمبر".

قالت: "سيتأخَّر هذه المرَّة".

"لا، سوف يأتي في هذا الوقت مُجدَّدًا".

"سيأتي في هذا الوقت، لكنه سيكون مُتأخِّرًا".

كلَّما اتصل سيجموند أخبَرتُه أن أُمَّنا ترغب في رؤيته، لم تَعُد تسمع الأصوات عبر التليفون لأنها تفقد سمعها منذ سنوات، لكنها أثناء حديثي معه عبر الهاتف فَهِمَت من حركة شَفتيَّ أنَّني أُكلِّمه؛ فنَظَرَت لي بنظرة المسِنِّ المستَعِدِّ للموت بلا خوفٍ، وإن كان يبدو مُترددًا بعض الشيء.

فور أن فَرَغتُ من المكالمة قالت لي: "خذيني إلى الخارج".

تأبَّطَتني برفقٍ وخَرَجنا إلى الشرفة، جلسَت على الكرسي وسَنَدَت يديها على ذراعيه، لم تكن تتَّكِئُ عليه، بل تقبض عليه كما لو أنَّها تمنع نفسَها من السُّقوط أرضًا، ثم نطَقَت بما كتَمَته أثناء تحدُّثي مع سيجموند: "هذا يعني أنه لن يأتي"، وغاصت أكثرَ في الكرسي.

كان المناخ شديدَ الحرارة؛ فخَلَت الشَّوارِعُ وحَلَّق الذُّباب في كل مكان، ارتجَفَت أُمِّي وقالت: "لم يسبق أن كان الجَوُّ بهذه البرودة".

في أوقت عجزي، عندما كانت تَسحَقُني بكلماتها وأفعالها كنتُ أتوق للَّحظة التي يُصيب جَسدَها الوَهَنُ، تَمَنَّيتُ الوقتَ الذي سأنتقم فيه منها وأَردُّ لها أذاها، والآن هي عاجِزَة، ولو كان ضَعفُها جَسديًّا وحسب لربَّما كنتُ تَمَكَّنتُ من الانتقام، لكن إيملي فرويد التي كانت كلماتها كالسِّكِّين لم يَعُد لها وجود.

في عجزها تَذكَّرتُ عجز طفولتي وشبابي، ولن تكون كلماتي وأفعالي العدائيَّة تجاه هذا الشخص المحتَضَر انتقامًا، بل قسوة على نفسي، وضِدَّ ذاكرتي عن هذه الطفلة، هذه الفتاة، وتلك الشابَّة التي كنتُ يومًا ما.

في بداية سبتمبر تطوَّرَت الغرغرينا في ساق أُمِّي اليمنى، وبينما أُضمِّد لها مكان الجُرحِ نَظَرَت باستسلامٍ إلى الجُرحِ المفتوح. كُلَّما بدأَت تطرُقُ بعصاها على الأرض فأعرف أنها ترغب بالخروج إلى الشُّرفة.

رافَقتُها إلى الخارج، وأَعَنتُها على الحركة، تحرَّكَت على ساقٍ واحدة، تتَّكِئُ عليَّ وعلى عصاها، جلسنا ورُحنا نشاهد الشارع.

قالت: "أشعر بالجوع".

"لقد تَناوَلنا الغداءَ لتوِّنا".

"أشعر بالجوع للطعام الذي أَكَلتُه في طفولتي، أريد خبزًا، فقط خبز".

أحضَرتُ بعض الخبز، قرَّبَته من فمها وبَلَّلته بلُعابها فتَفتَّت منه أكثرُ ممَّا ابتَلَعَت. ثم وضَعَت باقي كسرة الخبز على حِجرِها بجوار الفُتات، وسَرَحَت فيه. عندما رفَعَت رأسها قالت: "انظري إلى هذا الطفل إنه يطير!".

"هذا ليس طفلًا، إنه بالون".

"بالون!" رَدَّدَت الكلمة وكأنها لا تعرف الكلمة، ثم أضافت: "والآن حتى الرؤية أصبحت تُؤلِمُني"، ثُمَّ أغلَقَت عينيها.

في لحظةٍ ارتخت يداها اللتان تقبضان على الكرسي، واسترخت رأسها ببطء إلى الأمام، وكأنها تنحني بإجلالٍ لشخصٍ ما، سقَطَت في النوم. كان أحدَ الأيام الدافئة من شهر سبتمبر، لكنني كنت أعلم أنها تشعر بالبرد، وأن هذا البرد حَثَّها على أن تحلُمَ بالشتاء والثَّلج، تحلم أنها تُرِكَت وحيدةً في مكانٍ ما حيث تتساقَطُ عليها الثُّلوج.

نَهضتُ ودخلتُ الشَّقَّةَ بحثًا عن بطانية أُغطِّيها بها، وعندما عُدتُ رأيت أن العصافير تجمَّعَت على حِجْرِ أُمِّي يلتقطون فُتات الخبز، لكنها كانت لا تزال تنام بسلام. ربما كانت العصافيرُ تُغنِّي لها تهويدةً في حُلمِها بزقزقتهم. حين اقتربتُ منها طارت العصافير بعيدًا، كنَستُ عن حِجرها فُتات الخبز الذي تركه بعضهم، ثم حاوَطتُها بالبطانية.

عندما استيقظَت كان الظلام قد هبط، ساعَدتُها على النهوض من كرسيها برفقٍ، أدخَلتُها الشقَّة ووضعتها في الفراش. قالت لي: "ابقي معي الليلة".

رغم أننا اقتربنا للغاية من بعضنا بعد عودتي إلى المنزل أكثرَ من أيِّ وقتٍ مضى في ثلاثين عامًا، إلَّا أن آثار العداوة بيننا لم تُمحَ تمامًا، وأحيانًا كانت تمنعني من الجلوس معها على الطرف الآخر من الفراش حيث كان ينام أبي حتى مماتِه.

"سأجلس"- قلت لها بينما أضع مقعدًا بجوار الفراش.

أمضينا الليلة بجوار بعضنا، وبالكاد تحدَّثنا بكلمة، شعرتُ أنها تريد أن تخبرني بكثيرٍ من الأمور، لكنها لم تَقُل شيئًا، تألَّقت الأفكارُ والمشاعر بضوءٍ أزرق حول القمر، لكن لم تتحوَّل أيٌّ منها إلى كلمة.

نظَرتُ إليها، تنبَّأت أن هذه هي آخر ليلة لها، وتذكَّرتُ ليالي البؤس هذه في شبابي، عندما كانت أمي تصبُّ الملح على الجرح المفتوح بابتهاجٍ قاسٍ. تذكَّرتُ أنني حينها تمنَّيتُ أن أشهد تلك الليلة، وقبل عشرة آلاف ليلة من هذه الليلة أَردتُ الانتقام، الانتقام الذي لا يأتي إلَّا في لحظات العجز القُصوَى، أن أُذكِّرَها في عجزها -بينما تُواجِهُ الموت- بعجزي، وبقسوتها في إيلامي.

لكنَّني نَظرتُ إلى هذه الـ إيملي التي لم تكن تشبه تلك الـ إيميلي مطلقًا، ورغم أن قِلَّةَ حيلَتِها ذكَّرَتني بعجزي السابق، إلَّا أنَّني لم أتمكَّن -ولم أشأ- أن أوقظ بداخلي قَسوَتَها التي سَحَقَتني بها حتى أغرقتني، القسوة التي لو كنتُ أَيقَظتُها بداخلي لكُنتُ بالفعل ابنتَها ليس بالدَّمِ وحسب، بل بالقسوة التي ستعانيها بسبب معاناتها الشخصية، قسوتي التي لن يُرضِيَها إلَّا نَدَمُها الشديد.

تبادَلنا النظراتِ، ولم نَقُلْ شيئًا، وقبل أن تنتهي الليلة خَلَدَت إلى النوم، وكان حُلمُها الأخير هادئًا قصيرًا. قبل أن تستيقظ مَدَّت يدها وكأنها تحاوِلُ الوصولَ إلى شخصٍ ما في حُلمِها، فتحت عينَيْها فلم أُميِّز مغزى نظراتها، بدا أنها لا تَنظُرُ إليَّ، بل إلى امرأةٍ أخرى، مَدَّت يدها نحوي فمَدَدتُ لها يدي.

قالت لي: "ماما".

إنها أوَّلُ وآخر مَرَّةٍ يناديني فيها أحد بـ"ماما". انقَلَبَت الأزمانُ، ذات مرَّةٍ ظَنَّت جَدَّتي أن أمي هي أُمُّها، وأني ابنتها إميلي، والآن تَحسَبُ أُمِّي أنني أُمُّها. ظلَّت مُمسِكَةً بيدي لفترة، ثم التفَّت عيناها للوراء،

بـدأت تتنفَّـس بصعوبـة، وتَكـوَّن الزَّبَـدُ حـول فمهـا. طلبـتُ الدكتـور، وحـين فحصهـا قـال لي إن أمـي سـتموت في اليـوم ذاتـه.

جلَسـتُ عـلى فراشـها وأَمسَـكتُ بيدهـا، واسـتمعتُ إلى تَنفُّسـها الثقيـل، في وقـت مـا بعـد الظهـر تَخلَّـت يدُهـا عـن يـدي. أغلقـتُ عينَيْهـا، ونهضـتُ مُتَّجِهَـةً إلى الشُّرفـة. تسـاقَطَت أمطـار سـبتمبر الخفيفـة، وأدخلتُ الكُرسـيَّيْن اللذَيْـن أمضينـا عليهـما ظهائِـرَ الصيـف.

***

مـرَّت أشـهر بعـد مـوت أُمِّـي، ولم يـأتِ أحـدٌ إلى الشـقَّة التـي بَقيـتُ فيهـا وحـدي. أحيانًـا كنـت أذهـب إلى روزا التـي كانـت تقـضي أفضـلَ أوقـات السـنة في المنتجعـات الصِّحِّيَّـة، وفي الآحـاد كُنَّـا نجتمـع دومًـا للغـداء في منـزل سـيجموند، لكنـه كَفَّ عـن المجـيء إلى بيتـي بعـد مـوت أمـي في صباحـات الأحـد، ويحـدث أن أَمُـدَّ يـدي لأخـي كالشَّـحَّاذ مـرَّةً كلَّ شـهر لأعتـاش.

اختلفـت الليـالي الآن، تأصَّـل فيهـا الصَّمـتُ حتـى ظننتُ أنها سـتتحدَّث معـي. أصبـح مـن الصعـب أن أحافـظ عـلى العـادات اليوميـة، فتكـوَّم الـتراب عـلى الأرض والنوافـذ، ونسـجت العناكِـبُ شِـباكها عـلى الحائـط والشـمعدانات، لم تُغسَـل الصحـون منـذ أيـام حتـى تعفَّنَـت، كنـت آكُلُ كـما تـأكل الـكلاب الضالَّـةُ بـلا ترتيـب للوجبـات ولا مـكانٍ مُحـدَّدٍ لتنـاوُل الطعـام، لم أعـرف أيـن أو متـى سـأتناول طعامـي أو أقضمـه أو أبتلعـه.

في تلـك الأيـام التـي توالـت وراء بعضهـا كنـتُ أمـشي بطـول الشـوارع وعينـاي تنظـران للأسـفل كـما يمـشي الوحيـدون، وكأنهـم يؤمنـون بـأن نَبْـذَ العالَـمِ لَهُـم مكتـوبٌ في عيونهـم.

مَـرَّ الخريـف والشـتاء، وكـما اعتَـدتُ أن أفعـل كلَّ ربيـع أخرجـتُ كرسـيَّيْن إلى الشرفـة. جلسـتُ وحـدي في الربيـع والصيـف، ولم أَعُـدْ أتأمَّـل

الشارع بل الكرسيَّ الفارغ. في ذلك الخريف عندما اشتدَّت برودةُ الجَوِّ أدخلت كرسيًّا، لكنَّ كرسيَّ أُمِّي ظَلَّ بالخارج، راقَبتُ كيف كانت الريح أحيانًا تصدمه إذ تَحملُ ورقة شجرٍ جافَّة، أو قد يقف عليه طائِرٌ ما ليرتاح قليلًا، عصفور صغير أو غرابٌ أو حمامة، ليسنَّ منقاره في الذراعين المعدنيَّتين.

في أحد أيام الشتاء الوحيدة تلك أفزعني صوتُ جَرس الباب، لم يَقرَع أحدٌ الجرسَ مُنذُ وقتٍ بعيد حتى نسيت أنه موجود، ذهبتُ نحو الباب وفتحتُه، كانت كلارا كِلمِت تقف بالخارج، مَرَّ أكثر من عشر سنوات منذ زُرتُها في "العش" بصُحبَةِ الاثني عشر چوستاڤ.

سألَتني: "هل تذكرينني؟".

تَذكَّرتُها، رغم أن كلارا التي أعرفها مختلفة عن كلارا التي تقف الآن أمامي، تحدُّ بينهما الهاوية التي تفصل شاطئ العقل عن شاطئ الجنون. كلارا الصَّامتة التي لا تُبدي حركةً، التي رأيتُها قبل عشر سنوات هي ذاتها التي التقيتها حين ذهبتُ إلى ڤيينا برفقة الـچوستاڤات، هي كلارا ذاتها التي عِشتُ معها في "العش"، إنها كلارا التي التَقيتُها قبل سنوات عندما بسَطَت الحياةُ أمامنا آمالَها.

هذه الكلارا لن تقف على الشاطئ المقابل. إلى جانب السنوات العشر التي تفصل بين لقاءَيْنا، والتَّغييرات البسيطة في خَطِّ فَكِّها وفي سلوكها، كان هناك أيضًا أمرٌ ما يتعلَّق بمظهرها، شيء يتبدَّل مع عبور المرء من شاطئ لآخر.

قلت: "أذكر"؛ فعانَقَتني.

مضينا إلى غرفة المعيشة ونظَرَت هي إلى الباب الذي يُفضي إلى الشرفة وقالت: "هل تذكرين الأوقات التي كُنَّا نقف فيها بالشرفة؟ كنتِ تميلين إلى الأمام، تنظرين إلى الرصيف وتقولين كم أتمنى أن يأتي اليوم الذي أُعَلِّم فيه طفلي المشيَ...".

قلتُ: "أذكر"، وشعرتُ بجفافٍ في حلقي، ثم بدأتُ أسعل.

سألتني: "هل أنتِ مريضَة؟".

كذبتُ قائِلَةً: "نعم، أنا كذلك".

عانَقَتني وقالت: "سأعتني بكِ، سأبقى معكِ هنا وأرعاكِ، لقد اعتنيتُ بأخي حين مرض، لكنه مات الآن على أيَّة حال، لكنك لن تموتي، أعرف الآن كيف أعتني بك فلن تموتي".

سألتُها إن كانت تشعر بالجوع. ذهبنا إلى المطبخ وبينما نتناول حساء الخضروات المتبقِّي من أيَّامٍ سابقة أخبَرَتني عن سُكَّان "العش" الذين ما زالوا يعيشون هناك. وبينما ترشف كلارا من الحساء قالت: "أدين لكِ باعتذار".

"لماذا؟".

"لأنني لم أتحدَّث معكِ عندما جئتِ لزيارتي، أَرَدتُ أن أتحدَّث مَعكِ، لكنَّني لم أستطع"، لمسَت أصابِعَ يدي وقالت: "سامِحيني".

"أنتِ لم تضايقيني، لا حاجةَ للاعتذار".

"أحيانًا عندما أخشى أن أنام بمفردي في الغرفة فأعود للصَّمت مُجدَّدًا وأتحوَّل إلى حجر، ثم يأخذونني من غرفتنا"، ثم ابتسَمَت كمَن يتذكر سالِفَ الأيَّام، "ثم يصطحبونني إلى إحدى تلك الغرف التي يَصرُخُ فيها المرضى، إن صُراخَ الآخرين هو عقابٌ لِصَمتي، أرقد هناك، وأشعر أنني سأختنق، ولا أعرف ما الذي يدفعني للشعور بالاختناق، أَهِيَ صرخات الآخرين أم صمتي، وعندما يصبح الشعورُ بالاختناق غيرَ مُحتَمَلٍ أبدأ بالتَّحدُّث، ليس بالكثير، بالكاد ما يكفي، كلمة أو اثنتان، فقط ما يكفي ليقوم الأطباء أو الممرِّضون بإعادتي إلى غرفتنا".

نهضَت لتجمع الفُتاتَ من الطاولة، ومضت نحو النافذة، فتَحَتها وألقت الفتات منه ثم قالت: "من أجل الطيور"، وأغلقتها، "اعتاد چوستاڤ أن يُطعِمَها"، وابتسمت.

بدا أن كُلَّ طبقات الزمن قد مُحِيَت من أمامها، وكان أخوها أمامها، "هل تذكرين چوستاڤ؟".

قلت: "نعم".

"أذكره أنا أيضًا"، وراحت تنظر إلى النافذة حيث تجمَّعَت العصافير تلتقط الفتات الذي أَلقَته. ثم بدأت كلارا تتحدَّث بصوتٍ رتيب: "چوستاڤ يركض بين الغُرَف، چوستاڤ يبول وراء المنزل، چوستاڤ يرسم بالفحم على السُّور، چوستاڤ يستمني، چوستاڤ يصيح في أُمِّنا عندما صُدِمَت رأسي بالطاولة، چوستاڤ يُريني لوحة لامرأة عاريَةٍ تُباعِدُ ما بين ساقيها، چوستاڤ يُصاب بذبحةٍ بينما نتناول الطعام، چوستاڤ يموت، ندفن چوستاڤ".

التفتت إليَّ وقالت: "دكتور جوته قال لي إن ثلاثة عشر عامًا مَرَّت منذ ذلك الوقت"، وهَزَّت رأسها استنكارًا: "هل صحيحٌ أن كُلَّ هذه السنوات مَرَّت بالفعل؟".

قلتُ: "صحيح".

"والآن حتى دكتور جوته مات".

"مات؟".

"نعم، في الشهر الماضي، هل تذكرين حين..."، وراحت تحكي كيف علَّمنا دكتور جوته الحياكَةَ.

خيَّم الظلام بالخارج؛ فدخلنا غرفتي، وأَطلَنا الحديث. ظلَّت كلارا تبدأ حديثها بـ "هل تذكرين؟"، كانت تعود إلى الماضي وتهرع نحوه، أو تلاحِقُه؛ ظنًّا منها أنه يهرب منها، كما فعَلَت هي حين هربت من

الحاضِر إلى مستقبلٍ خاصٍّ بها، إلى الأمور التي اشتاقت لحدوثها، تلك الأشياء التي تمنَّت أن تُحَقِّقها.

واصَلَنا الحديث حتى أُغلِقَت عيوننا إرهاقًا. تركتها لتنام في غرفتي، وذهبتُ إلى الفِراش الذي كان أبي وأمي ينامان فيه منذ زمنٍ بعيد. فكرة عدم زيارتي لكلارا كل هذه السنوات أبعَدَت عني النوم. لم تكُن الفكرة الجبانة بأنها سامَحَتني كافيةً لتُرضي ضميري، فكنتُ على يقينٍ من أنها ظَنَّت أنني خفتُ وحزنتُ لأنها لم تُكلِّمني حين زُرتُها.

أعرف أنها لم تفكِّر في واجب زيارتي مُجدَّدًا، لكن أن أسألها كيف حالها، وإن كانت ترغب في قَوْلِ شيء، أو حتى إن كانت ترغَبُ بمواصلة الاختناق في صَمتِها الثابت. لا بُدَّ أن هذا كان أقوى من خوفي وصَمتِها، ومن مرضها العُضال.

بعد انتصاف الليل فُتح الباب علىَّ صانعًا صوتَ صريرٍ، فدخلت كلارا إلى غرفة نوم والديَّ إذ تحمِلُ وسادةً من غرفتي. انسلَّت بالقُرب مني وقالت: "أخشى النومَ بمفردي"، استلقت بجواري ووضعت رأسها على الوسادة التي جَلَبَتها من غرفتي.

جافاني النوم طيلةَ الليل؛ إذ أحاول أن أتخيَّل كيف يكون ليلها، ولأن الظلام ابتلع ما يمكن رؤيته، وسمعت الصيحات التي مَزَّقَت صمت الظلام، سمعتُ هؤلاء الذين حُكِم عليهم أن يُحبَسوا مع جنونهم، وأن يُخالطوا جنونَ الآخرين.

صوت أحدهم ينادي على أطفاله، صوتٌ يقول إنه يحترق، وأن اللهيب يُغطِّي جَسدَه، صوت المرأة الحادُّ التي تُردِّد كيف قَتَلَت زوجها. من بين كل تلك الأصوات لم يكن هناك وجودٌ لصوت كلارا كليمت. في محاولاتي لسماع لياليها، وبين صيحات تلك الليالي، الليالي التي تبخَّرَت إلى ليالٍ أخرى، واستحالت سنواتٍ، ظلَّت كلارا صامِتَةً،

كانت تُحِبُّ الهدوء، لم تكن تريد سوى قطعةٍ صغيرة من الأرض حيث يمكنها بكل أمانٍ أن تضع رأسها وتنام الليل.

خلال تلك الليالي سمعتُ كلارا تتنفَّس بصعوبة، وتنتحب، سمِعتُها تُصلِّي، رغم أنها لم تعرف إلى من يجب أن تُصلِّي؛ إذ أنكَرَت وجودَ الله منذ زمنٍ بعيد، بعدما أنكر هو وُجودَها. سمِعتُ كلارا تقطع صلاتها وتكفُّ عن البكاء، سمِعتُ شهيقها وزفيرها، ثم سَمِعتُها تتنفَّس ببطءٍ، وبدا أنها تدفع بعيدًا بعضًا من الألم الذي نزل في صدرها، ثم تشكَّل السؤال: لماذا نوجد أصلًا إن كان هكذا يكون الوجود؟ إن هذا الالتفاف حول الفكرة يُسعِدُها؛ لأن الفكرة وحدها عارية بدون ذلك الالتفاف، فبدونه تُصبِحُ الفكرة غير مُحتَمَلَة.

يغشاها الإرهاق من محاولات التأقلم مع هذا الضجيج، يبدو أن صياح وصفير المصح النفسي في العش يبعدون عنها، أو يصلونها من مسافة بعيدة، ولم تعد أصوات بشرية بل أصوات صنعها الآلم الإنساني إذ يتحول إلى غضب، يقرع ناقوس القدر.

سَمِعتُ تلك الأصوات في مُخيِّلَتي تلك الليلة بينما أستلقي مُستيقِظَةً، وتوقَّعتُ أن تصرخ كلارا في نومها، أن تُجيب في نومها على الأصوات التي عذَّبَتها في الواقع، الأصوات التي مَنَعَت عنها النوم، الأصوات التي اعتادَتها بشدَّة حتى أصبَحَت تخشى الظَّلام.

نامَت بسلامٍ، وفي الصَّباح قالت لي: "إن النَّوم على وسادَتِكِ رائع!".

استلقينا على الفِراش الكبير الذي كان والداي ينامان عليه، ونظرنا إلى بعضنا. راحت كلارا تتحدَّث عن أبناء أخيها، وحَكَت كيف يقوم الچوستاڤات الصغار (لم تَكُفَّ عن مناداتهم هكذا رغم أنهم أصبحوا رجالًا ناضِجين الآن) بزيارتها في "العش"، وأخذت تحكي عن زوجاتهم وأبنائهم.

"عندما يأتون بصحبة أولادهم أشعر أن العالم بأَسرِه قد جاء لزيارتي. أحدهم بدأ يتكلَّم لِتوِّه، وآخر فقد أوَّل سِنٍّ، وآخر وقع وخَدَشَ رُكبَتَه، ورابعٌ تَعلَّم كيف يُطلِقُ طائِرَةً ورقيَّة، ونقضي اليومَ كُلَّه في الملعب نشاهد السماء". ثم راحت تنظر إلى السماء عبر النافذة، ثم التفتت نحوي وقالت: "سأحبُّ جدًّا أن تأتي أحيانًا إلى العش حتى ننام معًا ولو لليلة واحدة مرَّةً أخرى في غرفتنا". أمسَكَت يدي ووضَعَتها بين يديها وقالت: "سأرحل الآن، سأعود إلى العش، إنه مكاني، هذا ما يقوله لي الأطبَّاء عندما أتوسَّل إليهم أن يُفرِجوا عني، لقد هربتُ منهم هذه المرَّة، لكن هذا مكاني؛ ولهذا سأعود إلى هناك".

ربَّتَت عليَّ، وبينما كانت يَدُها اليسرى على رأسي رفَعَت يدها اليمنى وأزْلَقَتها على شَعرِها الضَّعيفِ، وربَّتَت على رأسها، فعانَقتُها. "سأهرب مرَّةً أخرى لزيارَتِكِ"- تنفَّسَت هذه الكلمات على عُنُقي، ثمَّ مَضَت نحو الباب، فتَحَته ثم التفتت قائِلَةً: "لكنني ذاهِبَةٌ الآن، إنه مكاني". كان أمامها خُطوَةٌ وتَخرجُ من البيت إلَّا أنها تذكَّرَت شيئًا ما وسألتني: "هل يُمكنني أن آخذ وسادَتَكِ؟ إن النَّومَ على وسادَتِكِ رائع".

مَرَّ وقتٌ طويل قبل أن أذهب لزيارة كلارا، عندما دَخَلتُ غرفتها، غرفتنا، كانت تجلس على الفراش مُمسِكَةً بالوسادة بين يديها. قالت لي: "هيا بنا نذهب إلى غرفة الموت".

غرفة الموت... تذكَّرتُها، هكذا كُنَّا نُطلِقُ على الغرفة التي يجلبون إليها نُزلاء "العش" الذين أوشكوا على الموت. سَحَبَتني كلارا من يدي، وحشَرَت الوسادة أسفل ذراعِها، ثم غادَرنا الغُرفَة.

أثناء سيرنا في الممرِّ قالت كلارا: "روح طيِّبَةٌ تموت".

في غرفة الموتِ رائِحَةُ الموت، رائحة لحم يَتفسَّخ، رائحة غائط، رائحة عَرَق، ووسط هذا النَّتَن ثمَّة أبدانٌ تتقلَّب عشيَّةَ الموت، وأبدانٌ تنتظره في جمود. كان العديد ممَّن ينتظرون الموت يستلقون على

المراتب الموضوعة أرضًا، مُعذَّبين بنَفَسٍ آخر. كان الجوُّ باردًا، لكن بدا لي أن شيئًا ما يتبخَّر في الغرفة المظلِمَة.

قالت كلارا: "هذا دانييل"، وأشارت إلى شابٍّ لم أتعرَّف عليه، كان يمضغ بطانيته، ومدَّ يدَه ناحِيَتَنا. "وهذا هيلموت"، وأشارت إلى رَجُلٍ مُسِنٍّ يستلقي بلا حراك. تذكَّرتُ ما قالته كلارا منذ زمن بعيد عن أن الأسوياء متشابهون في سوائِهم، لكن لكلِّ مَجنونٍ جنونُه الخاص. وفكَّرتُ، كما حدث حين دخلتُ غرفة الموت للمرَّة الأولى: ففي الموت الكل متشابهون والكلُّ مختلفون، كل شخص يتخلَّى عن روحه بالزَّفير، لكن لكلٍّ زَفيرُه الخاصُّ.

توقَّفَت كلارا وأشارت إلى جسدٍ مُتكوِّمٍ على بعضه وقالت: "ها هي روح طيبة".

واصَلتُ المشيَ تجاه الجسد الراقد على المرتَبَةِ أرضًا في وسط الغرفة، انحنَيتُ وسحبتُ البطانية من وجهها المُغطَّى، كانت "روح طيِّبة" تنظر بشكلٍ ما إلى جانبها، شُفِطَ جَسدُها وكأنَّ جِلدَها قد سحبته عِظامُها، وتحجَّرَت شفتاها لدرجةٍ يصعب معها نُطقُ الكلام، واصلَت هَمسَ شيءٍ ما لماكس، عيناها وحَسبُ كانتا لم تَزالا فيهما حياة، رغم أنهما فَقَدَتا حيويَّتَهما التي اعتدناها سابقًا، الآن فيهما حياة مَن رأى وتَحمَّل كُلَّ شيء، ورغم هذا لديه شغفٌ بأن يعيش ولو يومًا آخر، ويريد أن يُحدِّق في الفراغ، وأن يرى هناك مَن لم يَرَهُ منذُ وقتٍ طويل.

نظرتُ إلى تلك الحيويَّة في عينيها حتى إنها ذبلت وانقبضت وغطى عليها السَّواد. لم يُحرِّكها سَحْبُ البطانية من وجهها؛ لذا لَمَستُ يدها فلم تَتحرَّك أيضًا، لكنها أدارت عينيها نحوي.

سألتني: "هل يَنقُصُكِ أيُّ شيء؟".

أومأت نَفيًا، لم أعرف ما يتعيَّن عليَّ قوله؛ لذا سألتُ ما لا يجب أن يُسأَل لأنه كان واضحًا رؤيَ العين: "كيف تشعرين؟".

قالت: "لا تقلقي، كل شيء سيكون بخير".

ارتجف شيءٌ ما بداخلي لدى سماعي كلماتها، شيء ما خُدِش بداخلي كما ارتجف صوتها.

"هل تذكرينني؟".

"أَذكُرُكِ، أنا فقط لا أستطيع تَذكُّرَ اسمِكِ". أَمسَكَت يدي ووضَعَتها قُربَ صدرها أعلى قلبها: "هل تحتاجين لشيء؟".

"لا، وأنت؟".

"لا تقلقي، كل شيء سيكون بخير".

"أعرف، أعرف أن كل الأمور ستكون بخير".

قالت: "قَبِّليني"، وضغطت يدي أعلى قلبها، وكأنَّ يدها في هذه اللحظة قد لمست قلبي؛ لأن جميعنا في "العش" نحمل هذه الكلمات ونُخبِّئها من أنفسنا، وكما نخفيها عن أنفسنا ونخفي دوافِعَها ونبحث عنها، لكننا نَعثُرُ على الجنون بدلًا منها، والآن ها هي تلك الكلمات، بعد سنواتٍ عديدة، تُنطَق بهذه البساطة كشخصٍ عطشان يطلب ماءً.

"قَبِّليني"، كرَّرَت "روح طيبة" طَلَبَها، وأغلقت عينيها. انحنيتُ وقبَّلتُ جبهة رأسها المتعرِّقة، ثم قلت لها: "يجب أن أذهب الآن".

"تعالي مرَّةً أخرى إن احتجتِ شيئًا"، ولم تنزع عينيها عني بينما أمضي نحو الباب.

قلت: "سأتي".

"ولا تقلقي... كُلُّ شيء سيكون بخير".

ظلَّت "روح طيبة" تتحدَّث إلى الفراغ لأيَّامٍ تاليَة، وكانت تَسأَلُ كُلَّ مَن يقترب من فِراشِها في غرفة الموت إن كانوا يحتاجون لأي شيء، وأكَّدَت لهم أن كل شيء سيكون بخير.

لكنني في يوم زيارتي لها، ظَلَلتُ أُردِّد لنفسي كلمات "روح طيبة": "كل شيء سيكون بخير"، وكانوا يُبهَتون أمام السؤال. لماذا تعاني؟ إنها من لم تُسِئْ لأحد على الإطلاق. كَرَّرتُ كلماتها لنفسي، لكنها لم تجلب لي الراحة: "كل شيء سيكون بخير"... رُدَّت إليَّ هذه الكلمات على هيئة صَدًى خبيثٍ مستهزِئ.

استلقَت هناك وشيءٌ ما بداخلها آمَنَ بأن الزمن ليس تدميراً أبديًّا للذات وحَسبُ، وأن الكون -تلك المساحة التي تمتدُّ حولنا إلى درجةٍ لا يمكننا استيعابها- ليس مجرَّدَ مَجزَرةٍ رهيبةٍ. شيء ما بداخلها آمَنَ بذلك، أعرف هذا من خيطٍ مُتشابِكٍ في صوتها الضعيف، من الشعاع غير المرئي خلف الآلام التي تُخفيها عيناها، لكن بالنسبة لي ظَلَّت هذه الكلمات التي نَطَقَتها بصوتها في خيالي تُرَدُّ إليَّ على هيئة صدًى خبيثٍ مُستَهزِئ.

بعد عدَّة أيام بدأت شمس فبراير الشاحِبة تُذيب الثلوج، مضيتُ إلى الشُّرفة ولاحَظتُ أن الثلج الذي تجمَّع على كرسي أُمِّي قد ذاب، لم يَكُن موسم الجلوس في الشرفة قد حان بعدُ، لكنني جلست على كرسيِّي على أيَّة حال بجوار كرسي أمي.

لم يذُب الثلج تمامًا عندما جاءت آنا لزيارتي. كانت حينها في الثامنة والثلاثين من عمرها، قبل عقدَيْن من ذلك توسَّلَت لأبيها أن يسمح لها بدراسة الطِّبِّ، لكن سيجموند لم يعتقد أن هذا النوع من الدراسة يُلائِمُ الفتيات، وكذا لم تنخرط هي أو ماتيلدا أو صوفي في الدراسة الجامعية.

رغم أنه منعها من الدراسة إلّا أن هذا لم يُفرِّق بينهما، فظلَّت مُخلِصَةً له، لكنها كرهَت كُلَّ النساء اللاتي يُحِطنَ به: كرهَت شقيقاته، وكَرِهَت عمَّتها مينا لأنها كانت كثيرًا ما تسافر مع أخي، كَرِهَت النساء اللاتي يَدرُسنَ التحليل النفسيَّ مع أخي، إلّا واحدة: "لو سالوم"، التي ربطتها بها صداقةٌ وطيدة كان من الممكن أن تتحوَّل إلى علاقة حُبٍّ وعِشقٍ قويَّةٍ، لولا أنها عَهدَت بقلبها إلى شخصٍ آخر: إلى أبيها.

اعتاد سيجموند أن يقول لبناته: "أكثر الشباب فِطنَةً وحِكمَةً يعرفون ما يجب أن تمتلكه زوجاتهم: الرِّقَّة، والبهجة، والقدرة على تسهيل حياتهم وجعلها أجمل". وفي أكثر من مرَّة عندما كنتُ أرى ابنَةَ أخي مع تلك المرأة الناضجة "لو سالوم"، أشعر أن آنا عثرَت فيها على تلك الرِّقَّة والبهجة والقُدرَة على جَعلِ حياتها أسهلَ وأجمل، رغم أن "لُو" لم تَبدُ لأيِّ شخصٍ رقيقةً أو مُبهِجَةً أو قادِرَةً على تسهيل حياة شخص ما أو جَعْلِها أجمل، وربما آنا هي مَن أرادت أن تجعل حياةَ "لُو" أكثر بهجةً وجمالًا لكن تمنعها فكرةُ أنَّها وَهَبَت حياتها لأبيها، وتخيَّلَت أنه بعد موته ستُمَثِّل لها أعمالُه قيمةً لوجودها.

أعماله التي لن تفنى. منذ باكورة شبابها وقد قَرَّرَت أن تَهَبَ حياتها له، شمل نظام حياتها اليومي على ترتيب ما يكتبه دكتور فرويد، استشاراته بشأن مرضاه، تنظيم رحلات العمل، مساعدته على مداواة أمراضه. أحيانًا كانت تنتمي إليه كأبٍ، وأحيانًا كزوجٍ، وأحيانًا كطِفلٍ، وكثيرًا من الأحيان كتلميذ.

لكن على الرغم من ذلك، فوراءَ كُلِّ بهجتها وحيويَّتها، ووراء فِكرَتِها النبيلة بأن تُساعِدَ أباها الكبير، يشعر المرء أنها تعاني من فراغٍ صامِتٍ، فمنذ زمنٍ بعيد في طفولتها، قد وضع حجر الأساس لهذا الفراغ، إذ حوَّل آنا إلى رفيقته، محادثته، كاتِمَةِ سِرِّه، ومَن يعترف لها بكل شيء.

معها أيضًا كَسَرَ القاعدة الراسِخَة التي يُمْلِيها كُلُّ الأطبَّاءِ النفسيِّين: لا يمكن للطبيب أن يعالِجَ شخصًا قريبًا منه، سواء كانوا أهلًا أو أزواجًا أو إخوةً وأخواتٍ أو أبناء؛ لأن هذا قد يسمح باحتمالية استغلال حياتهم اليومية، والتحليل النفسي ذاته سيبوء بالفشل.

لكن ابنته كانت على الرغم من ذلك من بين مرضاه، أخبَرَته بأسرارها وآمالها وأحلامها، وأشواقِها التي تتخلَّص منها قبل أن تتحوَّل إلى أشواق حقيقيَّةٍ، تُطوِّرها فيما بعد، وقد تفصلها عنه.

في هذا الصباح الشتوي حين زارتني آنا قالت لي إنها وسيجموند سيذهبان إلى حَمَّام بخار، وأنهما قبل ذلك سيُمضيان عِدَّة أيَّامٍ في البندقية، كانت مينا ستسافر معهم، لكنها مَرِضَت، ويمكنني أن أحلَّ محلَّها. ابتَسمتُ وأومأتُ برأسي في تَردُّد، تذكَّرتُ الآن كيف تحدَّثنا أنا ورايز منذ سنوات للمرة الأخيرة، وذكَّرتُه بحلمنا في أن نعيش في البندقية.

وصلنا البندقية بعد الظهر، لكنني لم أَرَ ما اشتقتُ إليه بشدَّة ذات يوم: ضُرِب حجابٌ بيني وبين البندقية، حجابٌ أصبح أقلَّ شفافية مع مرور السنوات وأكثر إظلامًا، حِجابٌ يفصلنا عن كل ما يحيط بنا، فيبدو لنا أن حتى ما في متناول اليد ينتمي إلى عالَمٍ آخر لا ينتمي لنا ولا ننتمي له.

اقتَرَحَ أخي أن نستقلَّ جندولًا.

قلتُ: "لا".

مكتبة
t.me/t_pdf

"لكنَّكِ حين كُنتِ فتاةً صغيرة قلتِ إن أول شيء ستفعلينه حين تصلين البندقية هو أن تركبي جندولًا".

"عندما كنتُ فتاةً صغيرة".

قالت آنا إنها ستمضي في القناة وحدَها، قال لها سيجموند إننا سننتظرها في وقت مُحدَّدٍ أمام برج الساعة في بيازا سان ماركو. رأيتُ كيف قام صاحب الجندول بمساعدة آنا على الركوب، ثم لوَّحَت لنا بينما تمضي بعيدًا في القناة، وصاحَت لأبيها قائِلَةً إنها ستحكي له كيف كانت رحلتها في القناة. كانت قيمة وجودها هي أن تعيش من أجل والدها، حتى إبحارها على متن الجندول لا قيمةَ له سوى أنها ستحكي لأبيها عنه.

اقترح سيجموند أن نذهب إلى قصر دوجي[1]، أو كنيسة سان لازارو، أو إلى متحف كويريني ستامباليا، قلتُ إنه من الأفضل أن نعثر على أقصر الطرق إلى بيازا سان ماركو وننتظر آنا هناك.

"ألا ترغبين حقًّا في رؤية أي شيء؟".

قلتُ: "لم يَعُد بمقدوري رؤيةُ أيِّ شيء".

"تتحدَّثين وكأنَّكِ مَيِّتَة".

"لا، أنا أتحدَّث كما لو كُنتُ بين الحياة والموت، لا أَصِلُ لأيٍّ منهما، أعتقد أن ما يتعلَّق بما يُسمَّى الموت يحفل بحياة أكثرَ ممَّا أشعر أنا الآن، وعندما أموت ستضجُّ روحي بالحياة أكثر من الآن، أنا حاليًا في مرحلةٍ انتقاليَّةٍ بين وجودَيْن، بين الحياة والموت، لا هي حياة ولا هو موت".

رفع أخي رأسه ولوَّح بيده أمام وجهه كأنه يُبعِدُ عنه الذُّبابَ، اعتاد أن يفعل ذلك حين يشعر أن ما سَمِعَه لا يستحقُّ الإجابة.

انطلقنا عبر الأَزِقَّة الضَّيِّقة والجسور الصغيرة أعلى القنوات. كان حلم حياتي يُحاوِطُني، البندقية، لكنني حدَّقتُ في الطريق أمامي وأَحنيتُ رأسي. على الرغم من أنه لَوَّح لكلامي بِيَدِه إلَّا أنه لم يستطع

(1) palazzo ducale: قصْر بديعٌ في مدينة البندقيَّة في إيطاليا.

كَبْحَ جماح اعتراضه، وبعد عدَّة دقائق من مَشْيِنا قال: "أتعلمين، كتبتُ منذ وقتٍ طويلٍ أن الأديان ظهرت بدافع الرغبة في المواساة، المواساة عن كل المآسي التي تعرَّضنا لها في الحياة، تعزية عن كل المتَع التي تمنعها عنَّا الحياة، تعزية عن حقيقة أن الموت يفصل بيننا وبين مَن نُحبُّ وبين أنفسنا، مواساة للعدم الذي ينتظرنا بعد الحياة الوجيزة على هذا الكوكب، وتفسيري لأصل المعتقدات الدينية الذي يعود أصله إلى البحث عن الراحة أو التَّعزِيَة سيبقى لفترة أطول من أي معتَقَدٍ دينيٍّ".

"هل هذه هي تَعزِيَتُكَ؟ أن تعيش مُخلَّدًا عبر أعمالِكَ؟ أنْ تُؤمِنَ بأن تفسيركَ للأحلام والوعي البشري وغريزة الموت والحياة سيُذكَر للأبد؟ أهذه هي تَعزِيَتُكَ التي تُعِدُّ نفسكَ من خلالها انتصارًا على الموت؟".

في تلك اللحظة سمعنا غناءً أسفل الجسر الذي كُنَّا نَعبُره، ولأوَل مرَّةٍ أثناء مشيي أرفع نظراتي بعيدًا عن خطواتي وأنظر إلى القناة أمامي، حيث يطفو عِدَّةُ شباب على متن جندولٍ يُغنُّون. تعثَّرتُ وسقطتُ، انحنى أخي وساعدني على النهوض.

سألني: "هل أنتِ بخير؟".

"نعم".

شعرت بألمٍ في رُكبَتي، نفَضتُ التراب عن ملابسي، ثم واصَلنا المشيَ وكُنتُ أعرجُ.

سألني أخي: "هل تؤلِمُكِ ساقُكِ؟".

قلتُ: "قليلًا.. رُكبَتي".

"من هنا... سنقطع الطريق خلف هذه الزاوية ونخرج إلى الميدان".

عندما بلغنا الميدنَ كان بُرجُ السَّاعَةِ هو أول ما لاحظته، كان لا يزال أمامنا ساعة قبل أن نلتقي آنا.

اقترح أخي قائلًا: "لنذهب إلى سان مارك البازيليك".

"إن مُتحَفَ كورر هنا في مكانٍ ما، هل تَذكُر حين عُرِضَت لوحتان لچيوڤاني بيلِّليني في ڤيينا؟ وقفنا أنا وأنتَ أمامها لساعات".

قادني أخي إلى أحد القصور في الميدان، مشينا في الأروقة بلا توقُّف، حتى وصلنا إلى الرواق الذي يحمل أعمال بيلِّليني، أشار أخي على الفور إلى اللَّوحَةِ المرسومة فيها العذراءُ مريم إذ تحمل الطفلَ يسوع. ومرَّةً أخرى، وبعد كل تلك السنوات اختَبَرتُ الحزن المرسوم على وجه ذلك الطفل، العينين نصف المغمضتين اللَّتَيْن لا تبدوان كعينَيْ طفلٍ، بل لشخص أكثر من مجرَّد طفل، لم يكن ينظر مباشرةً أمامه، بل ينظر إلى ألَمٍ عظيم، إلى خسارة فادِحَة، وكأنَّ هذا الطفل قد قرأ مصيره، وانفصاله عن تلك التي تقف خَلفَه في سلامٍ تَحميه، والتي ستكون في كَرْبٍ عظيم بعد عِدَّة سنواتٍ بجوار الصليب؛ لأنها ستعجز عن القيام بأيِّ شيء يَحولُ دون الانفصال والخسارة.

هبط هذا الألَمُ حتى على شفتَيْ الطِّفل، في حركات يديه، وضع واحِدةً على صدره أعلى قلبه، بينما يُمسِكُ بإصبعه الصَّغير إصبعَ أُمِّه، ويشير إلى الأسفل بإبهامه. الأم لا يمكنها أن ترى ارتباكَ طِفلِها الحزين، إنها تنظر إلى مكانٍ آخر، مكان بعيد، نظراتها مُصوَّبَة إلى نقطةٍ خارجَ إطار اللوحة.

لا تستطيع الأُمُّ أن ترى ارتباكَ ابنِها الحزين، لكن ربما شعرت به، ربما تعرف هي أيضًا ما سيحدث لكنها تُسلِّم بالأمر، بأن هكذا يجب أن تجري الأمور، وفي هذا عَزاءٌ مُريح لها. إنها تنظر إلى الأفق خارجَ اللَّوحَة، ربما تنظر إلى واقِعٍ آخر حيث كل شيءٍ مَحفوظٍ، حيث كل ما كان وما هو كائِنٌ وما سيكون يُكتَسَب بمعناه الحقيقي.

قال سيجموند بينما يشير إلى اللوحة: "هاك... هذا ما ينتظره الناس من الدِّين... الحماية الأسرية".

هَمَستُ: "حماية"، لكنه لم يسمعني، واعتبرني أعترض على ما قاله.

"بالضَّبط، حماية! إنهم ينتظرون أن يحمِيَهم الدِّينُ كما حماهم أهلوهم حين كانوا أطفالًا، إن الدِّين مَخزَنُ الأفكار التي وُلِدَت من حاجة الإنسان لأن يجعل عَجْزَه مُحتَملًا، صنعناه من موادَّ من ذكريات الطفولة ومن ذاكرة الجنس البشري، وكذا فالشخص الذي يحمل هذه الأفكار محميٌّ بطريقتَيْن، إنه يحظى بحماية من الطبيعة والقَدَر، وكذلك الأضرار التي تلحق بالمجتمعات البشرية. يَعُدُّ جوهرُ هذا التعليم أن الحياة في هذا العالم تخدم غايةً أسمى يصعب تحديدُها، لكنَّها بلا شَكٍّ تصبو بطبيعة الإنسان للكمال، ربما الطبيعية الروحية في الإنسان، الروح، يجب أن تكون موضِعَ هذا الارتفاع والتمجيد، وضع مُراقَبَةٍ دائمة على كل شخصٍ فينا هو العناية الإلهية، شيء يبدو صارمًا وحسب، ولا يسمح لنا أن نكون لُعبَةً في يد قُوَّةٍ قاهِرَة لا ترحم، ولا يعدُّ الموت نفسه انقراضًا، أو عودة إلى جمود يابس، بل هو بداية لشكل جديد من الوجود، دربٌ واحد للترقِّي إلى شيءٍ أكثر سموًّا، وفي النهاية كُلُّ الأخيار يُثابون، وكل الأشرار يُعاقَبون، وإن لم يحدث ذلك في هذه الحياة ففي الحياة التي ستبدأ بعد الموت، وفي هذه الحالة فكل أوجاعِ ورُعبِ ومآسي وصعوبات هذه الحياة مُقدَّرٌ لها أن تُمحى، إن الحياة بعد الموت التي هي مواصلة أخي، ثم واصل: "هل يجب علينا أن نؤمن بكل هذه الأفكار الطفولية، هل يجب علينا أن نخدع أنفسنا على هذا النحو حتى يتسنَّى لنا تحمُّل الحياة على نحوٍ أسهل؟ أم هناك وسيلة أفضل ليتحمَّل بها المرءُ عبءَ وجوده؟ لو علمنا أننا لا نملك سوى قدراتنا يمكننا أن نُعوِّل على ذلك، في هذه الحالة سنتعلَّم أن نستغلَّها على الوجه الأنسب، إن الإنسان ليس عاجزًا تمامًا. فمنذ أيام الفيضان وقد علَّمه

العِلمُ كثيرًا من الأمور، وستزيد قُوَّتُه أكثر من ذلك، أمَّا فيما يتعلَّق بضرورات القَدَرِ الجَبريَّة، التي لا يمكن القيام بشيء حيالَها، فسوف يتعلَّم تحمُّلَها في خضوعٍ، ويسحب توقُّعاته عمَّا بعد القبر، ويُسخِّر كُلَّ طاقاته المحرِّرَة للحياة الأرضية، وحينها يمكن للإنسان أن يجعل الحياةَ مُحتَمَلَةً للجميع. وهذا أكثر الأفعال إنسانيَّةً، الهدف الأسمى، أن يحيا كل إنسان دون أحمالٍ تُثقِلُ كاهِلَه".

"أنتَ تعلم أن هذه هي اليوتوبيا/ المدينة الفاضلية؟".

"وهل هذا سببٌ كافٍ لكي أعثر لنفسي على عزاءٍ في الاعتقاد بأن الموت ليس نهايةَ الوجود؟ علينا أن نسترضي أنفسنا بحقيقة أن الموت ليس انتقالًا من شكل وجود إلى آخر، بل إنهاءً لوجود، إنه -ببساطةٍ- عدم وجود. الموت استرضاءٌ قاسٍ، يعتقد المرء أنه سيعطيه ما مَنَعَته عنه الحياة".

قلتُ له: "أنت تخشى الموت أكثر من أولئك الذين يتمسَّكون بفكرة الخلود".

"لكن هذا لا يُجبرني على الأمل الكاذب، أو أن أهرب من خوفي".

"أنتَ لا تعاني من الخوف، أنت تُعبِّر عن أفكارِكَ بشأن غياب الخلود على نحوٍ مختلف، وكأنَّك مُقتَنِعٌ بخلودِكَ شخصيًّا".

"لا أفهم ما تقولينه".

"أريد أن أقول إنَّكَ تتحدَّث عن انتهاء وجود الشخص وكأن تحكم علينا جميعًا بذلك، لكنَّكَ تنأى بنفسِكَ عن ذلك، هناك شيءٌ في صوتِكَ يقول: نعم، لا يوجد خلودٌ، الكُلُّ سينتهون إلَّا أنا. إن البرود الذي تَحكُمُ به على الجميع بانتفاء وجودهم بعد الموت يكشف كيف تؤمن رغم ذلك أنك ستظل حيًّا".

"لَطالما أَنكَرتُ خلود الروح بكل وضوح وثبات".

"إنَّكَ لا تَعِد نفسكَ الخلودَ عن طريق أبديَّةِ رُوحِكَ، بل تَعِدُ نَفسَكَ بنوع آخر من الخلود، فمَن لا يؤمن بخلود الروح يمكنه أن يؤمن بأن قَبَسًا من إرادته سوف يعيش، بأنه على نحوٍ ما سيتغلَّب على الموت بما خَلَقه، يمكن للمرء أن يخلق عملًا أو ينجب أطفالًا، الأطفال رغم أنهم من دماء أهليهم إلا أنهم مختلفون عنهم، على الأغلب يكونون نقيضَهم أو نَفْيَهم، نكرانٌ فظيعٌ كالموت، لقد اخترتَ الطريق الأفضل يا أخي العزيز، أنتَ تؤمن أنَّكَ ستعيش من خلال أعمالك، أنت تعلم أن البشرية ستظل تقرأ وتقرأ أعمالَكَ، أنها ستناقش ما قُلتَه عن البشر، عن حلم الإنسان وواقعه، عن وعيه ولا وعيه، عن الطلاسم والمحرَّمات، عن عُقدَة قَتلِ الأَبِ، وزِنا المحارم، عن إيروس وثاناتوس، هذا ما تتوقَّعه عمَّا بعد الموت أن تصير نبيَّ الأنبياء.

إن أيًّا من هؤلاء الذين يتنبَّؤون بمصير الإنسان فوق الأرض أو تحتها لا ينطقون إلا بما في دواخلهم، وبما يُمكِنُهم أن يصيروا إليه طِبقًا لما يَعتَمِل بداخلهم دون أن يعلموا أنه موجودٌ بداخلهم. بينما لا تزال حيًّا فأنت تتغذَّى على الخلود، الغرور والجهل، ومن مكان آخر تحكم علينا بالموت، بالفناء، وكأننا لا نستحقُّ ولو بصيصًا من النور لأنفسنا، نعم، وحده مَن يؤمن أنه سيبقى بعد الموت هو مَن يمكنه أن يتحدَّث بعنجهيَّةٍ عن الموت بالنسبة لأولئك الذين يرون فيه فَناءً. لكن اسمح لي أن أخُصَّكَ بشيء ما، كلُّ هؤلاء الذين يؤمنون أنهم سيُخلَّدون بما خلقوه، سواء كان أبناءهم الذين يحملون دماءَهم، أو أعمالهم الفنية والعلمية- كُلُّ هؤلاء يخدعون أنفسهم على نحوٍ فظيع بأن هذا سيضمن لهم الخلود، فلتعلم أن كُلَّ هذا مصنوعٌ من المادة، وأن المادَّة ستُبَدَّدُ وتختفي ذات يوم، فلتعلم أن حتى أعمالك التي ستظلُّ تُقرَأ وتُفسَّر طالما ظَلَّ الإنسان موجودًا ستموت يومًا ما، وسيموت معها خلودُكَ؛ لأنه في يومٍ ما حتى آخر شخص سيموت،

يجب أن تعلم أنك أيضًا هالِكٌ، وأن الخلود الذي تعتقد فيه ليس سوى موتٍ طويل لا نهاية له".

قال أخي: "دعينا نَقُل إن هذا صحيحٌ، فحتى لو كان كذلك، فإن اتهامَكِ كله بأنني أُطارِدُ خوفي من الموت بإيماني بخلود أعمالي لا يُثبِتُ أن خلود الروح أمرٌ حقيقيٌّ".

"ليس السؤال ما إذا كان جزءٌ من الإنسان -وليكن اسمه الرُّوح- يبقى بعد الموت، السؤال هو: إن لم يكن هناك هدف أَسْمَى، فهل يُعَدُّ وجودنا بأَسْرِه بلا معنى؟".

كُنَّا نمشي في دوائر حول الغُرَف بجوار الحوائط أثناء تحدُّثنا دون أن ننظر إلى اللوحات المعلَّقة. كنا نمشي في دوائر، ففكَّرتُ في دائرة الحياة ودورة الولادة التي لا تنتهي، مواليد ووفيات، مواليد ووفيات...

قال أخي: "إن فكرة وجود معنى للحياة هي رغبةٌ مكبوتة في السعادة الدائمة، أو ربما، تحرِّيًا للدِّقَّة، فإن الحاجة للبحث عن معنى للحياة تنشأ حين نُدرِكُ استحالة تحقيقِ السَّعادة، فما يُسمَّى بالسَّعادة هو بالمعنى الحرفيِّ للكلمة هو تحقيقُ رغباتٍ مَكبوتَةٍ على نحوٍ غير مُتوقَّع، وبطبيعة هذه الحالة يمكن تصنيفها كظاهِرَةٍ عَرَضيَّة".

"إنَّ تفسيرَكَ للسعادة بعيدٌ عن معنى السعادة إلَّا في هذا: يشير معناها الأسمى إلى وجود معنى في كُلِّ الأشياء وليس السعادة وحسب، هل كل الحُزنِ في العالم خطأ أم صُدفَة؟ وأين يذهب كُلُّ هذا الحزن وكل ما كان في الزَّمن. إلى أين تذهب الأفكار والمشاعر، أين كلُّ الإيماءات والكلمات منذ بداية الزمن وحتى هذه اللحظة، إذا كانوا قد اختفوا وكأنهم لم يَكُن لهم وجودٌ على الإطلاق فلماذا وُجِدوا من الأساس؟ لماذا ينقلَّب القلب بين المباهج والأحزان؟، لماذا نُطِقَ بالحقِّ والباطل؟ لِمَ الآمال والخيبات، لِمَ الأفكارُ الحكيمة والحماقات؟ لماذا البهجة والغَمُّ؟ لماذا أفعال الخير وأفعال الشَّرِّ؟ إن لم يكن الزمن محفوظًا، إن

لم تَكُن كل لحظة مُخزَنَة بشكلٍ ما، إذن فالزمن نفسه لا معنى له، فكل شيء يوجد في حدود الزمن لا معنى له، وكل ما هو كائِنٌ وما كان وما سيكون لا معنى له، من العبث أن يكون الزَّمَنُ مُدَمِّرًا لذاته، ينحدر إلى العدم، عدمٍ يلتهم كلَّ ما كان وما سيكون، لكن هناك احتمالية أخرى: أن الزمن كُلَّه موجودٌ في مكان ما في حاضرٍ أَبَديٍّ، في بُعدٍ آخر، الإمكانية مُتاحة، تنبض بالتوازي والتزامُن حتى يُنقَل كُلُّ الوقت، الحالي وما كان وما سيكون، إلى هذا البُعد الآخر، وهناك فقط وعلى هذا النحو -عن تجربةٍ- تلتقي كُلُّ الطبقات المؤقَّتة وكل أشكال الوجود، يكتسب كُلُّ شيء معناه، وهو يتعذَّر علينا فَهمُه لنا في وجودنا العابر. يُحفَظ كل ما تَحلَّل مرَّةً إلى الأبد، هناك عبر تقاطُعاتٍ لا حصرَ لها، تكتسب كل إيماءة وكل كلمة وكل ابتسامة وكل دمعة كل سعادة وكل لحظة حزن تبريرًا وهدفًا، هدفًا قد لا يبدو لنا مفهومًا الآن، ربما يكون وجودنا هذا أُحجِيَة ستُحَلُّ عندما ينتهي هذا الوجود كما نعرفه، وحينها سيكتسب معناه الحقيقي".

"بدلًا من التخمينات الطفولية يجب على المرء أن يسأل نفسه سؤالًا بسيطًا: ماذا يمكن للناس أن يكتشفوا بشأن الهدف من حيواتهم بناءً على سلوكاياتهم، ما الذي ينتظرونه من الحياة، ما الذي يرغبون في تحقيقه؟ لا مجالَ للإجابة الخاطئة: إنهم يلهثون وراء السعادة، يرغبون فيها، يتمنَّون أن يظلُّوا هكذا إلى الأبد، أمَّا أولئك الذين يُعذِّبون أنفسهم بأسئلةٍ تَتعلَّق بمعنى الحياة هم مَن حَقَّقوا القَدْرَ الضئيل جدًّا من السعادة خلال بَحثِهم عنها في حياتهم".

"ربما يكون هذا صحيحًا، فأولئك الذين سُلِبوا من قيمتهم الأرضية، ومعنى حياتهم اليومية، يسعون إلى معنى فوق أرضيٍّ، سماوي، إذن فليكن هذا عَزاءً: أن يُسمَح لهذا بأن يكون عَزاءً لمن يصارعون في حياتهم اليومية مع غياب المعنى، رغم أنني أعلم أن هذا ليس مجرَّدَ عزاءٍ؛ ففي الزمن الكَونيِّ كل الأشياء لا معنى لها؛ لأن كل شيء فيه سينتهي

ويفقد معناه، أمَّا في الأبدية فكلُّ شيء انتهى في الزمن الكَونيِّ سيُعاوِدُ اكتسابَ معناه، معنى لم يُمنَح لنا في حياتنا حتى نفهمه أو نختبره".

في هذه اللحظة توقَّف سيجموند ورفع يده مُلوِّحًا بها أمام وجهه وكأنه يهشُّ الذباب، كما يفعل دائمًا عندما يعتقد أن ما قيل لا يستحقُّ الرد. رفع يده لكنه لم يُلوِّح، بل توقَّفَت يده أمام وجهه، ليس بسبب خاطِرَةٍ ما حول المعنى والعبث، بل لأنه كان ينظر إلى ساعَةِ يَدِه، وقال: "آنا تنتظرنا بالفعل".

استَدَرتُ إلى الحائط، كُنَّا نقف بجوار لوحة "الصَّلب" مُباشَرَةً. لم تحمل اللوحة أي شكل من الأمل، فقد استسلم وجه يسوع رُعبًا باتجاه وجه أمه الذي يُغطِّيه هَمٌّ فظيع، خضوعٌ وبؤسٌ كما في لوحة المادونا وطفلها، الآن فقط ملأت خضوعَها بالرُّعب، "نفس الكلمة" ليسوع لحظة موته، وأمه تقف بجوار الصليب في حزن، يداها ممدودتان ورأسها مَحنيٌّ، ونظراتها مَعميَّة عن أي شيء حولها إلا ألم روحها، عيناها غطَّاهما السَّوادُ، وحَلَّ محلَّهما الحزن وحسب.

قال أخي: "هيا بنا"، ومضيتُ معه أسند عليه وأعرج أثناء مشيي، والتفتُّ إلى الأم وابنها، إلى انفصالهما.

أمضيتُ تلك الأيام في غرفة الفندق، توسَّل إليَّ كُلٌّ من آنا وسيجموند أن أتجوَّل معهم في المدينة، لكنني كنت أشكو من ألم رُكبَتي، كنتُ في الحقيقية أعرج. جلست في الغرفة وأخذت أفكِّر في المحادثة التي دارت بيني وبين أخي.

فكَّرتُ في الكلمات الشَّغوفة التي تحدَّث بها بينما نقف بجوار المادونا الكبيرة الواقفة بجوار يسوع المصلوب، والمادونا التي تحمل يسوع طفلًا: إن الهدف الأسمى الذي يجب على البشر أن يسعوا إليه هو أن يُسمَح لكُلِّ شخصٍ بأن يعيش حياتَه بأقل قَدرٍ من المعاناة، وأن يساهم كلُّ شخصٍ في إدراك هذه الفكرة.

في أحد أيام فبراير من عام 1933 آمن سيجموند بهذا، لكن الأحداث أخَذَت ترتيبًا آخر، فأصبح لألمانيا قائدٌ جديدٌ، وعادت شقيقاتنا إلى ڤيينا، وعندما احتلَّ القائدُ الألمانيُّ النسما غادر أخي إلى لندن مع أولئك الذين اختار أن يُنقِذَ حيواتِهم، بينما تَمَّ ترحيلنا -نحن شقيقاته- من مخيَّمٍ إلى الآخر.

أثناء لحظات المعاناة التي عِشناها أنا وشقيقاتي، بَدَت كلماته عن أنَّ كُلَّ شخص يجب أن يُجاهِدَ من أجل تقليل معاناة الآخرين مجرَّد سخافات.

في الصباح الأخير في البندقية، بعدما جال كلٌّ من سيجموند وآنا في المدينة، اشتعَلَت بداخلي الرغبة في مشاهدة لوحتَيْ المادونا ويسوع مجدَّدًا رغم عرجي؛ فغادَرتُ الفندق، ومضيتُ صوب الميدان، وفي أحد الشوارع الجانبية ركَضتُ عبر حشدٍ من الناس، في السنوات السابقة اعتدتُ أن أنظر إلى مثل هذه الحشود من نافذة غرفتنا في ڤيينا، لكن هذا الحشد لم يكن مُكوَّنًا من أُناسٍ يرتدون زيًّا مُوحَّدًا، بل ارتدوا أقنعة.

كان مهرجان البندقية قائمًا، والآن يمرُّ بجواري شتَّى أشكال المخلوقات: أميرات وشحَّاذين، حكام وعبيد، أشخاص يتنكَّرون في هيئة طيور وأسماك. كُنَّا نتحرَّك في الاتجاه ذاته، لكنهم كانوا يتحرَّكون بسرعة، فتخلَّفتُ عنهم، وضغطتُ نفسي في جدار أحد المنازل، ورحت أنظر إلى وجوههم وأجسادهم، إلى الريش والحراشف والمناقير، والزعانف والأجنحة التي تنكَّروا فيها. رأيتُ بينهم رجلًا يتنكَّر في دور الأَبْلَه، يرتدي بنطالًا ضَيِّقًا وقميصًا فاتحًا، وقُبَّعَةً مُزركَشَة بورود. ابتعَدتُ عن الحائط واتَّجهتُ نحوه.

كان الناس يمرُّون بسرعة، اصطدموا بي فوقعت أرضًا، رقدتُ على الأرض أحمي رأسي بيدي، ورأيتُ عشرات الأقدام تتخطَّاني، وسمعت

صيحاتٍ سعيدةً، أغاني وضحكات. بعدما تشتَّت الحَشدُ نهضتُ على مَهلٍ، ونَفَضتُ التراب عن ملابسي، نظَرتُ إلى الاتجاه الذي أخذه الحشدُ، فكان بيازا سان ماركو.

كانت هناك امرأة تجلس على الرصيف في المدخل إلى البيازا، تمدُّ يدًا للصَّدقات، والأخرى تحمل بها طفلًا، حدَّقتُ فيها ورَأيتُها ترفع يدها وتُلوِّح لي؛ فرَفعتُ يدي ورَدَدتُ لها التحية، أنزَلَت يدها فحسبتها تقصد شخصًا غيري بتلويحها لي، كانت تستعين بإيماءتها تلك ربما لتكنس أفكارها، لكي توقف نفسها عن الوقوع في التناقُض، ثم أخرَجَت ثديَها وبدأت تُرضِع الطفل.

مرَّت عشر سنوات منذ تلك اللحظة وحتى نهاية حياتي، ونسيتُ هذه المرأة على الرصيف التي تُرضِعُ طفلها. في تلك السنوات العشر جاء قائِدٌ جديد لألمانيا، واضطرَّت شقيقتاي: بولين وماري لمغادرة برلين، فعشنا مرَّةً أخرى في الشقة التي تَرَكنَها بعد زواجِهنَّ، بعد أن أحكم القائِدُ الجديد قبضَتَه على النمسا، أيضًا انضمَّت لنا روزا في بيتنا.

كتب أخي قائمةً بالأشخاص الذين بإمكانهم مُغادرة ڤيينا معه، اعتقدنا أنه يستطيع إخراجنا من ڤيينا حتى مع وجوده في لندن، آمنًا بذلك حتى مماته. عِشنا في فقرٍ وخوف، وذات يوم حمَّلونا في قطارٍ ونقلونا من مُخيَّمٍ تلو الآخر، وفي اللحظة التي قادونا فيها إلى الغرفة حيث سمعتُ صوتَ هسيس الغاز، أدركنا أننا نَقِفُ وجهًا لوجهٍ أمام الموت، فتذكَّرتُ المرأةَ الجالسة على الرصيف تعتني بطفلها.

***

كنتُ أمضي صوب الموت، وأَعِدُ نفسي بأن الموت ما هو إلَّا نسيان. كنتُ أمضي صوبَ الموت وقلتُ لنفسي إن الإنسان ليس إلا ذِكر عابرٍ،

كنتُ أمضي صوبَ الموت، ورَدَّدتُ لنفسي بأن الموت إن هو إلَّا نسيانٌ لا غير.

كنت أمضي صوبَ الموت وأُردِّد على سمعي ما سأنساه.

سأنسى كيف أحضرونا إلى هذه الغرفة، سأنسى الرَّاحَةَ الكريهة، سأنسى كيف يصرخ العجائز حولي خوفًا من موتهم، يصرخون أو يُصلُّون، سأنسى كيف أضغط على يَدِ أختي، وكيف تضغط هي على يدي، هكذا سيكون موتي... نسيانًا.

سأنسى أيضًا إيڤا وابنتها الصغيرة التي أسمَيتُها على اسم أمي. سأنسى كيف مَضَت أوتلا إلى موتها بصحبة المئات من أطفالها. سأنسى سنوات الخوف، السنوات التي خفنا فيها من أن يَطرُقَ بابَنا رجالٌ بِزِيٍّ رَسميٍّ ويسحبوننا في أي لحظة إلى مُخيَّمات الموت، أو ببساطةٍ يطلقون الرصاص في رؤوسنا، سأنسى كيف تمنَّينا أن يُخرِجَنا أخي من قُبينا. سأنسى اليوم الذي عَلِمتُ فيه بموت أخي.

سأنسى أيضًا المرأة التي ترعى ابنها على الرصيف في بيازا سان ماركو.

هكذا سيكون موتي، هذا النسيان، سوف أنسى.

سأنسى كيف كانت "روح طيِّبة" تموت، وكيف قالت لي: "قبِّليني".

سأنسى أن أمي نادتني بـ "ماما" قبل موتها بيوم، سوف أنسى أن هذه كانت أوَّلَ وآخِرَ مرَّةٍ يناديني أحدهم بـ "ماما".

سوف أنسى هنريل وحديثَنا عن ذباب مايو، سأنسى كيف أزلق هنريل الدمية التي صَنَعتُها له، وكيف مسح بها بعد ذلك فمَه الدَّامي.

سأنسى كيف عَثرتُ على سيسيليا وشَعرَها مَرخيًّا على الوسادة.

هكذا سيكون موتي، هذا النسيان، سوف أنسى.

سأنسى كيف تركتُ بيتي، سأنسى السنوات التي قضيتها في "العش".

سأنسى كلمات أمي، سأنسى كلمات أمي.

سأنسى كيف لعَنتُ بذرة أبي ورَحِمَ أُمِّي.

سأنسى آثار الدماء على حائط غرفتي، البقايا الوحيدة لطفلي الذي لم يُولَد. سوف أنسى.

سأنساكَ أيضًا يا طفلي الذي لم يولد، سأنسى كيف كان بمقدوري أن أَبتَهِجَ بقوَّةٍ، ولفترةٍ وجيزة. هذه هي حياتي وهذا هو موتي، سوف أنسى.

سأنسى أنني قلت لأخي إنَّ الجَمال هو العزاء الوحيد لنا في هذا العالم. سأنسى ذلك الألم اللذيذ والاشتياق لإنجاب حياةٍ جديدة، سأنسى كيف شَعرتُ أن قلبي ورَحِمي وفَرْجي ينبضون معًا كعضوٍ واحدٍ.

هكذا سيكون موتي، هذا النسيان، سوف أنسى.

وسأنساكَ يا رايـنر، سأنسى كيف جَرَفتكَ المياهُ بعيدًا، سأنسى نَظرَتَكَ المفعمة بالفراغ، سأنسى أملي بأن تدبَّ الحياة مُجدَّدًا في هذا الفراغ. سأنسى كيف كانت نظراتك الفارغة تَنصبُّ إلى الداخل أولًا، فتنسكب دموعُكَ بداخلك.

سأنسى نظراتك القاسية بين هاتَيْن النظرتين، سأنسى كل شيء يا رايـنر: كُلًّا من الرِّقَّة والقسوة، سأنسى سؤالكَ: مَن أكون؟، سأنسى أيضًا إجابَتَكَ: أنا لا شيء. سأنسى أنني بِسَبَبِكَ شعرتُ أنِّي نَكِرَة، سأنسى فَرَحي حين علمتُ أني أحمل طِفلَكَ، سأنسى كيف كُنَّا نلعب بظلالنا حين كُنَّا أطفالًا، سأنسى كيف مَزَّقتُ جيب ثوبي الأحمر وأعطَيتُكَ إيَّاه كتذكارٍ.

هكذا سيكون موتي، هذا النسيان، سوف أنسى.

سأنسى حياة وممات أبي الهادِئَتَين.

سأنسى سارة وأصابعها التي تمسك بالهِندِباء، سأنسى سارة وسحابة الفراشات حولها، سأنسى سارة وسأنسى كيف كانت تنظر إلى سيجموند بشوقٍ خَجولٍ. سأنسى سارة وما طَلَبَته: لا تَنْسَيْ كلارا وساعِديها قدر ما أمكَنَكِ، سأنسى أيضًا كلار واعتناءها بالچوستاڤات الأربعة عشر، سأنسى اهتمامها بالموتى، وسأنسى كيف تحوَّلَت صرامَتُها إلى وَهَنٍ، سأنسى كيف كانت تُشبِهُ طيرًا خائِفًا.

سأنسى ضَعفي، هكذا سيكون موتي، هذا النسيان، سوف أنسى.

سأنساكَ يا سيجموند، سأنسى كلَّ شيء يتعلَّق بكَ، من ذكرياتي الأولى حين لم يَكُن للأشياء أسماء في مُخيِّلَتي، وحين أعطَيْتَني أنتَ أداةً حادَّةً وقلتَ: سكين.

سأنسى أنه في بداية حياتي كان الحبُّ والألم، سأنسى الألم الأول، سأنسى قطرات الدم الساكنة من الجُرح السِّرِّيِّ، سأنسى ألمي الأول، وأول ما تَذَكَّرتُ من كلمات، كلمات أمي: لَيتَني لم أَلِدْكِ.

سأنسى أنني وُلِدتُ.

رَدَّدتُ ذلك وأنا أنتظر موتي، رَدَّدتُ قائِلَةً إن الموت ليس سوى نسيانٍ، وأنني سأنسى.

سأنسى...

مكتبة
t.me/t_pdf

telegram @t_pdf

أخت فرويد

سعى فرويد طيلةَ حياته لإثبات أن الشعور بالذنب هو ما يحفِّز الجنس البشري؛ لأنَّ الناس جميعهم كانوا أطفالًا ذات يوم، وفي صراع الطفل لِنَيْل حُبّ أُمِّه يتمنَّى موتَ مُنافِسِه، أبيه، هكذا يقول أخي سيجموند، لقد ألقى باللوم على أكثرهم براءةً وأكثرهم عجزًا؛ لتحميله هذا الوِزْرَ الأصليَّ.

اتَّهم مَن وصلوا لِتوِّهم إلى الحياة بالرغبة في قتل مَن وَهَبَهم إيَّاها، هذا بالإضافة إلى الشعور بالذَّنب الذي يسيطر على كُلِّ إنسان. وألقى على عاتقه أمرًا آخَرَ: إنه يذكر حين كان في عمر العام ونصف العام أنه تمنَّى موت چوليوس، أخيه، المولود حديثًا، والذي مات بعد ستَّة أشهر.

الغلاف عمر مصطفى

ISBN 978-977-313-821-9

مركز المحروسة للنشر والخدمات الصحفية والمعلومات